هذا العدد

وقصص أخرى

بقلم: د. شكري محمد عياد

بينما كان هذا العدد فى المطبعة هبط الانسان على سطح القمر ، واحتفلت جمهوريتنا بالعيد السابع عشر للثورة ، وانعقدت الدورة الثالثة للمؤتمر القومى للاتحاد الاشتراكى العربى ، على لهب معركة طال الشوق اليها ، معركة حقيقية يبدأ بها الصراع الطويل الجاد ضد عدو لئيم .

تحيك فى النفس شبهات : هذا كله ونحن هنا مشغولون بما نسميه عدد القصة ! أين نحن من تلك المراكب الجبارة التى تشق فضاء الكون من سماء الى سماء ، لتحمل اقدام الانسان الى كوكب غير الكوكب الذى عجن من ترابه ، حيث يستطيع أن ينظر الى عالمنا هذا بجباله وأنهاره ومحيطاته ، بل بدوله وحكوماته وأجناسه ، بل بآلاف الملايين من البشر فوقه ، كرة سابحة فى الفضاء لا يمسكهن عليها الا تقدير ربك العزيز الحكيم . بل أين نحن من أولئك الابطال الذين يدبون الى معاقل العدو ، جماعات قليلة تخوض فى الماء والليل لا تحمل الا سلاحها الخفيف ، لتدمر دباباته ومدافعه ودشمه ؟ أو أولئك الابطال الذين يقصفون بقذائف طائراتهم مواقع العدو ويشتبكون مع طائراته ، محطمين خرافة تفوقه الساحق فى الجو ؟ هل وقفت هنيهة ــ أيها القارىء الذى لا تعمل فى الجبهة ــ لتسال نفسك عن قيمة عملك ، بل قيمة حياتك ؟ وهل استطعت أن تحلل هذا الشعور القلق الذى ينتابك كلما سمعت أو قرأت عن المقاومة وشجعانها ، أو الحرب ونيرانها ، أو العدو وجرائمه ؟ ما اخال هذا الشعور الا كشعور من يقف فى صف لينتظر دوره ، ولكن أى صف وأى دور ؟ وأى مكان هذا الذى سيذهب اليه ؟ مكان تدفعه كل غرائزه نحوه ــ غرائز الحياة وغرائز الموت ، ويتعلق كل وجوده به ، وجوده مادة ووجوده فكرة .

ولكن ما أكثر ما نحتاج الى تعلمه ! من ذلك : الوقوف فى الصف وانتظار الدور . انتظار من يثق أنه ، عندما يحين الوقت ، سوف يدخل مع الداخلين . انتظار الحازم المطمئن . فانى أشك أن قلقنا اليوم قلق مسرف غير طبيعى . قلق من لم يتعود الانتظار . قلق من يتأهب لتجربة يجهلها تمام الجهل . قلق فرد من أمة لما تألف الحرب . أما والحرب أمامنا فعلينا أن نتعلم ، وأن نتعلم بسرعة ، كيف ننتظر دون أن نقلق أكثر من القلق الطبيعى .

على أننا لا ننتظر فحسب . ولكننا ننتظر وبين أيدينا أعمال نؤديها ، وهى لا تنتظر . فعلينا أن نتعلم أيضا كيف ننتظر دورنا فى القتال ـ اذا دعا الأمر ـ ونحن نؤدى أعمالنا بجد واتقان . علينا أن نتعلم أن الحرب ليست قتالا أو عملا فى الجبهة فحسب ، ولكنها قبل كل شىء أسلوب فى الحياة .

وحين نسأل أنفسنا ـ نحن الذين نكتب القصة أو نقرؤها ـ ما قيمة هذا الذى نعمل؟ فعلينا أن نتذكر أننا نملك أن نجعل له قيمة أو نجعله عديم القيمة . نملك أن نجعل له قيمة حين نقترب به من جوهر الانسان . والانسان هو الذى صنع الطائرة والصاروخ والمركبة الفضائية . والانسان هو الذى قهر الطائرة والصاروخ والمركبة الفضائية حين أرادت أن تستعبده فى فيتنام . والانسان ربما كبت شهوة حيوانيته للطعام أو للجنس ، ولكنه لا يكبت شهوة روحه للفن .

فى ليلة القادسية ، وقد حل التعب بعسكر المسلمين ، سأل سعد بن أبى وقاص : أليس فى الجيش من يروى قصة عنترة ؟ وكان من مفاخر الروس فى الحرب العالمية الثانية أن جنودهم الذين حاربوا جحافل النازى كانوا يقرأون فى الخنادق شعر هاينى وفى حصار لننجراد ، الذى دام ثلاث سنوات ومات فيه نصف مليون من سكانها ، ظل الناس يستمعون الى الأوبرا . وسيبقى للفن العظيم مكانه فى كل جهد انسانى عظيم ، لأن آية الفن العظيم أن يلهم الانسان ، فى ساعة الجهد والشدة ، ما يقهر به غرائز الحيوان .

●●●

ما أسخف هذه المقارنة المعادة المكرورة بين الفن والدعاية ! أى فن عظيم لم يكن دعاية عظيمة ؟ كل ملاحم العالم ، حتى الالياذة والأوديسة ، عند من يعلمون ! ولكننا سخطنا، ذات يوم ، على الدعاية الضعيفة الجاهلة ، فرمينا الفن الضعيف مثلها بأنه دعاية . لم يكن هذا الفرق معروفا في القديم ، وكلمة الدعاية نفسها كلمة مستحدثة ، كلمة تنتمى الى عصر الصحافة الواسعة والراديو والتليفزيون ، وسائل الاعلام الضخمة ، والى جماعات معينة سيطرت على هذه الوسائل ، وسخرتها لمصالحها ، هازئة بالقيم الانسانية ، وسيكون علينا أيضا ، ونحن نتعلم ونحارب ونقهر التخلف ونبنى حضارة ، أن نخلص وسائل الاعلام من هذه السيطرة المفسدة التى تمتد عبر العالم الحديث ، وأن نسخرها

لخدمة الجماهير ، لرفعة الجماهير ، لا لخدمة فئات معينة لا ترى بأسا فى أن تستغل أحط غرائز الجماهير لترويج سلعة ، أو لتبرير ظلم . وحين نصنع ذلك حقا سنجد أننا نصنع فنا عظيما ، فنا لايبالى أن يقال عنه انه دعاية، لأن هذه الكلمة حين تجرد من معانى الاستغلال والتضليل لا تكون الا صفة من صفات الفن العظيم .

لن يكون الأمر سهلا مثل هذه الكلمات . لماذا ترتبط ((الحداثة)) فى الأعمال الفنية والأدبية بمعنى الرفض ؟ الرفض للقيم الاجتماعية والرفض القيم الفنية أيضا . أود أن أقول ، الرفض القيم الفنية قبل الرفض القيم الاجتماعية . التجارب التى تحطم الأطر الفنية المتعارف عليها ، وتحاول أن تخلق جمهورا غير ملتزم بهذه الأطر ، وتلتحم به عن طريق مهرجانات المسرح ونوادى السينما والأمسيات الشعرية الخ . ألسنا نرى فى هذه التجارب محاولات لاستعادة الصلة الحميمة، بين الفنان وجمهوره ، تلك الصلة التى قضت عليها وسائل الاعلام الضخمة ؟ ولكن من الواضح أن هذه الاعمال الطليعية كما تسمى لا تستطيع أن تلغى تأثير وسائل الاعلام الضخمة ولا أن تحل محلها . انها تبدو فى أكثر الأحيان أشبه بجزر منعزلة فى خضم من الأفلام والمسلسلات والتعليقات الخفيفة . وأصحابها يمكن أن يكونوا روادا كما يمكن أن يكونوا طوائف منعزلة تخلق عالمها الخاص المكتفى بنفسه ، وتستمتع بالنظر الى العالم الكبير المحيط بها نظرة استهزاء . هذه هى فى الواقع مشكلة كثير من الأعمال التجريبية التى تبدو عاكفة على تعميق الهوة بين العالمين ، وحجتها فى ذلك أنها تكشف زيف العلاقات الانسانية فى ظل النظام الرأسمالى . ولكننا ينبغى أن نسأل :

أليس من الممكن أن نستفيد من ظروف مجتمعنا الذى لم يتحدد شكله بعد ، والذى يختلف تبعا لذلك عن المجتمعات الغربية بتقاليدها الراسخة ، ونظمها العميقة الجذور، فلا تكون ((الحداثة)) عندنا قائمة على الرفض ، ولا يكون التجريب قائما على الغرابة ، بل تكون الحداثة سعيا الى تحطيم الحاجز — الذى لم يصل التطور الرأسمالى الى تدعيمه — بين المثقفين وجماهير الشعب، ويكون التجريب بحثا عن وسائل فنية أقدر على النفاذ الى هذه الجماهير ؟

ان الالحاح على صلة الفنان بجمهوره قد يبدو لبعض الناس ابتذالا للفن . وما ذلك الا لأن النشاط الفنى ، فى ظل الرأسمالية المتقدمة ووسائل الاعلام الضخمة ، افساد متبادل : الفنان يفسد الجمهور ، والجمهور يفسد الفنان . وهما معا يتدحرجان الى الهاوية . والفنان الذى تسخطه هذه الحالة يقف بمعزل ، ويكذب على نفسه زاعما أنه لا يكتب للجمهور . ولكننا قد نتخيل — بدلا من علاقة الانحطاط المتبادل بين الفنان وجمهوره — علاقة سمو متبادل . ولأخاطر مرة ثانية فاقول ان الفن الذى أتخيله ليس دعاية عظيمة فحسب ولكنه أيضا ((تعليم عظيم))

اذا لم يخدع الفنان جمهوره فهو لا محالة يبلغه رسالة ، أى أنه ((يدعوه)) . واذا لم يتملقه فهو لا محالة يفيده ، أى أنه يعلمه . وقد يثور معترض ، يسأل مستنكرا : وأين ((الرؤية)) ؟ وأين ((الخلق)) ؟ وأين ((التصوير))؟ وأين ((التشكيل)) ؟ والجواب أننا يجب أن نحرص على هذا كله ، لأنه حقيقة الفن التى تميزه عن كل نشاط بشرى آخر ، ولكن هذه الحقيقة — ويمكنك أن تقول انها هى ((العلة الصورية)) للفن — لا تنفى أن تكون له ((العلة الغائية)) التى وصفناها .

وإذن فالفن العظيم دعاية عظيمة ، بغير أن يكلف هذه الدعاية . أو قل انه لا يكون عظيما — دعاية وفنا — الا حين لا يكلف أن يكون دعاية . والفن العظيم كذلك تعليم عظيم ، ولكنه لا يعلم بالحكم والمواعظ ، ولا بالبيانات والاحصاءات ، لأنه انما يعلم جوهر الحقيقة ، وجوهر الحقيقة يصل اليه القارىء — وحده — من خلال الأشياء .

●●●

اننا لا ننتظر من الكاتب الفنان اليوم ما كنا ننتظره منه قبل عشر سنين . لا سيما كاتب القصة القصيرة . أذكر ملاحظة لتشارلس مورجان عن ((الحرب والسلام)) : ان عبقرية تولستوى فى هذه الرواية العظيمة هى ((الارتجال)) . وكيف كان يمكنه أن يتم هذا العمل الضخم ، على مدى بضع سنوات ، وهو يتغير كل يوم ، ومنظور الأحداث والأشخاص يتغير أمامه ، لولا خصلة الارتجال ؟ ولكن كاتب القصة القصيرة لا يجد نفسه فى مثل هذا المأزق . انه يقبض على الانطباع الحى ، فتكون كل مهمته هى تكثيف اللحظة . واذا كان عالمنا قد تغير خلال هذه السنوات العشر الأخيرة تغيرا محسوسا ، فطبيعى أن تختلف القصة القصيرة فى الموضوع وفى طريقة العلاج ، واذا لم نجد هذا الاختلاف فيجب أن نحكم بان ثمة خطأ يلزمنا اصلاحه . وما دام الموضوع الجديد والطريقة الجديدة لا يكشفان عن أنفسهما بسهولة فلا بد أن ننتظر قدرا من ((التجريب)) .

غير أن ثمة ملاحظة تخطر فى هذا المقام حول معنى التجريب ، ويمكن أن تضاف الى الكلمة السابقة التى ألمعت الى الموضوع نفسه . لقد نظرنا هناك الى الأعمال التجريبية من حيث هى بحث عن علاقة جديدة بين الفنان وجمهوره ، ولكننا ما دمنا نرى للعمل الفنى علة غائية مدارها الجمهور ، وعلة صورية مدارها الخلق ، فيجب أن نسلم بأن التجريب فى الأعمال الفنية لا يرجع الى هدف التوصيل فحسب ، ولكنه يرجع أيضا الى حاجة الفنان الى احتواء الموضوع الجديد فى شكل مناسب . والملاحظة التى تخطر فى الذهن هنا هى أن الموضوع الجديد الذى يمثل أمام الفنان العربى يتطلب منه أن يستخدم ابتكاره الخاص فى التجريب ، كما ان علاقته بجمهوره تستلزم منه مثل هذا الابتكار ، أو ان شئت فقل الاستقلال .

ذلك أننا حين نتحدث عن عالمنا المتغير فيجب ألا ننسى أننا نستمد تجاربنا المباشرة من عالمنا الخاص ، عالم القرية أو المدينة فى صعيد مصر أو صحراء الجزيرة العربية الخ ، ونتلقاها بحساسية خاصة مستندة الى ميراثنا الحضارى ، واذا كانت هذه التجارب تتلون بعد ذلك بوعينا بما يجرى فى العالم الكبير حولنا فانها لا تفقد أبدا عبيرها الخاص الذى يشى بمنبتها الأصلى .

حقا أن المبالغة فى ذكر الخصائص القومية مظهر من مظاهر طفولة الوعى القومى ، ولكن المسارعة الى تقليد كل ما يصدر عن أمم أرقى حضارة منا مظهر آخر لهذه الطفولة . يجب علينا أولا أن نعترف بأن التشابه بين البشر أعظم كثيرا من الاختلاف ، هذه هى الحقيقة التى تبده دارسى الأساطير والقصص الشعبية قبل العصر الحديث بأزمان طويلة ، فما بالك وقد تقاربت المسافات ولم يعد قبيل من الناس بمنجاة مما يجرى فى سائر العالم ؟ ثم يجب علينا بعد ذلك أن نكون صادقين مع أنفسنا ، وألا نخشى أن تبدو علينا سمة اختلاف ، فربما كانت هذه السمة أرجح فى الميزان من كثير اتفاق .

●●●

وبعد ، فلم أرد بهذه الكلمات أن أقدم قصص هذا العدد الخاص ، ولكنى أردت أن أسجل بعض الخواطر التى كانت تثور ونحن بصدد اختيارها . أما القصص نفسها فهاهى ذى بين يدى القارىء .

أحمد عادل

الحذاء



قال قائل : استعدوا • فتحفزانا • ثم أشار بيده فاندفعنا • الكتلة الواحدة تطايرت شظايا • وأهويت بمطرقتى على الزجاج فهشمته وتطاير شظايا • وتلمسته محاذرا • لمسة جلده كسريان الكهرباء • لكن اصابعى تتقبض عليه فى شغف ولا أبالى •

كنا خليطا عجبا • استاذى فى السنة الأولى • وامرأة محجبة بنقاب غليظ • ومحصل النور • وعربجى كان ينام فى مدخل دارنا منذ عشرين عاما • وبائع كنافة من دمياط • وعمة لى توفيت من زمن ولا أدرى ما بعثها • اندفع كل منهم يخطف شيئا ، وخطفت الشىء الوحيد الذى كان يثيرنى ويهز اعماقى •

ضحكوا جميعا لما رأونى احتضنه • لكننى تركتهم وعدوت به • ظللت أعدو وأعدو حتى سقطت من الاعياء • كنت احتضنه وانا أعدو ، وأنا أسقط ، وانا راقد على ظهرى كنت اقبله واضمه الى صدرى •

ألانه حذاء ، فهو لا يستحق الحب أو العشق ؟ أفلا يعشقون الصور والتماثيل • الا يزنون بالصحاى ويعتدون على الافلاك • لقد احببته بصدق وشرف • ومنذ رأيته ، وأنا أكره أن اقع فى حب غيره • فالأهل هجرت • والأصدقاء نسيت • وبهذه النافذة التى كان يطل منها تعلقت • كان خلف الزجاج يرسل الى لمعة جلده فتلهب فؤادى ! وكنت من وراء الزجاج ارسل اليه

بريق عيني فاكهرب بشرته ! كلانا خلق للآخر . هو لباس لي . وأنا لباس له . ادفئه ويدفئني . وكم وقفت اليه الساعات الطوال تحت المطر . وهو ينظر الى مائلا بانكسار ، كأنه يستحي ان يحب آدميا ، ليس من بني جلدته ! ويوما ارادوا اهانتي أمامه فنفضت خجلي . كانوا اهله . ارادوا الشجار معي بسبب طول بقائي . خرج صاحب الدكان يكر مع فتيانه على . نهرني . وتحرش بي الصبيان . مالك ها هنا مقام . المقام مقامي يا معدوم المقام . فها هنا حبي واملي وحياتي ومقامي . دفعوني دفعا فأبيت . ونظراته تلهب شجاعتي وتشحنني بقوة الاعصار . وكانت أول معركة لي . وآخر معركة لهم . انتهت بهزيمتهم . هكذا اكدوا لي انفسهم . عرج صاحب الدكان . وخاط احد الصبيان رأسه من شج . وآخر عولج من صرع . وثالث لاذ بالفرار ولم يظهر من بعد .

فما لصوت الضحك يعلو ؟

أقبل استاذي يقول ضع الحذاء في جملة مفيدة . وهل ثمة فائدة أرجى من وضعه في حضني . والمرأة ذات الحجاب تقايضني عليه بقبقابها . وبائع الكنافة يهديني رباطا له من بضاعته . وعمتي المبعوثة حية تسألني هل له لسان مثل لسانها ؟!

غيرة شديدة تتملكني فأعدو به . ودفقة الشغف تنفض كياني نفضا .

محبوبي . أنت لي . وأنا لك . لاحبيب لاحد منا سوى الآخر . وما نقموا منا الا حبنا . آه .. ياللذاتي وأنا أطأ بك الارض ، ثم أمسح عنك قذرها . ثم اطأ بك الارض ، وامسح عنك طينها .. ثم أطأ بك الأرض وأمسح عنك سخريتهم .

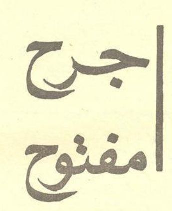
لاتعبأ بهم فأنا المدله بك . التفت الى وحدى . لا تعرف سوى قدمي . ولا تلمس الا بشرتي . انا أضعك على رأسي . وفوق خدي . حرصي عليك أكبر من حرص امرأتي وعيالي علي . ما عادوا يثيرون شيئا في . كل عواطفي لك . شغفي بك . لذتي معك . املي فيك . حياتي اليك .

واظل اعدو به . والضحك من ورائي يكاد يوقعني . وتطول خطاي وتطول ساقاي . ويكبر الحذاء . فأندس فيه . وألوذ به .

وابقى في ظلمة مكمني استرق السمع . لا شيء . فأتسلل خارجا بحرص وحذر ، لكن بعناء . لم يعد ثمة ضحك . ها أنذا أولد من جديد . انتهت المهزلة وبدأ عهد الجد . الحب ، والعشق كالرجال ! ها أنذا اتحسس اعضائي . اطمئن على اكتمال رجولتي ـ نعم . ولدت من جديد . هذه اعضائي فأين حذائي . اين . اين ساقاي . اين قدماي .. اين .

ويعلو الضحك من جديد . لكنه اصداء في رأسي فحسب . فأصرخ :
قد كنت مقطوع الساقين ، ولم أعلم .

إدوار الخراط



النافذة مفتوحة على بحر الليل المضطرب ، وهواء الصعيد الجاف له موسيقاه ، ومن الداخل تأتيه رائحة الطلاء على الجدران الجديدة ، تحترق من الحر • وهو لا يكاد يتبين قامات الرجال ، كالأعمدة ، أكتافهم حجرية ، تحت ثيابهم الفضفاضة ، كأنهم ليسوا هناك ، فى ظلام الشارع الضيق ، فى البعد الغائر العميق • برك النور من الفوانيس ، آسنة ، تطفو عليها سحابات الهاموش الليلى وهى تموج ، من غير صوت •

القبة العريضة صدر ممتلىء بشهيق محبوس ، لا ينفرج أبدا عن زفير ، وقد انعقدت عليها طبقات مترسبة فى نقش مطموس المعنى • والسقف الواطىء المتين يقطعه ضلع مكسور التأم بالتراب بالقديم ، ويصعد منه البرج المربع القصير ، تأتى السماء الصلبة من ورائه ، وتخترقه ، وتثبت فيه ، مثقوبة بابر مشعة لاعداد لها ، بين الجوانب الراسخة السميكة • جرم الجرس الضخم المعلق ، أخرس ملجما ، يثقل البناء الجاثم ، تحت ، فى وسط ربوة الأرض المتحدرة ، مدفونة فيها درجات السلم الرخامى الناعمة المدورة الحواف ، يتخايل له وميضها الباهت ، من عالم سفلى •

وهو يستدير اليها ، جالسة فى النور الأزرق الناصع الذى يتقد ، مدلى من الحبل الأبيض الرفيع المضفور • ساكتة ، محنية رأسها ، شعرها جدائل كتان سوداء كثيفة ، يفور تحت الطرحة التى علق بسوادها التراب • ساقاها ، حتى القدمين ، تحت الجلابية الضافية ، ممتدتان الى جانبها ، هيكل ساقط بين حقول الكليم الصوفى الخشن النبات •

ـ أجيه •• أجيه

يربطهما هذا الدم الواحد ، الرازح الوطأة ، وهذه العشرة فدادين من الأرض فى حضن صخور الجبل •

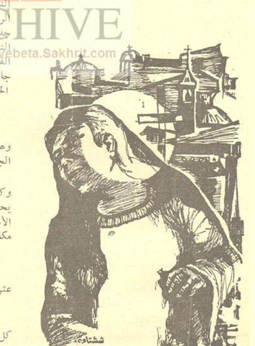
كانت خطواتها ، طول عمره ، حذو خطواته ، وكانت قرينته ، يحسها معه ولو كانت غائبة ، يحس وقع نظراتها عليه ، صابرة مطيعة ، نظرات الأخت التى لا عوض عنها أبدا ، معه فى كل مكان •

ـ اسم الله عليك ، وعلى أختك •

كان صوت أمه يجيئه ، ملهوفا ، يقيله من عثرته ، عندما يقع على العتبة الرخامية الممسوحة •

قالت له :

ـ أنت الآن أبى ، وأمى ، وأخى معا •• قم الآن كل لقمة •• قم ، تنام وتستريح سحابة الليل ، حتى يصبح الصباح •





كانوا قد تركوا حدود البلد ، وكانوا يشقون الغيطان بين عيدان الذرة الطويلة الخشنة التى يهب عليها هواء الليل فيسقط عنها حفيف مثقل بالتراب ، وكان صوت المياه يأتيهم من الظلام ، تنسرب وتخرخر فى القنوات الضيقة الموحلة ، شحيحة ، صوت أنفاس صعبة فى صدر عظمى شيخ ، ولكنه عنيد ٠

كيف يمكن أن أتركها ؟ فى دمى هى ، فى عظامى ، مجدولة بنسيج لحمى ، التراب الذى فى يديها عالق بجدران قلبى ٠ وجهى لا يعرف له مأوى الا على فخذيها ، وتحت ثدييها ٠ هناك ، هناك فقط ، على أرض لحمها الدمثة بيتى ، فى تلك الخصوبة الكثيفة الزهمة ٠ هناك تسقط عنى مخاوفى وعذاباتى ، وأجد راحتى وأمنى ٠ وأجد عذابات أخرى فى راحتى ، ومخاوف أخرى فى أمنى ٠ هذا كل مالى من راحة وأمان ٠

لنسج القميص وهو ينشق فى السكوت المطبق صوت كنفث الفحيح المفاجىء ٠

وهو يدير وجهها اليه ، وقد سقطت الطرحة من على السرير ، وتموجت وهى تتطاير الى الأرض ببطء مفروشة تغطى جانب الشبشب المقدد المشقق الجلد على الكليم ٠

وندى من العرق الخفيف يتفصد قطرات دقيقة ، دقيقة ، فى زرقة النور البيضاء ، يكشف عن منابت شعرها الغنى الأثيث على الجبهة المدورة السمراء ٠ وينهمر شعرها ، فى حريته الجديدة ، أمواجا وفيرة سوداء ، على ملاءة السرير ٠

وهو يرفع وجهها النقى من على السرير ، ويديره اليه ببطء ، وهى لا تقاومه ، طيعة ، عيناها مفتوحتان ٠ ويده ترتفع الى الخد الممزق من تحت العينين الى عظمة الذقن ، بجلده المشدود ، مجعدا ، ضامرا ، متقبضا ، شوهته ندوب كالشعيرات ، متعرجة ، جافة ، تسطع بينها ، فجأة ، مساحات صغيرة نضرة ، رائقة بريئة من كل شائبة ، فى سمرتها الحية الغضة المنعشة ، وسط آثار أرجل عنكبوت الجراح القديمة التى التأمت على شبكات من نغل دقيق صلب متجمد ٠ الجدران ساطعة خضراء ملساء ٠

وهو يغطى خدها براحة يده المشدودة بحركة مفاجئة قاسية ، يحس قلبه يتقبض من حنان لا يطاق ، والأنفاس تنحبس فى حلقه ، وعيناه على الرغم منه تغرورقان ٠

عندما خرجوا من آخر الغيطان ، كان الرجال ساكتين ، جالسين ، خارج باب الخص ، أمام المساحة الضيقة التى تتعثر القدم فيها بالحصى والشقاف ، ويختلط فيها الرمل بالتراب ، حتى تأتى الاحجار الناتئة الهشة والصخور التى ترتفع الى صدر الجبل ٠ ومن خلال فتحة الباب ، كانت الفتائل المشتعلة تدخن فى كيزان المصابيح القديمة السوداء بجدرانها الصدئة الدهنية ، وتهتز فى الجاز العكر الثقيل ، وتلقى أضواء وظلالا متراوحة لها ذيول وتعرجات على الساحة الرملية ٠

وكانت لمة النساء متحلقة فى الداخل حول بذرة موضوعة فى وسطها ٠ ملابسهن سوداء ؛ والطرح ساقطة على الاكتاف العظمية ٠ وكانت تأتيه من بعيد أصوات لغط الكلام الحنون ، وثرثرة المواساة والتهوين ٠



يجرى تحت هذه الأرض ، رائحة تراب مروى ، حريفة ، ومنعشة ٠

وفى كشف سريع خاطف تتبدى له امتدادات عارية ، ملساء ، على الجنبين ، يحتضنهما ٠ بل يحتضن جانبى العالم كله ٠ العالم راقد بين ذراعيه اللتين تضمان كنزا شاسعا مستحيلا ، بربواته ووهداته الطرية ٠ بين ذراعيه صحراوات مقفرة خاوية ، لينة ، ومشدودة ، ومتموجة ، فوق صخور العظام ، ملاستها تحت أصابعه ، ذرات دقيقة مصحونة جففتها وسحقتها شمس رغبة لا تنطفىء ، وليال ساطعة لا نهاية لها ، من الانتظار والوحشة ٠

وهو يشق القميص اللامع الساتان ، بعنف ٠

ويده ترتفع الى الجرح المشقق المتشعب الخطوط ٠ عنكبوت مدموغ بخيوطه المتفرعة السوداء مكوية ٠ عروق حجرية غائرة فى اللدونة المدورة السمراء ٠

كانت الصرخات الثاقبة تنوح فى خواء السماء ، متتالية طويلة ، تنادى وتستنجد ٠ والهواء قد خف فجأة ، وتخلخل ٠ والاصداء تتردد ، وتتضخم ، بين الشوارع الضيقة وجدران الحجر والطين القديم ٠ الليل كله يتدفق وينزف فى هذه الصرخات ، حاشدا بنذير غامض يدق على أبواب القلب ٠ ثم جاء الصمت ، وسقط كاملا ، مسدودا ٠ حتى لقد كان يسمع له صوتا ، فى مجرى دمائه ، فى موج مسارها الذى لا يتوقف ٠

وكانوا قد خرجوا من البيت ، ووراءه ، على خطوتين منه ، أولاد أعمامه ، تاوفيلس ، وجيصر ، ومينا ، خطواتهم تتباعد وتتقارب ، وعلى أكتافهم البنادق ، فى العتمة ، جامدين لا يهتزون فى مسيرتهم ، بارادة لم يعد بوسع شىء أن يوقفها ٠ ليس فى وجوههم الا الجفاف ٠

كان الخبر قد جاءهم فى أول الليل ، أجيه سقطت مصابة فى الغيط ٠ وصرخت النساء ٠ ثم صمتن ٠ قالوا أنها بخير ، ولكن حسه أنذره أنهم يدارون عنه ، قالوا جريحة فقط وان لم تستطع العودة للبيت ، ولكن حسه أنذره أن الجراح لم تعد من تلك التى يستدعى لها الطبيب، قالوا جاءتها النداهة وطلبت ماء ، أو الذئاب ، لا ندرى ، أو لعلهم عربان الجبل ، ووثبت عليها ، فى عودتها الى الخص ، فى آخر العشرة فدن ، ولكن حسه أنذره أنه هو الذى اغتالها ، وأسقطها ، قالت له فى الصبح أنها ستقضى اليوم فى الغيط ، وتزور أهلها ، وتسأل عنهم ، عيب يا خوى أن تمر السنة من العيد للعيد ولا نحمل لهم هدية ، هؤلاء ناسنا وأقرباؤنا ، والحريم ليس بوسعها أن تأتى الينا هنا فى البلد ، حرام ، وأنا أشتاق الى مجلسهم والسؤال عنهم ، أما الأولاد فيقضون اليوم عند أخوالهم ، والأكل جاهز ، والعيش طرى ، خبزنا أمس ، ولن أغيب عن البيت الا سحابة اليوم ، وليس للمرأة أن تغيب عن زوجها ، صحيح ، ولكنها سحابة يوم وأعود ، ولم أكن راضيا ، كنت أحس النذير ، لكنى سكت ، سكت ، فى جبن ، كان سكوتى عن خوف أيضا ، وتعلل بأكاذيب هشة ، أعرف فى صميمى أنها أكاذيب هشة ، مهما بدت مقنعة : ليس هناك من بأس ، هذه العصابات قد انقطعت عن الاغارة على العمار منذ زمن بعيد ، وانصلح حالها ، والذئاب ؟ أين الذئاب ؟ لم يعد فى الجبل ذئاب تخيف أحدا ، وهم هناك قد قطعوا دابرها ، ويستطيعون القضاء عليها بضربة فأس واحدة ، أو ضربة من شمروخ وها هى ذى الآن قد سقطت ، هل ماتت ؟ ولم تجد نجدة ؟ لم أكن هناك ، كانت وحدها

ـ أجيه ٠٠ أجيه ٠٠

لم يرد عليه أحد ٠

كانت أجسام الفوانيس واقفة ، خضراء صدئة ممشوقة فى الليل ، تقبل عليهم وهم يسيرون فى الشوارع المتعرجة ، تلقى برك النور على بيوت الخشب البغدادلى ، على النوافذ المصنوعة من ضلفة واحدة ، مصمتة ومشققة ، على عروق التبن وآثار خطوط الأصابع البارزة فى الجدران الطينية ، على أكوام التراب وريش الطيور ونفاياتها الجافة ، على الأوراق القديمة الساقطة على الأرض لا تتحرك ، كأنما لا وزن لها ، تحت النور ٠

انسحاب المخالب ، حادة باردة ، على خدها وصدرها ، صاعدة هابطة ، تترك وراءها شبكة من حفر نارية دقيقة • كانت الأيدى المتوترة المنهومة قد كشطت الجلد فى خطوط متقاطعة ، والأنياب الطويلة العاجية المبلولة تنزل مرة واحدة ، وتغوص ، والشدقان مسحوبان الى الوراء ، واللهاث الجاف يملأ هواء الخص برائحة الذئاب التى لا تطاق •

كان فى الخص ، فى حرارة الليل ، نفث ثقيل كأنه من رائحة عجين مكمور تحت البطاطين الثقيلة • رائحة أتته من ليالى طفولته ، عندما كان يستيقظ فجأة دون سبب، وينادى: أمه ، أمه•• وهى تعجن فى صمت الليل ، وصوت العجين الطرى يصطفق • وكانت تقوم تغطى القصعة بالملاءات النظيفة ، والبطاطين ، ليتخمر حتى الصباح • وتأتى اليه ، تسقيه وتلف حوله الغطاء، وهو يرى ، فى نور حلم مهتز ، وجهها الأسمر الساكن الصبور •

عيناها شاخصتان اليه ، ورأسها ملقى على البطانية ، وشعرها قد تشعثت منه خصلة سقطت على الحصيرة الصفراء ، منابت الشعر مبلولة على جبينها المدور ، والجرح يجرى على خدها بأطرافه الرفيعة الكثيرة ، ووجهها ما زال أزرق متورما مرضوضا ، وشرايين حمراء مشرحة قد نزت على صفحة الجلد المغسولة •

العذراء وقد سقطت • أين كان ابنها ؟

ــ قدر ومكتوب ، ما باليد حيلة •
ــ كيف ؟ كيف أمكن أن يحدث ؟
ــ من يصدق ؟
ــ كانت وحدها يا أختى • يا عينى •
ــ أمر الله ومشيئته •
ــ ما استطاعت أن تفعل شيئا •
ــ يا أختى •• يا ضناى •
ــ وماذا يجدى الكلام الآن ؟ مشيئة الله ••!
ــ كيف جاءت هنا وحدها ؟
ــ أختنا وحبيبتنا ، كنا معها ، قلبنا معها •
ــ كيف حدث اذن ؟ كيف أمكن أن يحدث ؟
ــ أجيه •• أجيه •• !

وهو يحتضنها بقوة ، بين ذراعيه ، فى شبق الحنان ، ويدفع وجهها الىصدره ، يخفى جرحها• شفتاها تحت ذراعه ، تتلمسان صدره بقبلات صغيرة سريعة ، والنور الأزرق الباهر كأنه يصفر فى أذنيه •

كانت المرأة قد نادت عليها ، فى أول الليل ، وكان صوتها شابا ، ومبحوحا • واقتربت من الخص • كان جلباب المرأة يسقط على هيكلها الخاسف الضاوى ، أسود يختلط بظلمة الغيط من ورائها ، وفى يدها عود حطب•وكانت وراءها ثلاث عنزات ، تثغو ، وترفع رؤوسها الى الجبل• كانت تسحب طرف جلبابها على الرمل ، فيترك خطا عريضا • وكان الجبل رماديا ، وأعواد الذرة صامتة ، متزاحمة ومتلاصقة ، شاخصة فى نقش مشعث حجرى ، عليه رواسب من التراب •

ومدت المرأة اليها يدها ، فى حركة دعاء واسترحام •

ــ عطشانة يا ستى •

وعندما اقتربت منها ، كان وجهها ناحلا ، تحت العصابة العريضة الداكنة الحمرة التى تدور بجبهتها ، وكانت شفتاها ملحيتين موشومتين بالأخضر ، والحلقة الصفراء الكبيرة معلقة بأنفها• وكانت وسوسة الحلى الصفيح على صدرها ، فى الخلاء ، مكتومة تحت الطرحة الثقيلة •

ــ عطشانة يا ستى • اسقينى لله •

بصوت لان له قلبها فجأة •

كيف نسيت ؟ كيف تركتها تقترب ؟ كانت الأمارات كلها هناك ، وكم من مرة سمعت الحكايات ، فى كل القيعان والبيوت ؟

كان فى عينيها تضرع القطة ، وفى مشيتها المتمهلة على الرمل انسياب ناعم • وكان كل شىء ساكنا ، لكنها تحس مع ذلك نبض الترقب حولها ، ولهفة الترصد • ولا تملك أن تغير شيئا •

عادت الى الداخل • ورفعت جالوص الطين الذى يغطى البلاص ، وغمست الكوز فى مرآة الماء المصقولة • كان فى بقبقة الماء وهو يلين ، ويتكسر ويملأ الكوز ، ما يريح الصدر ، ويجعلها كأنها تبتسم ، مسحورة • وأخرجت الكوز مائلا من الفوهة المدورة ، وهو يشر بالماء البارد ، واستدارت لتسقى المرأة •

احتضنتها النداهة ، فجأة ، وأحاطت بها ، وسقط الكوز يرتطم بالأرض الطينية الصلبة ، وينسكب علىالحصير ، لا يهتم به أحد • ووجدت نفسها فى قبضة عناق خانق ، رائحة الجلباب الأسود المترب تكتم نفسها ، وهيكل المرأة الجاف يضغط على جسمها ، والحلى الصفيح مغروزة فى صدرها ، تؤلمها • واندلعت النار فى وجهها • كانت المرأة تقبلها بشفتين من الشوك ، قبلات حادة لاسعة • انتزعت النسيج من على صدرها ومالت تقبلها فى خشخشة الثياب السوداء الثقيلة التى التفت بها من كل جانب ، قبلات كاوية

متهددة ، نحو سماء قاتمة الزرقة ، قاحلة ، حادة الجوانب .

هب الرجال من جلستهم المرهقة على الرمل والتراب واقفين ، عند مقدم الموكب الصغير ، وانفرجت حلقة النساء وابتعدن يلتصقن بالحيطان الطينية فى داخل الخص الضيق المزدحم بأقفاص وبلاليص وشيلان وحزم الحطب وأقراص الجلة الجافة وسلال البصل والقدور المدورة السوداء . طيور ليلية داكنة تهرب الى الجدران ، وأجنحتها ترفرف وتصطفق ، أصواتها تهبط الى صمت قلق، وعيونها لامعة ، بعد آخر دفقات الزقزقة والنقيق .

كانت عيناها واسعتين ، سوداوين ، فى النور المحمر ، بهما نظرة ثابتة حارة . وكانت ساقطة ، فى هدوء كأنه الراحة ، على بطانية فى لون البن المحروق ، مطوية فوق الحصير الرثه . وكانت تخفى نصف وجهها بالشال الأزرق الداكن الزرقة الذى ينتهى بشراريب مليئة دسمة بخيوط الحرير ، تسقط على صدرها . انحنى ، وأزاح الشال . كان الدم المغسول بمياه عكرة قد بقيت منه آثار باهتة مختلطة بخيوط متقطعة من التراب ، على جانب الوجه الصافى . كان أنفها الاشم متوترا ، وشفتاها الرقيقتان لونهما أبيض فى النور ، مزمومتين على سر لن تبوح به أبدا ، وفستانها الأسود ممزق ، منهوش . وقد تصلبت مزق النسيج بالدم المتخثر اليابس ، تتخايل من بينها أطراف مشعثة من قميصها اللامع ولمحات ندوب جراح طويلة مشروخة فى اللحم المكدوم الأسمر الغض ، على الصدر الناهد وقد نفرت على ربوته تورمات زرقاء مفاجئة ، مشقوقة فى وسطها بخطوط الحمرة الداكنة .

كانوا قد تربصوا خلف الخص ، وسقطوا عليها ، على هذا الحصير . كانوا ثلاثة ، أو أكثر ، وكان النخل ، فى رأس الغيط ، تحت الجبل ، هو الشاهد الوحيد . كان المغرب أحمر ، يزرق وينطفىء ، ويتهدم وراء الصخور القليلة الارتفاع .

كانت الأذرع قد أحاطت بها ، كثيرة ، وثيقة صلبة، كالكلابات . وسقطت تحت هجمة السيقان . كانوا قد أسندوا بنادقهم الى الحائط . وتمزقت تحت اندفاع صخرى وحار . هل صرخت ؟ أم كانت غائبة ، نعم ، وراضية .

كانت قد انقضت مرة واحدة ، متزاحمة بأجسامها القضيفة القوية . لم تكن تنبح ، بل كان لأنفاسها كرير عميق خشن يتردد بين جنبات الصدر الأجوف ، وعيونها شعلات صلبة . كانت تدور حولها ، وفوقها ، تعانقها بسيقان مستدقة مشعثة الشعر ، تحاصرها ، وتنفذ اليها ، وتفترش لحمها . كانت المخالب تخمش الأرض الطينية ، وتحفرها ، فى احتكاك له قشعريرة . وكانت تحس

كانت حمرة النور تتوهج له من بعيد ، داخل الخص ، من مصباح الجاز الزجاجى الوحيد المشقوق وسط فتائل الكيزان الصفيح . بؤرة تتضرج وسط الخلاء تحت الجبل . آخر عيدان الذرة فى الغيط ، محلولة الشعر تهتز فى حرارة جنازة مظلمة ، من غير صراخ . ضلوع الجبل وترائب الصخر المدرجة صاعدة ، متربصة ،

أمين ريان



في ذلك اليوم هدتنا ابنة عمتى « عائشة » الى مكان الحمار ٠٠ ثم زعمت لنا أنه الأسد ٠٠ «أسد شلتوت » !

وكان يمكن أن يصدق شقيقى « بلبل » زعمها فلم يكن قد تخطى الرابعة من عمره ٠٠ أما أنا « الذى أكبره » فقد سخرت منها ٠٠ ولـــكنها وضعت شقيقى على ظهر الحمـــار وأغرتنى بفك قيده ٠

وكانت المهمة أسهل مما تصور خيـــالى ٠٠ فانطلق الحيوان الأبيض بشـقيقى وكأن أحدا لن يلحق به ٠٠ ولكن ما أن استدار خلف بيت الحال بيومى حتى تملكنى الخوف فأسرعت لأخبر أبى بما جرى ٠٠

واذكر أننى لم أقل أى شىء عن تدبير ابنة عمتى عائشة ٠٠ والدليل على ذلك أن أبى ظل لايفهم أى شيطان فك الحمار ٠٠ ولا بتدبير من وضع أخى الصغير على ظهره ٠

ولن أنسى كيف تقدمت والدتى بعائشـــة الى حجرة المسافرين حيث تربع شلتوت فوق الاريكة ٠٠ نعم ٠

ما أن انطلق والدى حتى تقدمت أمى بها الى حيث جلس شلتوت يحتسى القهوة ويدخن ٠٠٠ فهب الرجل من مجلسه دون أن يدس قدميه فى نعليه حتى سقطت عباءته على بلاط الحجرة ٠٠ وصافح والدتى وهو يردد لها :

ـ أهلا أهلا بالحاجة ٠

ثم صافح عائشة وهو يقول لها :

ـ ست الكل ٠

وتمتمت والدتى تشكو من فعل الصغير ٠

وضحكت عائشة وهى تقول أننى وشـــقيقى نظن ركوبته أسدا ٠

ومسح شـــلتوت على رأسى وقال ٠٠ أننى محروس من عين الحسود وحاشى أن لا أميز بهذه العيون بين الأسد والحمار وكلى نظر ٠

وطلبت اليه والدتى أن يريها الاسد الذى طالما حكينا لها عنه ٠٠ فأسرع شلتوت ٠٠ ففتح علبة سجائره الكبيرة ٠٠ لكنه لم يعرض الصورة التى بداخلها على والدتى ٠٠ بل عرضها على عائشـه وهو يشرح لها كيف ان هذه العروسة ذات الثوب الاخضر والضفائر الطويلة مثل ضفائرها عثرت على أسد مسكين موجع القلب ٠٠ فنفخت الدخان فى انفه فذهل عن الأوجاع والأحزان٠٠ثم ٠٠ثم٠ ثم انسطل ٠٠



متلاحقة • وقد انبثقت نافورة من الألم تتفجر على ثديها ، وتترك آثارا رفيعة ثاقبة تنشعب كالبرق وفتحت فمها تصرخ ، فاغرة • هل صدر عنها صوت ؟ هل حدث شيء ؟ كان كل شيء حولها مقفرا ، موحشا ، وليس هناك غيرها • وقد سقطت على الحصير • كانت تسمع الرجال يتنادون ويجرون من بعيد ، قادمين اليها بنجدة فات أوانها ، وكانت النساء تصرخ • لم تكن هناك آعرابية ، ولا معيز ، لا شيء ، الا عارها ، جراح كأغصان النبات الشوكية التى تنبث بين أحراش الحلفاء ، على حواف الترع المشققة من الجفاف ، حزمة كاوية بها عقد والتواءات ، مدببة الأطراف متقاطعة ومتداخلة ، على صدرها وخدها •

وهو يغطيها بجسمه ، كأنه يحميها من عريها، وعارها ، يتلقى عنها ، بعظامه وبعضلاته الموجعة، ثقل النور ، فى سجن الجدران اللامعة ، ويدرأ عنها غيبوبة • ويترك لها صدره تغمض عليه عينيها الجريحتين ، وتلصق به خدها المحفور ، وصدرها المنتهك • يدخل معها فى منطقة حميمة خاصة بهما معا ، مغارة تتقطر فيها أشعة خافتة ، فى قلب صخر من النور الرازح •

قديستى المستباحة • كيف امتهنت ؟ كيف امتهنا ؟

كان يقظا فى ظلام الغرفة والنور ينضح على خشب النافذة ، وهى تنام الى جانبه ، وجهها فيه سلام ، وفمها مفتوح فى حلم منعزل لا صلة له به •

وكانت أطرافه كلها متوترة فى قلق متوفز كهربى ، ترتعش له الأعصاب ، دون أن يملك أن يردها • تفجر العويل يملأ سماء البلدة عليه ، فى صراخ ملحاح ممتلىء الأحشاء بالخوف ، تتردد له أصداء ثقيلة ، برك من الصوت ، معدنية ، تنداح من جوف جرس ضخم ، وتتسع على صفحة الليل ، تحمل تهديدا يحيط بكل شيء•وصمتت البلدة كلها ، حبست أنفاسها ، وسمع وشوشة النخيل فى حوش الكنيسة ، تحت •

وتقلبت أجيه وتمتمت فى نومها :

ـ من مات ؟

وفى عتمة الغرفة رأى على السقف الأبيض صرصارا داكن اللون ، تتلاحق أرجله الرفيعة القوية ، وهو يسير، فى عمى ، الى وجهة مقصودة•

وانطلقت صفارة القطار من المحطة ، متصلة ، متطاولة ، تجلجل فى نفس واحد لا ينتهى ، تبشر بالخلاص ، والعجلات تقرقع منطلقة الى بعيد ، فوق الجسر ، حتى تقلب الرعد الحديدى الليلى وانتهى الى مطر خافت يتقاطر فى فراغ الحقول •

وعاد الصمت موحشا ، يملأ السماء ، تنفتح له فى النفس فجوة شاسعة بلا قرار • وهو وحده ، وحده ، بازاء الصمت ، يحس صهد الحرارة فى وجهه ، وجسمه ينتفض بالعرق ، وأطرافه ترتجف •

يا حبى كيف امتهنوك ؟ كيف امتهنت ؟ كيف سقطت ؟

أبكى ، كالطفل •

كيف أبرأ ؟ وتبرئين ؟ بكاء السقوط يا حبى ، والامتهان • كيف تجف الدموع ؟•

وفى الغد لم يكن يجرؤ أن ينظر الى عيون الرجال • سقطت ، لكنها طاهرة • مغتصبة ، بل داعرة • شهيدة ، وضحية •

ـ أجيه •• أجيه ••

كانت عيون الرجال متباعدة ، لا تبوح بشيء • كأنهم يخجلون مما سوف يرون فيها • وكان صوته هادئا ، محبوسا • كان الرجال قد انطوى كل الى وحدة داخلية• عزفت النفوس عن الالتقاء•

منذ متى جاء هذا البرد ؟ وتفككت الظلمة ؟ كان الرجال قد ناموا على الحصير ، وبنادقهم الى جوارهم ، على الأرض•التفوا بالجلاليب والشيلان والبطاطين• فى الخص الطينى الضيق كثافة النوم، وأصوات الأنفاس الثقيلة المكتومة ، لم يطلقها النوم من الحبس •

وعندما مد أطرافه أحس بالحياة تجرى من جديد •

من يصدق أنه نام أيضا ، واستراح •

وعندما خرج ، وتركهم نائمين ، كأنما يودعهم فى حنان لا رى له ، كانت حقول الذرة ، فى النور الأول للنهار ، مبلولة من الندى ، ونواصيها مثقلة محنية بالماء ، لا تكاد تهتز فى رعشة البرد التى سرعان ما انجابت • كان يحس الرمل يتصلب تحت قدميه ويجف من دكنة الطل المخضلة • تطايرت شبورة الفجر سريعا ، لم تبق منها الا نفثات خفيفةبيضاء تتلوى وتذوب حول عيدان الذرة •

كان ذهنه خاويا ، صافيا ، وقدماه تسيران به ، وحدهما ، بين الحصى والحجر ، الى طريق الجبل •

والسماء مشدودة ، سخنة ، والشمس قاسية فى عينيه •

وتحت أظافره حبات رمل دقيق مغروز • وهو يضع وجهه على خدها ، يحس شقوقه الجافة ، ونضرته ، وقسوته •

انت تقتلينني •

ـ اسأل ابن الكلب يحكي لك ..
ولم تلتفت امى الى كأنها تخشى أن أفشى سر ما أعرف .

ويتنهد الخال بيومي وهو يطلق الدخان من فمه الذى سقطت أسنانه ويهتف :

ـ اللهم ارجعك يا سيد بالسلامه .
هو مش قال حيرجع فى جماد ..!

وباختفاء شلتوت نسينا الاسد .. فلم نعد نذكره الا عندما ضبطتنا عمتى أنا وشقيقى ينفخ أحدنا الهواء فى أنف الآخر وقد أمسك عقبا من أعقاب سجائر الخال بيومى ..

كما ذكرته أنا مرة عندما الفيت أمى تخرج قطعة من قماش أخضر تدسها فى متاع عائشة سرا .

وزاد الهمس فى البيت .. فأمى تهمس من الشباك للخال بيومى عند الظهر.. وعمتى تهمس لأبى فى المساء .

وكان الجميع فى انتظار عودة عم سيد .. وتكرر سؤال الخال بيومى عن موعد حلول العيد الكبير .. وعاد عمى من سفره قبل العيد .. وأقيمت الولائم التى حضرها الأقارب والجيران .. ولكن لم يظهر لشلتوت وحماره من أثر .

وتحولت الولائم بعد أيام الى مشادات ولعنات شملت الصغار والكبار والحيوانات ..

وتردد اسم الاسد على لسان عمتى ... البخت والمكتوب .

وتحول الاسد الى حمار على لسان والدى وهو يلعن المدخنين والمنسطلين .. ولم يعد يجمع أبى وعمي افطار أو عشاء .

وفى فجر يوم العيد ايقظنى عمى ـ انا وشقيقى ـ ثم صحبنا الى دار الخال بيومى وانطلقا بنا على حمارين معدين الى جوف الضباب .

وبعد رحلة طويلة فى الضباب وصلنا الى حقول فسيحة كانت تشتد خضرتها كلما زحف ضوء النهار .

ووقفنا لدى بيت ملىء بالرجال والنساء والاطفال والطيور فوجدنا شلتوت بين رجال البيت .. كما عثرنا على الأسد « أى حمار شلتوت » بين الحيوانات المختلفة .

وانطلقنا فى هذا اليوم كما لم ننطلق انا وشقيقى من قبل وسط الخضرة .. وتسلق بعضهم النخل واسقط لنا البلح .. وقضينا ليلتنا فى مداعبات مع شلتوت والعم والخال .. الذين طال سهرهم وتبادلهم للفافات الدخان وضحكوا من أخى عندما قلد لهم الأسد وقد أسبل عينيه وانسطل من الدخان « الذى نفثته الحسناء فى أنفه !! » .

وزادت ضحكاتهم عندما حكيت لهم ما فعلت عائشة يوم تاه الحمار .

ولن أنسى ماحييت .. كيف تمنيت فى بيت شلتوت أن لا نعود الى بيتنا حيث ابى وعمتى يثيران جزعا خفيا بين الاهل والجيران وكأنهما قوتان شريرتان تعترضان العيد أو أى حادث فريد يمكن أن يحل بنا . وفى اليوم التالى عدنا .

ولحق بنا شلتوت وبعض الرجال والنساء والاطفال .. ولم أفهم المشادات التى نشبت بين القوم فى بيتنا على أنها التعارض بين الخائبين والمحظوظين فى الزواج .



كنت قد عجبت عندما رأيت ابنة عمتى فى ثوب أخضر ذى شرائط حمراء وضفائر مرسلة وكأنها العروسة وقد خرجت بمعجزة من علبة السجائر بحثا عن الاسد فى بيتنا .. ولذلك تصورت المشادات التى تدور بين ابى وعمى وعمتى وباقى النساء .. تصورتها تنازعا الغرض منه تضليل عائشة حتى لا تعثر على الاسد فى حجرة الضيوف .

ولما سألتها فرحا متفاصحا فى من ستنفخ الدخان ياترى .. ؟؟
تضاحكت النساء قائلات :

ـ فى العريس
ـ فى صاحبك
ـ فى الاسد

بينما صرخت فى عمتى :
كان يوم مهبب يوم ما عرفت الأسد انت والمنيل أخوك !!

وضجت عائشة عندما نطق شلتوت بطريقته وحركته الخاصة كلمة ‥ انسطل ـ آى انسطل ‥ وانزعجت والدتى فقفزت من حجرة الضيافة قبل أن يعود والدى بالصغير وهى تسحب عائشة بعنف تكاد توقعها ‥ وتركتنى مع شلتوت الذى بدا كمن انسطل دون دخان ‥

وتعثرت فى عباءته ثم جذبتـــه الى الاريكة ‥ فجلس لكن دون ان يخلع نعليه ‥ أو يتربع كما يفعل عادة ‥ كان قد أسبل عينيه فلم ينظر الى القهوة ولا الى سيجارته المشتعلة بالمنفضة ‥

وصعدت الى جواره على الاريكة وبدأت اعابثه ‥ ولكنه لم يرد على أن هز رأســـه وزفر ‥‥ « يا سلام ‥‥ يا سلام يا اولاد !!

وعاد الى من المطاردة وهو حائر لايعرف لما حدث تفسيرا ‥ ولكنه ترك شقيقى يبكى عند النساء واقتحم حجرة المســـافرين وهو يرغى ويزبد بكلام أتبينه ثم صاح فجأة شلتوت صيحة اهتز لها الزجاج المهشم والفـــانوس المدلى من السقف وصورة جدى المـــائلة على الجدار وكان يجأر بكلام عن الحمار ولؤمه ‥ بينمـــا كان شلتوت يردد وهو يشهق تارة ويزفر أخرى ‥ انسطل ‥

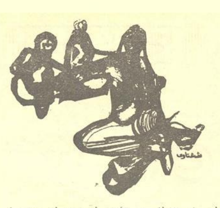
أى والله انسطل !!

وبلغنا صياح أخى والأصـــوات التى تدل على تجهيز الافطار ‥ وعاتب شلتوت أبى ان افسد مزاج صديقه الصغير ‥ فســـخر أبى من مزاج الصغير والكبير ‥ ومزاج الأسد والحمار أيضا ·

وانشغل شلتوت بلف سيجارة ‥ ولكن أبى توعده ان يقتل الصغير ‥ والحمار ‥ وكل لئيم يريد أن يسخر منه أو يتخذه هزوا ·

وبلغ به السخط أن نهر أمى عندما اعلنت عن





طعـــام الافطار ‥ فأعلن أن احدا لن يدخن أو ينسطل فى موعد تفتح الأرزاق ·

وخرج شلتوت دون افطار فى ذلك اليـــوم وضاعت علينا نكاته ومداعباته وأخفى علبة الدخان داخل ثيابه واستمر يشهق ويزفر لكن دون أن يفصح عن شىء ·

ولم يلتفت وراءه رغم تجمع النســـــاء خلف النوافذ المغلقة يرقبن رحيله ·

وواظب ابى على الخروج قبل حضور شلتوت · ولما كان يغلق باب البيت على أمى وزوجة عمى سيد وعمتى وابنتها عائشة ويأخذ معه المفتاح ‥ فقد كان البيت لايفتح الا عندما يعود فى المساء وعلى العشاء كان يســـخر من الأسد فيسميه حمارا ‥ أو يسأل عمتى ان كانت قد قطعت رجل الأسد ·

وتشجعت أمى ذات مساء بحضور الخال بيومى واعلنت ان شلتوت مســـتوحش لايطيق البلد ولا الدار منذ ماتت زوجته وهو يحضر من الارياف الى بيتنا بالمدينة ليأتنس بالعم ســـيد اعاده الله سالما من السفر واذكر ان عمتى اغلظت لوالدتى القول فقالت لها هازئة :

ـ مستوحش منذ ماتت أختك ‥ ؟ بينما سأل ابى ·

ـ هيه ‥ والبنت اياها ؟

واستفسرت أمى ·

ـ البنت ‥ أى بنت ‥ !

هاها ‥ البنت فى العلبة ۹۹

بنت فى العلبة ‥ كفى الله الشر !

وجار بى أبى وهو ينظر الى نظرة مستطيرة :

ـ اسالى ابن الكلب يحكى لك ..

ولم تلتفت امى الى كأنها تخشى أن أفشى سر ما أعرف .

ويتنهد الخال بيومى وهو يطلق الدخان من فمه الذى سقطت أسنانه ويهتف :

ـ اللهم ارجعك يا سيد بالسلامه .

هو مش قال حيرجع فى جماد ..!

وباختفاء شلتوت نسينا الاسد .. فلم نعد نذكره الا عندما ضبطتنا عمتى أنا وشقيقى ينفخ أحدنا الهواء فى أنف الآخر وقد أمسك عقبا من أعقاب سجائر الخال بيومى ..

كما ذكرته أنا مرة عندما الفيت أمى تخرج قطعة من قماش أخضر تدسها فى متاع عائشة سرا .

وزاد الهمس فى البيت .. فأمى تهمس من الشباك للخال بيومى عند الظهر .. وعمتى تهمس لأبى فى المساء .

وكان الجميع فى انتظار عودة عم سيد .. وتكرر سؤال الخال بيومى عن موعد حلول العيد الكبير .. وعاد عمى من سفره قبل العيد .. وأقيمت الولائم التى حضرها الأقارب والجيران .. ولكن لم يظهر لشلتوت وحماره من أثر .

وتحولت الولائم بعد أيام الى مشادات ولعنات شملت الصغار والكبار والحيوانات ..

وتردد اسم الاسد على لسان عمتى وهى تسب البخت والمكتوب .

وتحول الاسد الى حمار على لسان والدى وهو يلعن المدخنين والمنسطلين .. ولم يعد يجمع أبى وعمى افطار أو عشاء .

وفى فجر يوم العيد ايقظنى عمى ـ انا وشقيقى ـ ثم صحبنا الى دار الخال بيومى وانطلقنا بنا على حمارين معدين الى جوف الضباب .

وبعد رحلة طويلة فى الضباب وصلنا الى حقول فسيحة كانت تشتد خضرتها كلما زحف ضوء النهار .

ووقفنا لدى بيت ملء بالرجال والنساء والاطفال والطيور فوجدنا شلتوت بين رجال البيت .. كما عثرنا على الأسد « أى حمار شلتوت » بين الحيوانات المختلفة .

وانطلقنا فى هذا اليوم كما لم ننطلق انا وشقيقى من قبل وسط الخضرة .. وتسلق بعضهم النخل واسقط لنا البلح .. وقضينا ليلتنا فى مداعبات مع شلتوت والعم والخال .. الذين طال سهرهم وتبادلهم للفافات الدخان

وضحكوا من أخى عندما قلد لهم الأسد وقد أسبل عينيه وانسطل من الدخان « الذى نفثته الحسناء فى أنفه !! » .

وزادت ضحكاتهم عندما حكيت لهم ما فعلت عائشة يوم تاه الحمار .

ولن أنسى ماحييت .. كيف تمنيت فى بيت شلتوت أن لا نعود الى بيتنا حيث ابى وعمتى يثيران جزعا خفيا بين الاهل والجيران وكأنهما قوتان شريرتان تعترضان العيد أو أى حادث فريد يمكن أن يحل بنا . وفى اليوم التالى عدنا .

ولحق بنا شلتوت وبعض الرجال والنساء والاطفال .. ولم أفهم المشادات التى نشبت بين القوم فى بيتنا على أنها التعارض بين الخائبين والمحظوظين فى الزواج .



كنت قد عجبت عندما رأيت ابنة عمتى فى ثوب أخضر ذى شرائط حمراء وضفائر مرسلة وكأنها العروسة وقد خرجت بمعجزة من علبة السجائر بحثا عن الاسد فى بيتنا .. ولذلك تصورت المشادات التى تدور بين ابى وعمى وعمتى وباقى النساء .. تصورتها تنازعا الغرض منه تضليل عائشة حتى لا تعثر على الاسد فى حجرة الضيوف .

ولما سألتها فرحا متفاصحا فى من ستنفخ الدخان ياترى .. ؟؟

تضاحكت النساء قائلات :

ـ فى العريس

ـ فى صاحبك

ـ فى الاسد

بينما صرخت فى عمتى :

كان يوم مهبب يوم ما عرفت الأسد انت والمنيل أخوك !!

حسين ذو الفقار صبري



طويت الجريدة الى صفحتها الاخيرة ، ولكن شيئا ما كان قد قفز الى ناظرى ، ونكصت الى حيث خيل أن تراقصت أمام عينى الحروف ٠٠٠ انها صفحة الوفيات ، قلما أتوقف عندها، أحاول أن أتجاوزها سريعا ٠٠٠ أم أنى أضيق بها، كأنى أريد أن أتجاهلها أو كأن ليس لما تحويه مغزى٠٠

اسم بالبنط الغليظ جذب انتباهى ٠٠٠ «فقيد الوطن اللواء عباس نبيه ٠٠٠» فقيد الوطن؟ كلنا كذلك اذا ما طوانا الموت ، بينما لا يكاد يشعر بنا الخلق ونحن أحياء !

عباس نبيه ٠٠٠ اسم متميز ، قلما يتكرر ، لا تخطئه الأذن ، يثير نبرة من ألفة ، فهو دال على شخص بعينه ٠٠٠ الا أن رتبة «اللواء» تنشز به بعض الشيء ، كأن ليس بينها وبين الاسم اتساق٠

وتذكرته فجأة ٠٠٠ بجسده الوارم المنتفخ وكرشه الرجراج ، ورأس كبس عليها الطربوش فتتلاحم الاصداغ والاشداق مع الأكتاف المكتنزة دون ما فواصل ، وعينين غائرتين متهربتين ، تغيمان الى أفق غير منظور ٠٠ أم ياترى ضائعتين فى متاهات خواء داخلى لا تحده حدود ٠

لم أعرفه لواء ، وانما «مقدما» ـ بكباشيا بلغة العصر ـ « جناب البمباشى » كما كنا نناديه ٠

ملعب كرة القدم بطنطا كان آخر عهدى به ، عام ١٩٤٢ ، قائدا ثانيا لكتيبتنا ، رئاستها مستقرة بمكانها الأصلى فى القاهرة ، وجناب البمباشى هو مركزها المتقدم ، حلقة الاتصال بين سراياها ، وقد وزعت فيما بين بنها وكفر الزيات ، حماية لبعض كبارى الدلتا من هجمات ربما شنها الالمان فجأة ٠٠ هو قائدنا الميدانى ، فى حراسة الفصيلة التى أقودها ، وقد ضربنا خيامنا هنا على أرض الملعب فى طنطا ٠

«حظابط ياطيار! حظابط ياطيار! ياحظابط٠»

وأهرع اليه ٠٠٠ الى كتلة اللحم والشحم التى انشقت عنها فرجة باب الخيمة ، كأنه قد انحشر فلا يستطيع خروجا أو ارتدادا ، متكور الجسد ، يحتبى كرشه المنتفخ ، مطأطئا رأسه كأنه يحمل الخيمة على قفاه ٠٠ وانظر اليه مستطلعا ، فيخيل الى أن مقلتى عينيه قد انزاحتا الى أعلى الجبين ، تتوسلان الى فى ضراعة حيرى ٠٠٠

« طمنى يا حضرة الضابط ٠٠٠ »

« فيه حاجة ٠٠٠ يا جناب البمباشى ؟ »

ويرفع ذراعه الغليظة ٠٠٠ بطيئا كأنها «الونش» يغالب أثقالا ٠٠٠

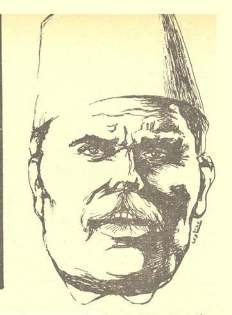
« بص ! ايه ديه ؟ طمنى ٠٠٠ »

وبعيدا ٠٠٠ بعيدا جدا فى زرقة السماء الصافية ، طيف طائرة ركاب ذات محركين ، سابحة فى الاديم ، اتجاهها يدل على أن خط سيرها يقع منا على عشرات الاميال ٠

« طائرة ركاب يا افندم ٠٠٠ وبعيدة عنا خالص ٠٠٠ »

وتنبسط قسمات وجهه اللحيم ، كلا ٠٠ فما كان قد تقلص أو تجعد ، بل تنقشع عنه كدرة كانت قد استجهمته ، فتصفو بشرته ، وتنساح اليها سكينة من وحدة وجود مع ما حوله ٠٠

«أيوه كده ! طمنتنى يا ظابط ياطيار ٠٠ تعالى خدلك شاى » ٠



وأتبعه الى داخل الخيمة ، الى منضدة القيادة ـ فعليها تليفون الميدان « أبو بطارية » ـ ويشير الى بالجلوس على أحد كراسى القش التى من حولها .

«يامراسلة ! وله ياعسكرى .. اتنين شاى !»

« تسمح جنابك ... آخد قهوة » .

«الله امال !..» بلهجة استنكار .. «هو فيه زى الشاى ؟ على كيفك .. » مستسلما وكأنما مغضيا عن غرارة نزوة .

وسرعان ما تتطرق بنا الجلسة الى حديث من جانب واحد ، كما هى العادة ، الى فيض من تحسرات على حظه العاثر ، يبثها الى فى لهجة لاهثة ، تتخللها زفرات مكتومة بين الحين والحين ، اذ يقارن بين حاله وحال زملاء له فاتوه فى الترقى الى رتب أعلى .. فلا حفيظ على حقوق «الاقدمية» فيما بعد رتبة البكباشى .. الترقى رهن بعدذاك بالكفاءة ، وانها لتقاس بالوساطة أو بوشائج من قرابة أو نسب أو لواذا بزلفى أو حظوة عند ذوى الشأن .. « نحمده على كل حال ! »

حديث ممل معاد ، فيشرد بى الفكر رغم محاولاتى الجادة الجاهدة فأبدو وكأنى آذان صاغية ، أتصنع اهتماما لم أشعر به قط وعلى الاطلاق .

وتمتد الدقائق وتطول فينتابنى ضيق .. وأنا الذى سارعت اليه حين استدعانى ، تعلقت بأهداب ظن .. ربما بخفى تمنيات بأن قد جد أخيرا ما سوف يقطع علينا وتيرتنا الرتيبة المملة .. أما أن أصدم مرة أخرى بخيبة أمل ، اثر توهمات جوفاء تركبه جزعا وتهزه من فرق .. ثم ينتهز الفرصة فيقرع مسامعى بنحيب شكاواه المتكررة !

كنا نعيش فى فراغ قاتل.. الساعات تتراكب الى أيام تلو أيام ، فارغة مسحاء فى هذه البقعة الموات .. المدينة من حولنا تعج بالحركة وتضطرب بحياة ، ولكنا قد أحكمنا من حولنا أسباب العزلة ، فى هذه المنطقة التى أصبحت فجأة عسكرية.. كان يحدونا الترقب أول الامر، ثم لفتنا من بعد استكانة لحتم فرض علينا ، انتظارا لما أصبحت واثقا أن لن يحدث أبد الدهر .. أن تأتينا من احدى فصائلنا ، هنا أو هناك ، نبأ هجوم ألمانى مفاجىء على أحد الكبارى. وظيفتنا حينذاك ـ ولا شىء عداها ـ رفع سماعة التليفون « أبو بطارية » ، ودق الجرس نطلب التحويل عن طريق « الترنك » ، فننقل الخبر الى رئاستنا بالقاهرة ، فنكتشف طبعا أن فصائلنا التى فى بنها أو فى كفر الزيات قد سبقتنا الى ذلك .. الا أن تكون قد أبيدت دون أن يتسنى لها أن تفعل .. أو أن يدهمنا المرشال روميل بقوات مظلية ـ فانما هو ثعلب مكير ـ لعل أن يتراءى له الترويح عن جنوده فيحتل أرض الملعب ويقيم لهم مباراة هنا على الارض السندسية الخضراء ، بعيدا عن غبار الرياح الخماسينية التى تأخذ بمخانقهم فى جوف الصحراء .

فراغ قاتل عودت نفسى أن أقطعه بالقراءة .. وهاك به ، جناب البمباشى ، فى فورة من لهوجة جوفاء ، قد انتزعنى من رواية ممتعة ، كانت قد شدت مجامع انتباهى ، فصاحبها أديب معروف جامح الصيت ، فلا يظنن أحد أن الذى استهوانى هو ما شاع عنه وذاع ـ ما كان قد رمى به افتئاتا ـ من أنه لاهث أبدا بفاحش قول أو والغ الى فاسق تصوير ، فقد كان فنانا أصيلا ، همه الغوص الى أصول الغرائز البشرية فيعريها مما تحاول أن تتحجب به من تسام خادع .. فان الادب الرفيع ، كالأكلة الدسمة ، لا يسوغ الا أن يبتل بلواذع من مشهيات !

وأتململ فى جلستى ..

« الله ... مالك مش على بعضك ! عارفك عايز تجرى لكتبك ! حتماًمَّ عنيك .. »

« أبدا .. مانا قاعد أهو .. »

ويتراخى جسده وقد لفته السكينة مرة أخرى .. مسكين هذا الرجل .. أراه دائما متهدل الجسد وكأنه يحمل هموم الدنيا جميعا. ترى كيف ترك نفسه مطية لكل ذى سطوة ، مستخذيا لكل من حمل رتبة أعلى من زملائه الضباط ! بل كأنه لا يجد لنفسه متنفسا حتى

فى عقربيته .. ترى أى النساء هى زوجه ؟ وأى مر تفننت فى أن تسقيه اياه ؟

حسبه التظاهر تجاه صغار الضباط بصرامة عسكرية يفتعلها افتعالا .. لا تتسق حتى مع مظهره المتهدل فلا تخدع أحدا سوى لحظات قصار.. حسبه هذا فيسترق مظاهر من رهبة.. وان كان أبدا مسارعا الى تخفيف وطأتها - اذا ما شعر أنه قد «زادها حبتين» - بكلمة أو ملاحظة خاوية المضمون ، الا أنه تصاحبها حركة خفيفة - يعتقد هو أنها ابتسامة - فتنبسط أركان شفتيه الغليظتين تحت أطراف شاربه الكث .

أما موقفه منى الآن فجد مختلف .. لا صرامة ولا تظاهر بصرامة .. ربما لأنه قذف بنا هنا ، الضابطين الوحيدين ضمن عشرات من جنود .. مجرد شخوص .. مخلوقات تعسة .. أهم « بنا آدمين » ؟ استبتهم « السلطة » الى شقاء « الجهادية » من عالم آخر مجهول ، ثم اليه من بعد ، اذ يفك اسارهم ، يلفظون !

ثم انى كنت لأبخسه .. بل لأبخس «النجمة والتاج » على كتفيه - رتبة أسبغتها عليه «أقدميته» - حقها من «تعظيمات» ، حريص على أداء الطقوس العسكرية فى دقة مثالية ، وخاصة أمام الجنود فى طابور الصباح .. ماحييته قط الا وشعرت كأن قامته تفرع فى زهو ، فتخفف من استدارة كرشه بعض الشىء ، وألمح وميضا خافتا قد أطل ، وكأنما خفوة خاطفة ، من عينيه ضيقتى المحجرين ، فكأنه قائد قوات الحلفاء .. فى بلاد الهند والسند وما وراء البحار .

أم هل تراه كان يخشانى .. أو على الأقل يتحاشى استثارتى ؟

كلا .. ربما فيما مضى .. أما الآن فراحة واطمئنان .. بل أكاد أقول شعور مبهم بأبوة الحادب على ابنه البكر وقد استوى الى رجولة .. أو الرضى قد حط بعد طول معاناة فاذا بالعاق « رجع لعقله » وثاب .

ويتخدر ذهنى تحت تأثير دبيب حديثه المتصل .

« شفت بأه .. »

وتنتزعنى تلك الوقفة القصيرة فى أعقاب جملته التساؤلية .. كانت عيناى قد تاهتا فوت باب الخيمة .. اختلبتنى أرض الملعب بماتعكسه خضرتها الزاهية من لألاء أشعة الشمس الساطعة ، فلا أتحقق أول الامر - وقد تباينت مستويات الاضاءة - من التغيير الذى كان طرأ على ملامحه . فكأنها متوردة باشعاع داخلى .. أم أنها صهبة الاضواء - ضاربة بعض الشىء الى حمرة قاتمة - لفتنا بها غيابة الخيمة ، خباؤها على غلاظته عاجز عن التصدى تماما لضراوة الشمس المتوهجة .

وأرهف السمع أحاول التقاط ما يقول وقد عادت حنجرته تدفع بالكلمات فى قبقبة متواصلة .

« ومش بس شغل البيت.. دى فى «الانجلش سكول» .. تتكلم انجليزى زى البلبل .. »

وعجبت كيف أمكننى تمييز « الباء » ، فهو يميلها الى « ميم » حتى يكاد يدغمها مع «اللام».. ثم أنه كان يأكل «الياء» أكلا :

« ز اللملم »

وتنبهت الى أن الحديث قد قاده الى ابنته .. الى قرة عينه ! فيعدد مزاياها ويفصل .. لم يفعل ذلك من قبل الا مرة واحدة لا غير .. كانت قد طالت بنا الجلسة بعد عشوة كباب .

ويتملكنى الذعر ، فنحن فى عز الظهر ! وبطوننا خاوية .. تمغص تطلعا الى وجبة الغداء .. فما أكلنا شيئا .. « لا كباب ولا هباب » .. ثم أن بيننا وبين نسمة المساء العليلة ساعات وساعات .. ليست هذه اذن عقدة لسان قد انفكت وقد لفتنا مشاعر الاسترخاء ، وانما هو كلام يساق عن قصد وبعد سابق تدبير .. داهية ليكون جناب البمباشى قد تراءى له أن يحيك من حولى الشباك فكأنى «عريس لقطة» .. أم تراه قد توسم فى القدرة على القيام بدور «الخاطبة» لدى شباب من أقارب أو أصدقاء !

واخال أن انتفضت أوصالى باختلاجة لا ارادية .. كما أن وجهى «انخطف» ولا شك فينبهت الى شحوب .

« مالك ؟ »

« مافيش .. » أقولها وقد تمالكت نفسى بعض الشىء .. وأتخيل صورة «قرة العين» .. صورة مصغرة .. ومن أدرانى ؟ فربما طبق الاصل - يا للهول ! كما قد يقول يوسف وهبى - من هذا .. «السيد قشطة» المتهدل على المقعد أمامى ، خلف منضدة القيادة .. والتليفون « أبو بطارية » !

ويتسلل الى رغم كل شعور باشفاق .. من خيبة أمل تصيب هذا المسكين فى « الصيد السمين» الذى يحيك من حوله الشباك فى صبر وأناة واصرار .

هببت واقفا .

« الله ! .. جرى ايه »

« ولا حاجة يا افندم .. » فى لهجة رسمية جادة .. « انما أظن أمر على العساكر .. » وجئته من حيث اعتقدت أن سوف لا يقاوم .. « جنابك

عارف ·· الواحد لا يمكن يطمئن لهم ·· يكون حد منهم خرج من غير اذن ·· وحصل شىء ·· ولا حاجة تانية ·· نقـع فى اشكال من تحت راسـهم ·· ويبقى سين وجيم ·· وسـعادة القائد ·· »

وما كدت أذكر « سعادة القائد » حتى هب ، ولكن كرشه اصطدم بحافة المنضدة فتهتز ونسمع رنة الجرس « أبو بطـارية » ، ولـكنه سرعان ما تحامل فارشا كفيه الغليظين ، ضاغطا عليهما بقوة خارقة فيستوى واقفا ·

« أيوة كده ·· عفارم عليـك ·· وله مفتح صحيح ! »

سعادة القائد ، قائد كتيبتنا ، القائمقام أحمد بركات بك ، فالبكوية حينذاك ـ البـكوية من الدرجة الثانية ـ لازمة تلقائية لرتبة القائمقام ، كان يتمتع بشخصية طاغية ، تثـير الرهبة فى النفوس ، رهبة من بطشه وخبيث طويته ، ليس مبعثها تقدير أو احترام ·

طويل القـامة ، صلب العود ، صارم حازم ، عـلاوة على رصيد من فطنة وألمعية وذكاء ·· صورة لما يجب أن يكون عليه القائد العسكرى ، لولا عديد من نقـائص ، لا يقض صفو باله ان عرفت عنـه ، فهو «قارح العين» ، له من بطشه وسطوته خير حمى ، أما مع رؤسائه ف «صدق ·· حويط» يعرف من أين تؤكل الكتف ·

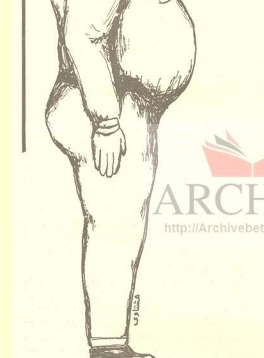
نقائص لم أكن أعرف عنها شيئا ، فقد أمضيت سنوات خدمتى السابقة فى سلاح الطيران ، ثم بدأت تترامى الى ، من هنا وهناك ، اذ انخرطت فى سلك الـكتيبة التى يقـودها ، الهمسات واللمزات عن تصرفاته الملتـوية ، الى أن تأكدت آخر الامر ، حين أحيـل الى الاستيداع متلبسا بتهمة الاتجار بالحشيش ·· تهمة تعذر عليه أن يجد لنفسه منها مخرجا ، فلا مغيث ولا مجير ·

ولكنها قصة أخرى ·

أما أنا فقد كنت اتهمت فى قضية سياسية ، كان لها شنة ورنة ·· نفدت منها بجلدى فجأة وعلى غير انتظار ، اذ سقطت وزارة وتلتها أخرى ، واعتقد «قصر الدوبارة» أن الافراج عنا ، فقد كان لى فيهـا زملاء ، ربما نفث فى الحكومة الجديدة بعض شعبية ، هى حينذاك فى أشد الحاجة اليها·

فان يفرج عنا فهذا موضوع ، اما أن يتغـاضى كلية عما كنا قد اتهمنا به فموضوع آخر ·· ثم أن يتركونى أعود ضـابطا فى سـلاح الطيران الملكى ـ كما كان يسمى ـ فتلك ثالثة الاثافى ، كما كان يصح أن يقال !

نقلت اذن الى سلاح المشـاة ·· فالذى يسير على قدمين ليس كمن أمامه فرصة المروق بطائرة ،



ربما حملت بالقنابل ، فيمرح بها فى الفضاء ·· ثم انه اجراء كفيل بانقاص مرتبى الى النصف ، وانه لأوقع من أى جزاء !

ووصلنى خطاب بسركى ـ ولما تصدر النشرة العسكرية ـ فأقدم نفسى صباح السبت الى الكتيبة التى يقودها بركات بك ·

وفى الساعة العـاشرة ، بالدقيقة والثانية ـ ميعاد العرض على مكتب القائد ـ «دورنى» (كما يقـول الاصطلاح العسكرى) أركانحرب الكتيبة الى مكتب القائد ، الذى كانت ترجف له فرائص صغار الضباط ·

ولكنى ثابت الجنـان ، يلفنى هدوء خدع ، كأنمـا لغم من فولاذ مصقول ، لا يثير ريبة من لا يعرف أصله وفصله ، ولكنه شديد الانفجار ، اذا مس من حيث لا يجب أن يمس ·

ونظر الى «سعادة البيه» نظرة طويلة متفحصة، نفذت فيما اعتقد الى صحة تقدير ·· فيشير الى الضابط الاركانحرب بالانصراف ·

ويتعقبه بعين جامدة حتى تأكد أن أقفـل من خلفه البـاب ، ثم يتهلل وجهه فجأة : « تفضل يا حضرة الضابط ·· »

ويشير الى مقعد مقـابل للمكتب الذى عليه تربع ، ثم يضغط على زر الى جانبه ·· « أجيب لك حاجة ساقعة ؟ »

« متشكر يا افندم » ·

ومضى يسألنى متبسطا عن ظروف القضية·· وكيف قبض على ·· وكيف كان مسار التحقيق·

وانفتح الباب فجأة ·· عن كتـلة ضخمة من شحم ولحم ، تلتحف الزى العسكرى ، تتهـادى كأنها « طابور المحمل » ، محومة فى حذر، خشية أن يفقدها توازنها وطأة الاثقال التى تحمل ·

وكان هذا أول عهدى بجناب البمباشى، وشتان بين الصـــورة التى قدمت حين احتوانا من بعد معسـكر طنطا ، وبين الأثر الذى انطبع عنه فى ذهنى اذاك ·

جهم الوجه ، تعلو قســماته كدرة ·· كأنه يعانى من مغص مزمن دفين ·

وربما أن علا شفتى عارض ابتسامة ·· ليس من حيث عجيب منظره وطريف تكوينه ، ولكن اذ تذكرت ذلك القول الســاخر ـ كان يتندر به بعض الكتاب الانجليز ـ من أن أحجام الكروش هى معيار الأقدمية بين ضباط الجيش المصرى ·

فهـاك حجم وجرم واستفاضة حرية بأن تعقد لصاحبنا سبقا لا ينازع ·· أى الرتب تليق به يا ترى ؟ والله ولا حتى «غازى» ! بالله كيـف أضفيت على مصطفى كمال ـ حتى قبل أن يصبح «أتاتورك» ـ وقد كان ضاويا نحيــلا ·· كأنما الذئب الأغبر !

هذا هو أمامى ·· حيا ، متحركا ، متهاديا·· النموذج الامثل ، صاحب الحق الذى لا يمارى·· كل هذه الاستدارة الفخمة ، كل هـذا التكوين الرائع البـديع ، يتحلقه حزام ـ حزام « بحق وحقيــق » ـ وليس خطا وهميـا كالخطوط الاستوائية التى نتمثلها على تجســيدات الكرة الارضية ·· ثم مجرد «تاج ونجمة» هزيلتين على أكتافه ·· تاج ونجمة فقط لاغير (!) ·

وتمالكت نفسى سريعا ، فأحاول أن أنهض ، احتراما لهذه الرتبة العسكرية ·· ليست « قد المقام » ولكنها أعلى من رتبتى على أية حال ! ولكن بركات بك يشير الى بأن أستمر جالسا ، وبدا لى أن وجه البكباشى قد ازداد قتامة على قتامة ·

« آه ·· جناب البمباشى·· دا حضرة الضابط المنقول علينـا من الطيران ·· » ثم يلتفت الى : « انت طبعا لم تخدم فى المشاة من قبل ·· جناب البمباشى عبـاس نبيه ، قائد ثان الكتيبة ، هو المسئول عن فرقة التدريب «للدفعة» الجديدة ·· تبقى تنضم لهم من بكره ·· »

ثم جاوزنى بنظراته فيوجه كلامه الى « جناب البمباشى » مرة أخرى : « تاخد بالك منه ·· ، عايزينه يجيب نتيجة كويسة ·· »

وغامت عينا جناب البمباشى ، وكأن قد غارت مقلتاه الى دخمس عميق ، وتهدلت شفتاه الى شبه ابتســامة ·· بدا لى أنها تتحسس طريقها الى مواطىء الرياء ·

« البركة فى سعادتك ! امال هم بيبعتولنا ليه لضباط المشــاكسين ·· » واستجمع نفسه ، وكأنه يستمد قوة من منظر زجاجة « الغازوزة » المثلجـة التى أمامى ، ثم تفجرت الكلمات وقـد استثير : « عشان تربيهم سعادتك ! »

شفشاوى

كانت مفـاجأة ، وخاصة بعد الحفـاوة التى قابلنى بها بركات بك ، ولاحظ هذا الاخير بألمعية بديهة أنى اتحفز ·· ان هى كلمة أخرى يدب بها جناب البمباشى ·· أى كلمة !·· فسارع ينزع عنى فتيلة الغضب بابتسامة متفتحة عريضة ·

« لا ·· لا يا جناب البمباشى ·· أنا متأكد انه شهم وراجل ·· ظابط ممتاز ·· تقاريره السرية تدل عليه ·· »

ثـم أردف وكأنه حادب على ، حريص على أن يخف فيغيثنى من مغبـة الانجراف الى فورة من

خماقة : « تفضل حضرتك ‥ روح النهارده ‥ من بكره تقدم نفسك لجناب البمباشى » ٠

انصرفت وقد سكنت فورتى ، ولكن نفسى تعود وتجيش كلما تذكرت جناب البمباشى بوجهه الجهم وسلوكه الفظ ‥ وددت لو ان اتيحت لى الفرصه فامرغ به ‥ أن أطيح فيه ضربا ‥ أن أكبه على وجهه فيسف التراب سفا ‥ وأكاد أراه راى العين مجندلا – فيغص حلقى بنشوة اثمه – وقد مالت رأسه الى زاويه حادة ، ما أشبهها براس الثور الذبيح ‥ تنازع الى رمق اذ تحتبج بخوار مكتوم ٠

صبرك على ‥ صبرك على ‥ ويا ويلك ‥ حين تواتينى الفرصه !‥

ولكن الصورة تتغير بمرور الايام ‥ فجناب البمباشى رجل على « قد حاله » ، لا سطوة ولا عير ولا نفير ، غلبان ، آت ذاهب كان يدا خفيه هى التى تقوده من قفاه ‥ بركات بك بنفوذه الطاغى فى كل مكان حتى دون أن أراه ‥ وأحاديث زملائى ، صغار الضباط ، وقد تآصرت بيننا علاقات ، تؤكد ذلك ٠

اذن فقد كانت مسرحية مدبرة !‥ دبرها بركات بك نفسه ‥ والا بالله ‥ كيف اساغ لنفسه هذا البكباشى التعس – الا أن يكون قد كلف بذلك – أن يقتحم علينا المكتب دون استئذان !

ولكن نار الحقد كانت تأكل قلبى ‥ نارا ماكانت لتخبو لمجرد أن علمت أن جناب البمباشى لم يكن الا مجرد اداة طوعها القائد فيجبر عودى٠

جناب البمباشى – أراد ذلك أم دفع اليه – هو الذى رمانى « بعصمة لسانه » بانى « فى حاجه لمن يربيه » ‥ أنا وانت والزمن طويل ‥ يا مقطف !

***

ومضت أيام ، اهتماماتى جميعا منصبة على أن أبز زملائى فى « الفرقة » – وجميعهم « دفعة » جديدة ، حديثة التخرج من الكليه الحربية ، يصغروننى بسنوات ٠

كان التدريب مرهقا ‥ الطوابير تتوالى ، فتنقض على « المدافع الماكينة » – الاسم الدارج للرشاشات المتوسطة، والتى كانت تنعت كتيبتنا باسمها ، فهى سلاحها الرئيسى – فننزع عنها أجزاءها ، ونعيد تركيبها ‥ نحملها خطفا ، أو ندفع بها زحفا الى مواقع مهيأة‥ نعد لها شرائط الذخيرة ، ونتحرى الدقة اذ نسرع بعمليات التعمير أو التفريغ ، خشية اصابتها بأعطال مفاجئة نتيجة سهو أو اهمال من عجلة أو غفلة٠

ونلمح فى تلفتاتنا السريعة ، أثناء عمليات الانقضاض أو الزحف أو التراجع ، من خلال ذرات الغبار الرملى الدقيق ، تثيره تحركاتنا المحمومة – «شيلا وهبدا» – بجناب البمباشى يتهادى كأنما الفيل ، محوما من بعيد ٠

من بعيد ‥ فوظيفته مجرد الاشراف ، شكلا وليس موضوعا ، مجرد المرور ، بين الحين والحين، وفاء لمظاهر من واجبات ، هى أساس مسئوليات القائد الثانى – لو ان جيشنا كان جيشا حينذاك – من حيث المهارات الفرديه أولا ، ثم القدرات الجماعيه ، فترقى الكتيبه الى أداة قتال فعال ‥ والا فكيف السبيل الى تبرير وظيفته تلك – فى الهيكل التنظيمى للكتيبه – يرصد لها ذاك المرتب الذى يتقاضاه !

أتراه كان يدرى أى سلاح هى « المدافع الماكينه» ؟ ما طبيعتها وما خصائصها ؟ وما السر فى قدرتها على قذف الرصاص فى دفعات متلاحقه؟ ربما أن خطر له أن كامنه وراءها قوة جهنمية خفيه ‥ سترك ياستار ! فكم من مرة لمحته بطرف عين، اذا ما انطلق الرصاص هادرا متلاحقا الى اهداف بعيدة ، يضطرب بانصاف خطوات ، متحيرا فيما بين يمين أو شمال ، متلفتا هنا وهناك ، سعيا الى عاصم ‥ ولا ملاذ !‥ ثم تتسمر به قدماه اخر الامر ، يود لو تصاغر او تكمش ، ولكن هيهات ! فلو أن انشقت الارض فاى غيابة تلك خليقة بأن تتاويه ‥ أو حتى ان تداريه !

جاويش انجليزى هو الذى يتولى تدريبنا ، يأتينا صباحا فى ميعاده المقرر ‥ وربما أن تأخر بضع دقائق ، فينفطر قلبى أسى وغيظا اذ يتهلل لمقدمه وجه جناب البمباشى ‥ ليس مجرد شعور بارتياح لأعباء ثقيلة ازيحت عن كاهله ، بل أبعد من هذا ‥ فرصة أخرى يؤكد فيها خنوعا ربما صار له شفيعا الى رتبة أعلى ، فهو يدق الارض بقدمين «تكهربتا» الى خفة حركة – لا ترقى اليها الا قلة من فيلة أو دببة بعد طول تدريب ‥ كما فى فرق السيرك الاجنبية ذائعة الصيت – ويرفع يده فى رشاقة يحسد عليها بتحية عسكرية، بينا تنفرج شفتاه الى طيف ابتسامة – هى قصارى طاقة– باهتة بلهاء ‥ وكأن التحية ليست اهدارا لأصول عسكرية ، بغية تمسح أو استخذاء ، وانما صادرة عن صدق مشاعر اعزاز وتقدير ، جديرة بأن يتلمس لها المعاذير ، اذا ما القيت فى صورة مازحة ٠

« ياداهية دقى ! » لو أن سهى على ضابط منا «تعظيم» من هو أقدم منه ، وان لم يتميز برتبة أعلى ‥ أما هذا «الدهل» ، المنتمى فعلا الى طبقة «الضباط العظام» – بكباشى وطالع ‥ – فأى مذلة ‥ أى امتهان لكرامتنا ، اذ نراه «يتشقلب»

بالتحية ــ أقدس طقوسنا العسكرية ــ أمام هذا الجاويش ، لمجرد أنه ذو سحنة انجليزية ــ عيون زرق وجلد قشر ــ هو من أعضاء البعثة العسكرية ذات البـاع والسطوة ٠٠ أى نعم ! ولكنه افتقد ولا شـك الكفاءة التى تؤهله لرتبة « ضابطية » مصرية ، كما درجوا أن يفعلوا مع غيره من زملاء!

تحطمت خطوط الدفاع البريطـانية ، بعـد سقوط طبرق المذهل ، واندفعت قوات رومل فى زحف خاطف صوب العلمين ٠٠ وصدرت الاوامر لكتيبتنا بالاستعداد فتــوزع سراياها على بعض كبارى الدلتا حماية لها ٠

لم يبق أمامنا سوى أيام ، وكان على الكتيبة ، من ضمن ، أن تعجــل ببرامج تدريب « فرقة المستجدين » هذه ، التى كنت انضممت اليها ٠

ولكن مواعيد الطوابير أصابها اضطراب ، فهى رهن بحضور الجاويش عضو البعثة العسكرية ٠٠ كنا نصطف فى مواعيدنا المقررة ، نؤدى «التمام» لجناب البمباشى ، ثم يتركنا لحالنا بعد دقائق ٠٠ مهطعا الى مكتب بركات بك ، حيث تفــاصيل تحرك السرايا تناقش وتعاد مناقشتها، استكمالا لمتطلباتها المتعــددة من تسليح وذخـيرة وخيام ووسائل اعاشة وما الى ذلك ٠٠ وليس أمامنا ، نحن أعضـــاء الفرقة التدريبية الا الانفضاض ، فنجلس كيفما اتفق على أرض ميدان التدريب ، نزجى الوقت بالحديث فيمـــا بينـنــا ، انتظارا « لتشريف جناب الجاويش » ، كمـا كنـا نقول متندرين ، فربما جاءنا بعد ساعة أو ساعتين ، وأحيانا لم يكن يأتى البتة ٠

ومضت بضع ساعة، والدقائق تتمطى متثاقلة، وقـد أفرغنـــا جعاب الحديث ٠٠ وابتعدت عن زملائى قليـلا فاتمشى جيئة وذهابا حتى اصابنى الملل ، وأخيرا انتحيت ظلة جـدار قريب ، هو لأحد عنابر الجنود ، أجلس مسندا اليه ظهرى ، فأكل قراءة جريدتى الصــباحية ، تعـودت أن أطويها مرة بعد أخرى ، طية اثر طية ، فينفسح لهـا جيبى الخلفى ، دون أن يبين لها أثر خلال الطوابير ٠

وشعرت فجأة بحركة غير عادية ، فاذا بجناب البمبـاشى على خطوات منا ، يخب متهاديا كهودج على متن بعير يسعى نحوى ملحاحا غير وان ٠

انتصبت واقفـــا وأسرعت أطوى الجريدة ، استعدادا للانخراط مع زملائى ، وقد تجمعوا فى هيئة طابور ٠٠ ولكنه قطع على الطريق ، فيمد ذراعه فجاة وعلى غير انتظار ، ويهوى على الجريدة بقبضة ثقيلة كخف الجمل ، متمكنة وكأنها كف « الغوريلا » ، منطلقة فى لفف من ادغال ، وجدت لنفسها متعلقا فتطبق عليه ٠

« ايه ده ؟ ٠٠ هات ! »

ولكن الجريدة كانت قد طويت ثلاث ثم رباع، فأصبح لها سمك وكثافة ثم صلابة ، وحاول أن ينتزعها ولكنى تشبثت بها فى اصرار ٠

« هات بأقولك ! ٠٠ قاعد تقرا حضرتك !٠٠ وفى وقت الطابور ! » واضطربت شفاهه المكتنزة من غضب ، بينما أسبل جفنيه كفحل الجاموس متحفزا لنطـاح ٠

« طابور ؟ فين هو الطابور ! هو الشــاويش الانجليزى بتاعك ٠٠ يعنى كان جه ! »

«وكمان بترد على ، ياضابط ! هات بأقولك !» وجذب بشدة محاولا اختلاع الجريدة من قبضتى، ولكنى كنت قد أحكمت قبضتى عليها ، متجاوبا مع الصلابة التى أشعر بها ، اكتسبتها اذ تطوت الى رزمة مدكوكة ٠

« لا ! ٠٠ مانيش مديها ! »

وهزه رفضى ، فيضـــطرب جسده كأنما من رعدة ، أو من صدمة مفاجئة ٠

ويتلفت بوجهه الغـــائم ٠٠ ومن حولنا زملائى الضباط « المستجدين » مثبتة علينــا عيونهم ، فيتملكنى شعور طاغ بتحد ٠٠ بل «استبياع» ، وليحدث ما يحدث !

« مش مديك ٠٠ يعنى مش مديك ! »

واذا به قد غاض الى حرج بالغ٠٠ لم يعد يعنيه الا عيون الضباط « المستجدين » التى ترقبنا ، فتسجل لتدهور سطوته ومكانته ٠٠ ويســحبنى شادا الجريدة التى تلاحمت معهــا قبضاتنا ، ان هى الا خطوة جانبية قصــيرة ، فاذا به قد أرسى من ظهره بينهم وبيننا حجابا ٠

ويبرطم قليـــلا ، فلا تسعفه الكلمات ٠٠ أى كلمات خليقة بأن تخرجه من المأزق ٠٠ ثم يهمس أخيرا :

« طب ٠٠ هات الجرنان عشانى ٠٠ »

ولكنى كنت أمتطى قمة الموجة : «لا ٠٠ ده أنا دافع فيه قرش ٠٠ »

ولست أذكر والله أكان ثمن الجريدة حينذاك صاغا أم تعريفة ، ولكنه كان قرشا على أية حال٠

ثم يأتينى صوته فى نبرة توســل : « بقولك عشانى ٠٠ حاقراه ٠٠ »

« ما عنــديش فلوس ٠٠ ولا حتى قرش ٠٠ أشترى غيره » ٠٠ متشددا ، متصلبا ٠

« أقـــرأه وأرجعه لك ٠٠ » مســـتخذيا ، مستسلما ٠٠ والعرق يتصبب من جسده جميعا، كأنما برميل من سمن قــد بدأ ينز ٠٠ ويروعنى لو أن ذوى فجاة هذا الصرح ٠٠ فتتراخى قبضتى من اشفاق ٠

اترك له الجريدة واستدير الى حيث الطابور مصطف ، فتثيرني ــ ولست أدرى لماذا ــ وقفات زملائى المتراخية ، ونظراتهم المتراوحة تكاد أن تطفر بهم الى صخب منضحك ساخر ، لولا مسكة من جد مصطنع ، أوشك أن يتداعى .

« اثبت ! » هذا صوتي يزعق فيهم .. فأنا « أقدم » ضابط فى الفرقة ، ويسرى فيهم للتو تيار من انضباط .

«انتباه !» واذا بأقدامهم قد انصفقت متضامة، وتتصلب أجسادهم فى وقفة صلدة تلبية لفرض يوجبه النداء .

وأدور فى حركة عسكرية نشطة ، فأواجه جناب البمباشى مرة أخرى .. هو حيث تركته، متهدل الجسد ، مذهولا .. كأنما أفاق لتوه من ضربة عاتية أفقدته الصواب ، فما يدرى بعد أين هو ..

وأراه ، اذ أتقدم نحوه بخطى عسكرية محسوبة ، يسارع بالجريدة ، مطوية كما كانت، فيخفيها فى جيب سترته الرحيب ، بينما أؤدى له « التمام » عن الطابور .

ويتمتم ببعض كلمات ، تداغمت حروفها ، فأنفاسه ماتزال تتقطعها زفرات قصيرة، تضطرب لها ملامح وجهه الرخو .. وأفهم عنه أنه يريد منا اعادة استذكار تدريبات الحصة السابقة .

وفجأة يطلع علينا ، من حيث لا ندرى ، الجاويش الانجليزى ، يؤدى لجناب البمباشى تحية متراخية ، فينظر اليه هذا الأخير نظرة صماء وكأنه لا يراه .. ثم يتحرك أخيرا ، مبتعدا عنا فى خطوات متثاقلة فيختفى عن الانظار .

ولكنى أعود فألمحه قبيل انتهاء الطوابير .. واقفا يرقبنا من مسافة على مخارج ميدان التدريب ، لا يكاد يثبت بمكان ، يميل بخطوات قليلة الى اتجاه .. أى اتجاه ، ثم يقفل عائدا الى حيث كان ، وكأنه على ميعاد ، قلق من أن يطول عليه الانتظار ، حريص مع كل على ألا يفوت المكان .

ونتجه الى حيث تلبث ، مثنى وفرادى ، وقد انفرط عقد الطوابير ، فلامناص من المرور بالبقعة التى عندها قد رابط .

وتلكأت فيسبقنى الجميع ، يفوتونه رافعين أيديهم بالتحية ، فيرد عليهم مرة بعد أخرى ، متثاقلا أو متظاهرا بعدم اهتمام .. كأن وجوده مجرد مصادفة ، أو أن لا شأن لنا بالاسباب التى دفعت به الى هذا المكان.. يتعجل ذهابنا فيخلص للأمر الذى على البال .

وجاء دورى ، فأرفع يدى بالتحية مواصلا طريقى ، بخطوات ثابتة فأكاد أن أجوزه .



« حضرة الضابط .. » وأتانى نداؤه خافتا ، فلا يتطرق الى سمع أحد من زملائى ، تنأى بهم رويدا خطواتهم المتتابعة .

درت على أعقابى أواجهه ، فأراه يتحول نحوى ببطء شديد ، وألمح الجريدة ، فى يده اليسرى تدلت الى الخلف قليلا ، مطوية الى رزمة صغيرة سميكة حبيكة ، كما كانت حين حاول اختطافها منى .

ومضت لحظات قصار ، ربما أن مرت عليه طوالا كأنها الدهر، حاول خلالها أن يقول شيئا.. أن يأتى بأى حركة .. ولكنه كالمتسمر مكانه ، مترهل الجسد ، منتفخ القسمات ، فى صورة تثير السخرية والشفقة والأسى جميعا .

« معلهش ياجناب البمباشى » .. أنا قريته خلاص » .

لم أقصد اهانته ، لم أقصد اذلاله.. ربما كان شعورا باشفاق ، ولكنى لن أنسى ماحييت ، كيف تدنت يده ولما يكد أن يرفعها ، مشهد لا أذكره الا وأشعر بقلبى قد اعتصر بتبكيت ضمير ، كأنى حددت معوزا ، أتانى يمد يده بعد أن ضاقت به السبل ، فأنا ملاذه اليائس الاخير .

شعور من أسى عميق ، يحتوينى فجأة ، بل يعترم من داخل فأكاد أن أغص به ، وتكاد أن تقفز الحروف التى ترسم اسمه فى أعلى العامود الذى ينعيه ، فتصكنى .

وكأنى بصوته يأتينى مغمغما من بعيد .. خافتا عبر السنين ، ولكن فى همس واضح النبرات ، كأنما صاحبه جد قريب .

« كده برضه .. ياحضرة الضابط » .

وألم صفحات الجريدة فأطويها بعناية بالغة ، وأضعها على المنضدة التى أمامى فى رهبة وخشوع .. وأتوه عما حولى ، فكأنى قد فقدت الاحساس بالزمان والمكان .

زهير احمد الشايب

الرحلة

أطلق القطار ـ لآخر مرة ـ صفيره الحاد كالصراخ . أذرع القاطرة تتحرك . الضجة الصادرة عن حركتها العنيفة تغطى على كل صوت . دخانها المتدافع الكثيف ينتشر متراكما ليغلف بناية المحطة باطار قاتم . الهرج على الرصيف يزداد. الاقدام تجرى هنا وهناك متعثرة . الايدى تلوح بلا وعى . صيحات الذين ركبوا واشارات أيديهم تهيب بالاخرين أن يسرعوا . صراخ هؤلاء يعلو ليرجو السائق أن يتمهل ، لكن ضجة الاذرع تبتلع كل صوت ، والقطار يبدأ بالفعل سيره وئيدا وئيدا .. الهائمون على الرصيف يلقون بامتعتهم في النوافذ ، بعضهم يقفزون اليها بحركات بهلوانية ، الاخرون يجرون بحذاء القطار ، مترددين بين باب وآخر ، ثم يتعلقون فى النهاية ـ كيفما اتفق ـ باحد الابواب . كاد الكثيرون أن يسقطوا تحت العجلات . سرعة القطار تزيد .. وتزيد .. وعندما تجاوز بالفعل رصيف المحطة ، كان لكل راكب ـ على الرغم من ذلك كله ـ مكانه بالقطار ، ولو على حافة سلم ..



نظرات الركاب غير مركزة على شىء . الانفاس متهدجة، خيل للبعض أنهم «فوجئوا» بوجودهم داخل القطار بدا الجميع يصلحون من ملابسهم ، ويجففون عرقهم . النداءات ـ من كل مكان ـ ترتفع متداخلة :

ـ سامى . ركبت !

ـ انت ياعبد المجيد . تعال هنا .

ـ مصطفى ؟ أين حامد ؟

(صراخ طفل يردد بلا انقطاع : بابا ، بابا ..)

ـ حامد ؟ فى العربة الثانية .

ـ المكان محجوز . تعال ياعبد المجيد

(بابا ، بابا ... بابا ، بابا ..)

ـ متأكد ؟

ـ محجوز ؟ لكنى ساجلس .

(طفلة تصيح : أشرب ياماما .. أشرب ياماما ..)

صراخ صفير القطار المفاجىء يغطى على ضجة العربة ، وضجة الاذرع تفرض وجودها على الاذن . النـداءات تزداد علوا .

ـ شاهدته يركب .

ـ قلت لك محجوز

ـ تعال ياسامى . تعال هنا .

نداءات كثيرة تتردد هنا وهناك . مجموعات المعـارف وأشباه المعارف تتجمع . حـركة الذهاب والمجىء لا تكف كدوامة . القرف والارهاق يطلان من العيون ومن قسمات الوجوه .

ـ دعنى اجلس ، قلت لك .

(مناقشات حادة مماثلة تسمع فى ثلاثة اماكن أخرى متناثرة فى العربة)

ـ قلت لك محجوز . تعال ياعبد المجيد .

عبد المجيد يحاول عبثاًن يشق طريقهاليه بينماالموقف بين صديقه ومنافسه يتطور بسرعة صوت حركة أذرع القاطرة، واحتكاك العجلات بالقضبان يعلو مبتلعا الصراخ الغاضب لكن النظرات المتحفزة تزداد احمرارا .

ـ وانا قلت ساجلس

ـ اجلس اذن .

ـ .. تظنها بالقوة .

ـ نعم . بالقوة .

ـ (نفس المناقشات متناثرة) .

ـ قلت ساجلس يعنى ساجلس .

ـ يااستاذ قلت محجوز . تعال ياصفوت ..

المناقشات تتحول الى مشروعـات مشاجرات .. ضجة الاصوات الآدمية تختلط بصوت حركة القطار . الضجة المختلطة تصب كلها فى اذن الجالسين الذين لايشاركون فى احداثها . راكب ـ يحمل صحيفة تحت ابطه ـ ارهقته محاولة الركوب ، وتردده بين العربتين ، يقف عنـد طـرف العربة القريبـة من مدخـل العـربة الثـانيه ، يفـرك يديه فى عصبية . الحركة الدوامة والضجـه الشديدة ترزحـان فوق صدره . التفت الى المجموعة الجالسـة فوق المقعد المجاور له .

ـ أعوذ بالله . السفر قطعة من عذاب .

الجـالسون يسـتردون نظراتهم المشـتتة . يتبادلون النظرات . احدهم يرد :

هو العذاب كله .

القطار يطلق صفيره الحاد فجـأة . وضعت الاصابع فى الاذن . آخر يرفع صوته ، النظرات تتركز على شفتيه :

ـ الزحام لا يطاق .

شاب يحمل روايه ضخمة ، يتدخل فى الحديث لاول مرة بعد تردد . أشار بيده للركاب :

ـ ما الذى جاء بكل هؤلاء !

دخان القطار يتسرب بين النوافذ . الانوف تستنشقه مكرهة . ضجة المتشاجرين تشتت الانظار من جديد :

ـ وانا قلت لن تجلس . مارايك ؟

ـ هكذا ! هه !

جلس . امتدت يد غاضبة تنزعه من فوق المقعد . التحم الشابان فى صراع وحشى . الاصوات من حولهما تصيح :

ـ يا رجال .. لايصح .. لايصح .. عيب

واحد من ركاب المقعد المنعزل يتمتم مكررا نفس سؤال الشاب حامل الرواية :

ـ حقا ! ماالذى جاء بكل هؤلاء ؟

ـ الذى جاء بك . كلهم مسافرون .

ـ «أى» نعم .

ارتفعت حواجب المحيطين بالمقعد دهشة . كيف استطاع هذا العجوز الركوب ؟ وان يجـد لنفسه مقعدا ؟ ياه ! فى العربة ايضا وفوق المقاعد سيدات وأطفال ؟! عين العجـوز تنظر للخلاء . دخان القطار المتدافع الكثيف يتبدد فى الهواء عن بعد ، ويتلاشى . العجوز لايزال يتمتم :

ـ كلهم مسافرون .. كلهم مسافرون

صوت يصيح ليغطى على الضجة كلها :

ـ ياجماعة عيب . انت يااستاذ .

القطار يصرخ فجأة . ضجة العربة تعود بعـد انتهـاء الصفير باشد مما كانت .

ـ بابا .. بابا .. (بكاء)

ـ ماما .. عطشانه ياماما .. (صراخ)

ـ أى . تضربنى ياابن الـ ..

الذعر فى عيون السيدات . احداهن تصرخ فى لهفة :

ـ خلصوهم ياجماعة . حرام عليكم ! ياخبر!

احد الشابين يلكم الآخر فى وجهه . الدماء تسـيل من أنفه . ثالث يتدخل فى الشجار . ورابع .. سيدة اخرى تولول .. الراكب المقروف حامل الصحيفة ينظر لساعته فى ضجر :

ـ ياه ! القطار بطىء .

صوت العجوز يعلو محاولا اسماع المحيطين به والذين استردوا نظراتهم المبعثرة فى مناطق الشجار :

ـ قديم كالازل . اركبه منذ طفولتى .

ـ انتم يارجال . عيب . كفى

انظار السيدات وبقية الركاب تتعلق فى رجاء بالشـاب



الشهم الذى يحاول أن يفض الشجار ... ضجة شديدة ..

ـ كثر الناس وزاد ركاب الخط ، والقطار كما هو .

(الضجة تقطع الحديث لفترة)

ـ صحيح . ماذا تجدى عربتان ؟

ـ حتى الآن ، ليس أمامنا سواه .

الشاب الشهم قارب أن ينجح فى ابعاد المتشاجرين . أحدهم يحاول من جديد معاودة الهجوم . الشاب يصيح فيه :

ـ عيب ياأخ . عيب . اجلس مكانى .. تعال ..

الضجة تبدأ فى الهدوء ، لكن شجارا ثانيا يوشك أن يبدأ فى منطقة أخرى . الشاب قارىء الرواية يسأل باهتمام .

ـ والحكومة لاتتحرك ؟

النظرات مبعثرة حيث المجموعات المتشاجرة . ايقاع حركة القطار يسمع كخلفية موسيقية ثقيلة ورتيبة لاصوات المتشاجرين ..

ـ هى بانتظار أن يقتل الناس بعضهم البعض ..

النظرات تتفحص المتحدث فى اهتمام .. المتحدث يضيف فى سخرية مرة :

ـ .. وبذلك لانكون هناك مشكلة ..

الشاب الشهم يصرخ فى البعيدين عنه

ـ انت ياأخ هناك .. انتم ياجماعة .. عيب .. تحملوا ..

ـ يجب أن نروض انفسنا على هذا ..

ـ السفر جزء من حياتنا ..

العجوز يتنهد . عيناه فى الخارج تتاملان الاعمدة والاشجار وهى تتراجع بسرعة فى الاتجاه المضاد . وزوبعات الهواء المدومة التى لاتلبث أن تتلاشى .

ـ بل حياتنا كلها .. دنيا !

ـ وبعد ! قم أحسن لك

صراخ الشاب الشهم لايجدى ، فالمشاجرة الثانية بالفعل توشك أن تبدأ . وقع بصر الشاب على صديقه سامى .خطر له خاطر مفاجىء . نادى على الفور :

ـ اسمعوا .. اسمعوا ..

الشاب يقف فوق مقعده. يرفع صوتهبأعلى منضجيج القطار ـ والمتشاجرين .

ـ اسمعوا .. سكوت ..

الانظار تتجه اليه .

ـ ستستمعون الآن الى المطرب العاطفى المحبوب .. سامى

ـ لن أقوم . تظنونها فوضى ؟ عافية ؟

ـ لكنك ستقوم .

ـ انتم ياجماعة . كفى .

ـ هيه يا سامى . أبدأ . أبدأ .

أصدقاء آخرون ينضمون للشاب الذى فض المشاجرة

ـ أبدأ يا سامى .

ـ أبدأ .

ـ قلت لن أقوم .

بابا .. بابا .. (الطفل يعاود البكاء)

ـ ياجماعة عيب

ـ أبدأ يا سامى . أبدأ ..

ـ سيسكتون من أنفسهم .

ـ أبدأ . أبدأ .

الشاب الشهم يعاود الصياح من جديد .

ـ سكوت يا جماعة . اسمعوا .

شاب خجول يرتقى أحد المقاعد . ظل صامتا لفترة . نظرات الجالسين والواقفين بالقرب منه تتطلع اليه . الصمت يبدأ ينتشر حوله النظرات ترتقب انفراج شفتيه .

ـ اذن تعال ..

الشابان الآخران يهمان بالبدء فى مشاجرة جديدة . صوت غاضب من الاصوات المحيطة بسامى يصيح فيهم :

اسمع يا أخينا أنت وهو . الله !

أبدا يا سامى .

انفرجت شفتا سامى . صوت بكاء الطفل ، وصياح الباعة ، وضجة المشاجرات الجانبية ، وايقاع القطار الثقيل .. كل ذلك يتشرب صوت سامى . الهمس يدور :

ــ آه ؟

ــ ماذا يقول ؟

الرءوس تشرئب . الصمت يفرض نفسه على مجموعة أكبر . الصراخ يقل . والآذان تبحث وسط الضجة الكثيفة عن صوت سامى . أفلحت فى النهاية أن تلتقطه ــ واهيا ــ وسط الاصوات الزاعقة :

« ياوابور قول لى رايح على فين ..

صوت أذرع القاطرة يعود فيسمع متواصلا كلحن رتيب .. يسير على وتيرة واحدة . فلا تلوح له نهاية .. الآذان تزداد انصاتا والعيون تحملق فى شفتى سامى .. الصمت يكاد يفرض نفسه على أكثر من نصف العربة .. البعيدون عن سامى يتابعون حركة شفتيه ، والاغنية المحفوظة من زمن ، تنبعث من صدور الجميع لتتوافق نغمتها الداخلية محركة شفتى سامى ..

قارىء الرواية يسمع بوضوح صوت سامى ، وعينه على خارج القطار :

الاشجار وأعمدة التليفونات تتراجع سريعة .. سريعة .. متلاحقة . خطوط الحقول المستقيمة . تميل ، وتنحنى .. وتلتوى ، وتنطوى .. فتضيع معالمها ، ليندمج الحقل فى البقعة الخضراء الفسيحة ، الشجر عن بعد ، اطار دائرى ، يحدد الافق ويصد البصر . كل شىء يتحرك ، ويتراجع ويدور .. الدوار يصيب قارىء الرواية ، فيعود ببصره الى الداخل ، ليجد نفسه ثابتا فوق مقعده ، والمحيطين به جالسين أو واقفين فى نفس اماكنهم ، وسامى فوق مقعده يواصل غناءه ..

« قربت بعيد..
« وبعدت قريب.
« وجمعت حبيب
« على شمل
« حبيب
« ..
« والقرب
« نصيب ..
« والبعد ..
« نصيب ..

« ماتقول ياوابور رايح على فين ..

القطار مندفع . يقذف الفضاء بسحابات دخانه الاسود الرءوس تهتز والاصوات تتمتم : رايح على فين .!

صفير القطار الاجش يسمع فجاة ، فتطير العصافير من أعشاشها ، وتصرخ الغربان فوق هامات الشجر . شفتا سامى تتوقفان عن الحركة ، فيتوقف تدفق اللحن من صدور الركاب .. الاصوات تعلو من كل مكان فى العربة

ــ واحدة ثانية

ــ واحدة ثانية .

ــ واحدة ثانية

ــ يا أستاذ سامى • واحدة ثانية •

الواقفون يتحركون من كل جهة ليحيطوا بسامى .

ــ واحدة ثانية .. واحدة ثانية ..

ــ ياعم .. نتسلى .

سامى مطرق فى خجل . النظرات ترمقه فى رجاء . النداءات تتحول الى هتاف منغم تصنع الاكف ايقاعه :

ــ واحدة .. ثانية ..

ــ واحدة .. ثانية ..

سامى يرفع رأسه المطاطا .. (ضجة غامضة تصدر عن العربة الثانية لكنها تتوه وسط ضجة أذرع القطار) شفتا سامى تجذب اليها كل الرغبة فى الاستماع ، فلا تلتقط الآذان شيئا من ضجة القاطرة :

« ياورد مين يشتريك ..

الاغنية تنساب من مكمنها فى الصدور . الرءوس تهتز طربا للحن الصادر من أعماق صدورها ... انتهى المقطع الاول من الاغنية .. ضجة العربة الاخرى تقتحم الهواء ، وتنفذ الى العربة الاولى واضحة .. انصتت الاسماع لحظة قصيرة . صاح أحد الركاب فجاة :

ــ غاروا منا . غاروا منا .

الآذان تزداد انصاتا . أصوات أخرى تؤكد :

ــ فعلا .. غاروا منا .

ــ رد عليهم يا سامى .

الدائرة المحيطة بسامى تزيد كثافتها

ــ رد عليهم

الشاب الذى فض الشجار من قبل يصنع بكفيه ايقاعا راقصا :

ــ هيه .. هيه ..

الاكف والاصوات تصنع ضجة حقيقية الاطفال يعاودون البكاء قارىء الصحيفة يعود اليه امتعاضه.والعجوز وقارىء الرواية يلقيان بنظراتهما الى الخارج اعتلى واحد مقعد سامى ووقف الى جانبه .

ــ سكوت . سكوت ياجماعة . ابدا يا سامى

« أبيض ، غار النهار منك ... الضجة الصادرة من العربة الأخرى تعود تظهر ، لتفسد من جديد لذة الاستماع .

الأنظار ترمق العربة الثانية فى ضيق . ضجة القطار ــ تسمع فجاة . القطار يصرخ فى صفير طويل أجش . الدخان الاسود يتكاثف ، يدخل من النوافذ ، يجثم فوق الصدور .. الأصابع توضع فى الآذن ، لكن الضجة تنفذ عن طريق المسام والعظام .. الصمت الصاخب يسود لفترة تمتنع فيها الاقوال .. ضجة القطار تبدأ فى الخفوت .

فينحسر التوتر ، ويعود الايقـاع الرتيب لحركة الاذرع. ليسمع كخلفية موسيقية مملة ..

ـ ارفع صوتك يا سامى ..

« ... خجول محتار ..

قارىء الرواية يكتشف أن صـوت سامى يرتجف . الدائرة المحيطة بسامى تواصل تضخمها

ارفع صوتك .

ـ ارفع صوتك .

ضجة العربة الثانيـة تقتحم الأسماع مرة أخرى . نزل سامى من فوق مقعـده . الشاب الذى فض الشجار يرتقى مكانه . صاح بصوت جهورى حاول جهده أن يجعل منه غناء :

« أسمر .. يا أسما .. رانى ..

الحناجر تردد خلفه فيزداد وثوقا بصوته ..

« أسمر .. يا أسما .. رانى ..

الضجة تستمر ، والأغنية المعروفة تكتسب لحنا جديدا جماهيريا .. أفواه ركاب العربة الأخرى تفتـح وتغلق . لكن ماذا يقولون ؟ معظم الركاب يشدهم ما يحدث . قام واحد او اثنان من فوق مقعدهما ليشاركا فى الغناء . صوت العربة الثانية يختفى تماما . آذان ركابها تنصت ،وعيونهم تحملق فى فضول ، وأفواههم لم تعد تتحرك .. التعب يدرك المغنى فينزل سعيدا .. ابتسامة عريضة تملأ وجهه . البعض يصافحونه فى حرارة . الحركة تدب من جـديد فى العربة الاخرى . الافواه هناك تعود فتتحرك . النظرات هنا تحاول استيضاح الصوت الصاخب المتداخل مع ضجيج القطار ..

« البيض الامارة ..

النظرات تتبادل سريعا . الارتباك .

ـ «ثانى» ياأستاذ . «ثانى» .

الشاب يعود ليرتقى المقعد . أصبح صوته هتافا حقيقيا .

« أسمر . يا أسما .. رانى ..

الهتاف يتردد صاخبا يصم الاذن . طفلة شقراء تميل على اذن أمها تسألها الامر . الطفلة تنتفض عقب سـماع أمها ، تقف لتشارك فى الهتاف :

« أنمر .. يا أنما .. رانى ..

صوتها يضيع وسط الضجة الشديدة . الدائرة التى تصنع الضجة تواصل تكاثفها . خليت بالفعل أماكن كثيرة . أيدى العربة الأخرى لا تزال تلوح ، والأفواه هناك تفتـح وتغلق ، وأصواتها الغامضة تحاول النفاذ الى العربة الأولى فى اصرار .

« الأسمر .. الأسمر ..

« الأسمر .. الأسمر ..

الوهن يدرك المغنى والمحيطون به يحـاولون التقاط أنفاسهم . صوت العربة الأخرى يقتحم أسماعهم شديد الوضوح :

« الأبيض .. الأشقر ..

العربة الأولى تعود للهتاف :

« الأسمر .. الأسمر ..

الاكف تواصـل التصفيق المنغم . قارىء الرواية لا يستطيع مواصلة القراءة . سخط حامل الصحيفة يشتد. ملامح العجوز لاتنبىء عن حقيقـة مشاعره . أفواه العربة الثانية تكف عن الحركة . الفرحة النشوانة تسرى فى العربة الاولى . طفل يسأل أباه :

ـ غلبناهم يا بابا ؟

ـ نعم .

الطفل يصفق فى زهو والفتاة الشقراء لا تزال تغنى للأسمر ، والأيدى تتصافح لكن صوت العربة الأخرى يسمع كالزئير :

« نحن فتوات الحسينية ..

« نحن فتوات الحسينية ..

الارتباك يسود العربة الأولى من جديد . الأبصـار تتعلق بشاب آخر يرتقى مقعدا جديدا

« يحيا أبطال المدبح

« عاش أبطال المدبح ..

الأيدى تلوح . الأقدام تخطو تجـاه العربة الثانية لا اراديا . حركة مماثلة تحدث بالعربة الأخرى دون قصد . الهتافات هنا وهناك زئير حقيقى :

« المدبح ..

صفوف عيدان الذرة في الحقول تميل وتلتوى ، وتختلط بالشريط الأخضر العريض الذى يتراجع بسرعة دخان القطار يصنع جوا ضبابيا يشبه الاطار القاتم الذى تصنعه الأشجار والنخيل على مدى البصر ليحد الرؤية ويحدد الافق .. أطفال فى قرية بعيدة يلمحون القطار .. نقطة سوداء تتحرك فى بطء شديد ، تغطيها الأشجار ويحجبها النخيل ، أحد الأطفال يلقى بالطين الذى فى يده . يصيح فى زميليه مشيرا باصبعه :

ـ قطار . أسبقه لكم !

الطفلان الآخران يلقيان هما أيضا بالطين . الثلاثة يجرون فى نفس اتجاه القطار . سرعتهم تزيد وتزيد . الأول يصيح بعد مدة :

ـ هيه . سبقته .

الطفلان الآخران يرددان :

ـ وأنا .

ـ وأنا .

الملل يدركهم فيتوقفون واحدا بعد الآخر . عاودوا اللعب فى طينهم . نظروا بعد مدة الى حيث كان القطار . القطار اختفى تماما ، غير مخلف وراءه الا بقعا من دخان أسود تلطخ الهواء ، وصورا مضحكة فى ذاكرة الأطفال لركاب فى حجم عيدان الحطب ، وضجة يبتلعها السكون ، ويبددها الهواء ، لكنها داخل العربتين صاخبة تصم الاذن :

« جئنا رحابك يا حسين ..

الهتاف الجديد يجدد شباب العربة ، فيسترد صوتها الواهن قوته :

« جئنا رحابك يا حسين ..

« الحسين .. الحسين ..

قارىء الرواية يتلهف لمعرفة الرد القادم من هناك . الضجة من حوله تبدأ فى الخفوت بعد مدة ، فينفذ الى أذنه الصوت القادم من هناك :

« نظرة .. نظرة .. ياسيدة ..

العربة الأولى تعاود صراخها العصبى

« الحسين .. الحسين ..

قبضات الايدى تلوح فى « وعيد » . العربة تبدو كجسم واحد بمئات الألسنة . المشاعر تتلاحم ، والانفعالات تتشابك . لم يعد فوق المقاعد الا النساء والأطفال وقلة من الرجال . الأقدام تخطر وتخطو نحو العربة الأخرى .. القطار يطلق صفيرا مزعجا . ايقاع أذرعه لكلمات فى الصدور .. الشاب يغلق روايته . نظراته تلتقى بنظرات العجوز .. تقلب على تردده ومال الى الامام :

سوء حظنا أوقعنا معهم .

الهتافات وصفير القطار يقطع فرصة الرد .



« .. الحسينية ..

والضجة هنا وهناك تزيد فى كل لحظة ، تملأ سماء العربة بالغبار ، أصوات كل عربة تحاول اخماد أصوات العربة الأخرى ، أصواتهما تتقابل فى المنطقة الفاصلة بين العربتين فتصنع ضجة أعلى من ضجة القطار ، تختلط بصفير زوبعة ترابية مخيفة ، تدور فى دوامات صغيرة متقاربة .. قارىء الرواية يفتقد « صوت » سامى .. حاول أن يدندن لنفسه بالأغنية .. الضجة لا تمكنه من سماع صوت نفسه .. ملامح العجوز تبدأ فى الافصاح عن شعور بالقلق .. الشاب القارىء يطل من جديد الى خارج القطار مديرا ظهره لكل ما يحدث .. القطار يطوى الأرض ..

العجوز يشير اليه أن يقترب :

ـ هكذا السفر يابنى .

« الحسين .. الحسين ..

الشاب يهز رأسه محاولا التقاط صوت العجوز

ـ نعم ؟

« هيه .. هيه .. الحسين ..

ـ انت حديث عهد ..

.. الحسين ..

بالسفر

« نظرة .. نظرة .. ياحسين ..

ايقاع القطار الثقيل يختلط بصوت الهتاف . الشاب يكاد يلصق أذنه بفم العجوز .

ـ حياتى كلها أسفار .. تاجر متجول .. لم يخل سفر من ضجة ..

الشاب فى شدة الضيق . رفع عقيرته فى غضب مشيرا نحو الدائرة التى تقترب من مقعده :

ـ كهذه !

تمتم العجوز بصوت يأتى من بعيد :

ـ وأكثر .

الضجة تقطع أفكار الشاب . الشاب يحاول أن يجمع شتات فكره . هم بتوجيه سؤال للشيخ . فوجىء به يضحك وهو يشير باصبعه . نظر الى حيث يشير . طفل يحاول النزول الى ممر العربة لينضم للدائرة . والده يمنعه بصعوبة . فيهتف حيث هو بأعلى مايستطيع :

« الهئين ، الهئين (الحسين .. الحسين) ..

ـ رأيت ؟

الشاب يمط شفته السفلى ، يعاود النظر الى الدائرة التى تتحرك نحوه . النظرات الغاضبة تتجه نحو العربة الاخرى . الايدى تلوح . الاصوات تصرخ . حدة المشاعر تزيد مع ازدياد ضعف الصوت .. صوت العربة «اللعينة» يغطى على «صوتهم» ..

« السيدة .. السيدة ..

« هيه .. هيه .. السيدة ..

أيدى بعض ركابها تصنع حركة مستفزة شامتة ، وآخرون يخرجون ألسنتهم . الغضب يسيطر على نفوس ركاب العربة الاولى . النظرات الحانقة تبحث فى ارتباك عن مخرج . فوجىء قارىء الرواية بجاره حامل الصحيفة مرتقيا مقعدا وسط الدائرة :

« الاسد ملك الحيوانات



الصوت الواهن يسترد قوته

« الاسد ملك الحيوانات .

الهتاف يصنع ضجة جديدة . الايدى تواصل تلويحها الرجل يندمج فى صراخه . الاقدام تواصل الخطو . الدائرة تصبح في مواجهة مقعد العجوز . الشاب ينظر للشيخ فى جزع . وجوه العربة الثانية تبدو ملامحها فى وضوح . أيديها هى الاخرى تلوح وأصواتها تصرخ .

« النسر ملك الطيور ..

« النسر شديد البأس ..

العربة الاولى تستمرفى صراخها ، هتافها يختلطبهتاف العربة الثانية

« الاسد

« النسر

« الاسد

« النسر

« الاسد

« النسر

الهتافات المتداخلة تختلط بايقاع القطار الرتيب . الوجوه تتفحص الوجوه ، والايدى تزداد تلويحا . الذعر يطل من عيون السيدات . قارىء الرواية يلاحظ الغبار الكثيف الموازى لجسم القطار .. قطع الحصى والقش تصفع وجهه .. القطار مندفع فى طريقه ، دخانه الكثيف يحجب وجه السماء ، الفلاحون المتناثرون فى الحقــول يضعون أصابعهم فى آذانهم .. جاموستان تجـريان فى انزعاج .. الفلاحون يحاولون ايقافهما .. القطــار يبتعد ، وضجته تخفت فيعود الى الجاموستين هدوءهما .. القطار يختفى تماما ، والسحابة القاتمة التى خلفها يتقاذفها الهواء .. صوته من بعيد يصــل اليهم واهنـا ، لكن قارىء الرواية يجفل عند سماعه ، يعاود النظر حواليه . شــاب يعتلى المقعد المجاور لمقعده ، يصنع بيده لحنا راقصا :

هيه .. هيه ..

الاجسام تتلامس وتتدافع . الاقدام تخطو فى اصرار . العربة الاخرى تردد هتافاتها . راكب هنــاك يعتلى كتفى زميل . أستطاع على الفور أن يحفظ توازنه . لوح بمنديل أخضر مشيرا فى ازدراء الى العربة الاولى :

« هيه .. هيه ..

الارض تهتز تحت عجلات القطار . راعى غنم يعبر بقطيعه قضبان القطار . القطار يصفر عن بعد . الراعى يتنبه لقدومه . الاغنام متنــاثرة بين القضيبين ، ترعى الخضرة النابتة وسط الرمل والزلط . ضجة القطار القــادم تهز الارض تحت قدميه . ماالعمل ؟ .. ماالعمــل ؟ .. نفس السؤال يردده قارىء الرواية . نظراته تستجدى شــيئا غامضا من العجوز .. العجوز فى ذعر حقيقى .

« هيه .. هيه ..

« هيه .. هيه ..

الايدى لاتزال تلوح فى عصبية شديدة . السيدات فى غاية الذعر . الاطفال ينفجرون باكين . الخطر الغامض يلوح متراقصا فى سماء العربة . العجوز يقف نصف وقفة ، قبضة يد قارىء الرواية تتكور . لا مفر .. لا مفر ..

« هيه .. هيه ..

« هيه .. هيه ..

القطار يصرخ . راعى الغنم ينظر حواليه فى ارتبــاك وذعر . القطار بوجهه الفــاحم يطل عن بعد . الغبار يلف جسمه . ويتراقص حوله وأمامه الهواء معتم . الراعى يرفع عصاه ، يهش بها فى تخبط . الاغنام تجرى فى غير نظام . لايزال الكثير منها بين القضيبين . القطار يقترب ، متلويا كثعبان ، صوته كالفحيح ، وجهه الفاحم يتسع .. وبعد ؟ .. وبعد ؟ العجوز يقف . قبضة الشاب على استـعداد للعمل . الهتاف يتحول على نحو مثير :

« العبيط أهه .. أهه ..

« العبيط أهه .. أهه ..

« الحمار أهه .. أهه ..

« الحمار أهه .. أهه ..

القطار على بعد خطوات من الراعى . العصا تنزل على الارض في خبطات متخبطة . الخرفان تجرى فى غير نظام . صراخ القطار يكاد يخلع قلب الراعى . عيناه زائغتان . العجوز لايجد مايقوله ، يلوح بيده فى حركات خرساء .

« اسكت . اسكت . ياعبيط .

« اخرس . اخرس . ياحمار .

صوت القطار يزداد زمجرة . الراعى يلوح بعصاه فى الهواء . لكن القطار .. وقع صوته حجر رمى فوق صدره. القبضات داخل القطار لاتزال تلوح . الوجوه تتقابل . الغضب يملأ القسمات . القطار يصرخ . الراعى يتنبه لنفسه . ابتعد عن القضيب . موكبا العربتين يقتربان من المنطقة المكشوفة التى تفصل بين العربتين وتربط بينهما فى نفس الوقت . قلب قارىء الرواية يدق بشدة . العجوز على وشك ان يتحرك . القطار أمام الراعى يصرخ فى غنمه فى جنون وهو متخشب فى وقفته :

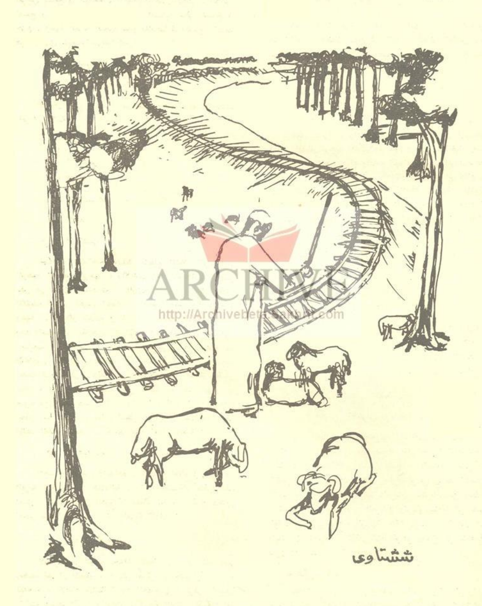
ـ هش . هش .

العجوز ينهض . يقفز فى خفة شاب . يقف على رأس موكب عربته . أصوات الهتافات لم تعد تسمع ، لكن نظرات العيون تتحدث بما فيه الكفاية . القبضات المتوعدة تزيد

من حرارة النظرات . القطار يحاذى الراعى . الراعى يصيح في غنمه بلا وعى : لا . لا . والعجوز يجد فى النهاية صوته ليهتف فى موكبى العربتين مشيرا الى الارض :

ــ يامجانين .

العيون تنظر الى حيث أشار . الارض تتراجع بسرعة شديدة تحت أبصارهم تنسحب ، وتنسحب . صلابتها تذوب . تتحول الى صفوف مفتتة من الحصى ، والرمل والزلط . أعمدة التليفونات تتراجع ،لتهوى . الهواء

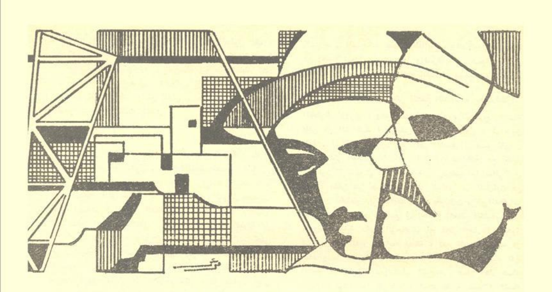


العاصف يكاد يجذبهم . الدنيا تدور ، والحقول تلف ، وتستدير ، وتنقلب . أغمض الركاب عيونهم وكذلك فعل الراعى . القطار يتجاوزه . العاصفة المحيطة بالقطار تكاد تجرفه . أغمض عينيه فى استسلام . العاصفة تلقى فى وجهه وجسده كله بالحصي وقطع القش . حاول الركاب أن يفتحوا عيونهم فامتلأت بالقذى .

ـ اعقلوا .

العرق يسيل من جباههم . أفواههم مفتوحة . نظروا لبعضهم البعض فى ذهول . ايقاع القطار يسمع رتيبا .. رتيبا .. الراعى يسترد وعيه بنفسه . القطار ابتعد بما فيه الكفاية . لم يصدق أنه لايزال حيا . نظر فى عجب ، كيف ابتعدت خرافه عن القطار ؟ تمتم يحمد الله . قارىء الصحيفة يلعن قلة العقل . والركاب يبدأون العودة كل الى عربته . الضجة تأخذ فى الخفوت شيئا فشيئا حتى يرين الصمت .. صوت احتكاك العجلات بالقضبان يعود فيسمع أزيزه ، وحركة أذرع القاطرة الرتيبة تفرض من جديد ايقاعها الثقيل على الاذن . والقطار يطلق صفيره أجش محشرجا . النظرات تلقى من النوافذ . البنايات تنمو متناثرة على جانبى الطريق .. المبانى تكبر ، وتكبر .. السحابة القاتمة التى تغلف المدينة تنقشع والعمارات العالية تلوح عن بعد .. المآذن والقباب ومداخن المصانع تنتصب فى الجو . سرعة القطار تقل .. وتقل .. صوت احتكاك العجلات بالقضبان يعلو .. وايقاع أذرع القاطرة يزداد ثقلا .. الجالسون يبدأون في الوقوف ، الايدى تمتد الى الرفوف ، وتحت المقاعد ، وفى الممر .. الايدى تحمل الحقائب والامتعة . صراخ الاطفال يسمع من جديد وسط الصمت . السيدات يحملن أطفالهن ، والمدينة تسفر تماما عن وجهها فتبدأ ترى النوافذ والشرفات .. ضجة القطار تزيد ، وأزيز احتكاك العجلات بالقضبان يسمع متواصلا ..

القطار يتوقف فى مبنى المحطة الضخم . بجوارقطارات الخطوط الاخرى ، وهو يطلق آخر صفيره المحشرج . الامتعة تلقى من النوافذ ، البعض يتعجلون النزول ، فيقفزون منها . الباقون يسيرون عبر الممر الضيق فى صبر قلق . الزحام على الرصيف كثيف . النازلون يتداخلون مع الذين يحاولون الركوب فى دوامةحقيقية .. صخب نداءات الراكبين الجدد يطغى على صوت النازلين الواهن .. النازلون من العربتين يختلطون بركاب القطار كله يختلطون بركاب القطارات الاخرى ، ليذوب الجميع فى زحام المحطة الكثيف ... قارىء الرواية يتأمل الزحام . لمح فجأة «جاره» العجوز فتذكره على الفور ، تابعه لحظة ، لكن العجوز يغيب عن عينه وسط الزحام . قارىء الرواية يتلفت حواليه لكن الملامح تختلط عليه ، وتتشابه الوجوه . صفير قطار حاد كالصراخ يوقظه من خواطره ، ليجد نفسه يسير فى فناء المحطة .. الاقدام من حوله تسرع فى صمت .. ومن خلفه يتصاعد دخان القطارات .. ويزداد قتامة وكثافة . الدخان يمتد وينتشر حتى ليكاد يغلف المبنى الكبير كله برداء ضبابى قاتم .. الزحام من حوله يخف ، وفناء المحطة يوشك أن يخلو الا منه .. قارىء الرواية يمل فجأة كل ماحوله ، فيدير ظهره ـ بحزم ـ لكل شىء ثم يعاود السير في سرعة بينما صوت حركة أذرع القطار ـ الذى حان موعد سيره ـ يتوازى ايقاعه الرتيب مع وقع خطواته المسرعة ، وهو يلتمس باب الخروج المؤدى الى المدينة الواسعة ..



اشجار متحجرة

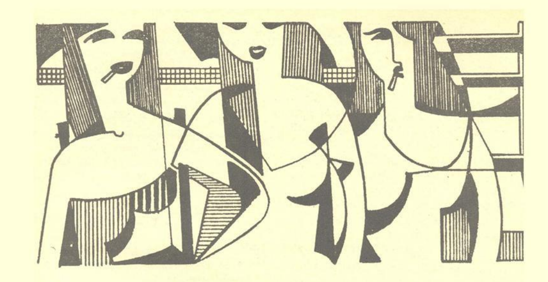
سيد جاد

زوجان من الأحذية الضخمة ذوات الرقبة تخوضان فى طبقة كثيفة من التراب البنى ٠٠

ـ لما لقيت الموتور بيدخن كنت حافكه امبارح لكن قلت أفكه قدامك أحسن ياباشمهندس ٠

لكن المهندس عبد المعطى بدا وكأنه لا يسمع شيئا ٠٠ يحدق بعيدا فى الجبل والبيوت النوبية والأشجار وكل الأفق الشرقى الذى اكتسى بطبقة من التراب الأحمر ٠٠ والأحذية الثقيلة تتقدم نحو الكسارة ٠٠ كل شىء يبدو لعبد المعطى بعد عودته من مأموريته القصيرة بالقاهرة وكأنما يراه لأول مرة ٠٠ خطوط السكة الحديد الخاصة بالكسارة ٠٠ شجرة الكافور وشجرة الجزورينا الشجرتان لا يزيد طولهما على قامة البنى آدم ٠٠ لا بد أن تتأملهما ببطء حتى تدرك أن هاتين الساقين الرفيعتين وتلك الفروع العجفاء والأوراق الشاحبة ليست سوى شجرتين اغتالهما الغبار البنى القاتم فأوقف نموهما وأصابهما بالتحجر٠٠ بجوار عربات السكة الحديد ثلاثة عمال ، فى يد كل منهم حديدة طويلة يلاحظون نزول الخام من بين القضبان الى المخازن السفلى ليقوموا بتكسير الأحجار الكبيرة حتى تنفذ من بين فتحات القضبان ٠٠ تماثيل محروقة جافة بلا حواجب بلا أهداب٠٠ لون الوجه والأيدى لا يختلف عن لون البدل المتشبعة بالحمرة القاتمة ٠٠

على ترابيزة بجروبى سليمان باشا ثلاث فتيات لاتزيد عمر الواحدة منهن عن خمسة عشر عاما ٠



الوقت ظهر والجو مكيف.. فى يد كل منهن سيجارة .. الفتيات الثلاث يجلسن ويتحدثن ويدخن كما لو كن فى حجرة نومهن الخاصه .. انحسرت الميني جيبات الى أعلى أفخاذهن الطرية المتفجرة بالحيوية والانوثة المبكرة .. اثنتان تضعان الساق فوق الساق والثالثة فتحت ما بين ساقيها مائلة قليلا الى الامام وهى تضم شفتيها النهمتين حول مصاصة تمتص بها الايس كريم بالصودا من كوبها الكبير .. يتحدثن ويضحكن بانطلاق ويدخن بلا مبالاة .. وينظرون فى جرأة وتحد الى العيون التى تلتهم لحمهن العارى .

***

الموتور الذى يريد أن يراه فى منتصف الكسارة .. فى مقدوره أن يصعد الى المكان مباشرة عن طريق السلم .. تحت السلم بحيرة كبيرة من الوحل .. وهو بالقرب من بداية الكسارة .. وشعر برغبة فى القاء نظرة على كل شىء داخل الكسارة قبل الصعود الى الموتور خاصة وان الكسارة لم يحن وقت دورانها بعد .. نزل الى الغرفة أسفل مخزن الخام آثار السيل الذى هاجم الكسارة ذات ليلة ما زالت بأعلى جدران الغرفة .. وبدأ يصعد مع السيور الجلدية متفقدا كل شىء فى الأماكن المحددة لوقوف « عمال التراب » يلتقى بتماثيل الطوب المحروق .. ضوء اللمبات الكهربائية الصفراء .. تمثال أو تمثالان فى المكان الذى ينبغى أن يكون هناك ثلاثة رجال .. لا داعى لسؤال الريس متولى عن الغائبين .. دائما فى اجازات مرضية أو نقلوا الى أعمال أخرى بأمر الطبيب .. لا أحد هنا يرتدى الاجهزة والكمامات الواقية فهى غير متوفرة لأنها غالية الثمن وتأتى بالعملة الصعبة .

انحنى مع الملاحظ على الموتور .. ظلا يعملان فى فك وتركيب الموتور أكثر من ساعتين .. واشتغل الموتور .. ثم دارت الكسارة كالجحيم .. رفض أن يبتعد حتى يمكنه أن يرى الموتور أثناء عمل الكسارة .. دوامة الغبار الهادرة تهز الكسارة وتلف كل شىء وتحجب الرؤية فلا يكاد الشخص يرى أبعد من امتداد ذراعه .. لم يطق الوقوف أكثر من دقيقتين ...

***

فى مكتب الكيماويين الملحق بالعمل .. مازالوا يتحدثون عن النقل والهجرة .. مكرم استلم خطابا بموافقة ولاية نورث كارولينا لكنه ينتظر دوره .. زميلهم سمير الذى هاجر منذ شهرين له ثلاثة ارجل : كان سطح الزير الخارجى أخضر الى ولاية ماساشوستس أرسل لهم رسالة يتحدث

فيها عن الحياة المرفهة والأجر المرتفع والفتيات الأمريكيات ٠٠ سيتمكن بعد أسابيع قليلة من شراء سيارة جديدة ٠٠ وتمتد عين عبد المعطى بعيدا عبر النافذة ٠٠ هناك بجوار الكسارة عند جبل تراب خام الحديد الناعم ثلاث رجال يقتحمون الجبل بمساعدة بلدوزر يدفع التراب الدقيق نحو سير جلدى ليهبط فوق عربات القطار المخصص للتراب المتخلف عن عملية الكسارة وهو شحيح الجودة ٠٠ وكلما هجم البلدوزر على جانب الجبل ودفع بالخام الى القطار تثار زوبعة هائلة تلف المنطقة كلها بالضباب الاحمر ٠٠ والزملاء داخل المكتب ما زالوا يقتاتون الملل ويجترون حديث الرحيل والهجرة ٠٠

- ٢ -

ساعة الغروب ٠٠ استلقى على الكنبة يتأمل فى هدوء ٠٠ يريح عقله وأعصابه من دوامة القاهرة ومن أحزانه الدفينة ومن هدير الكسارة ٠

طالعته عيون الصغار فى منزل ابنة عمه ٠٠ مازالوا ينظرون اليه من داخل وجوههم الصغيرة الشاحبة بنظرات شيوخ حطمتهم التجارب ٠٠ كم فقدوا مرحهم وانطلاقهم ٠٠ شعر انهم يفهمون كل شىء ٠٠ يعرفون انهم لم يدفعوا الايجار منذ ستة أشهر ٠٠ وان والدهم بلا عمل منذ ثمانية أشهر ٠٠ صوت مديحة يرن فى أذنيه وهى تبكى بعد عودتها من المدرسة وتقول انها لن تذهب مرة أخرى لأن أصابع قدمها ظهرت من الحذاء القديم الذى تنتعله ٠٠



قالت الزوجة ـ سارح فى ايه ٠٠ مش حنخرج ٠٠ غادة عايزة تخرج ٠

شعر بضيق لحظة ٠٠ ثم وجد نفسه يرتاح لفكرة الخروج والجلوس بالكازينو على النيل ٠٠ لتلعب طفلتهما مع الاطفال ٠٠ ليفتح قلبه ٠٠ لزوجته كما كان يفعل من قبل ٠٠ كم يود الخروج من وحدته النفسية التى يشعر بها حتى وهو فى بيته ٠٠ حتى بين زملائه فى العمل ٠

فكر وهما فى الأوتوبيس ٠٠ ينبغى أن يفضى اليها بكل ما يعانيه ٠٠ هذه الهموم التى تؤرقه ٠٠ هذا الصدأ الذى تراكم على قلبه منذ سنوات ٠٠ كم يود أن تعينه على تحطيم القوقعة المتحجرة التى يعيشان داخلها ٠٠ كم قدم له عمه من قلبه ومن جيبه المحدود فى وقت الشدة ٠٠ ينبغى أن يصارحها بضرورة ارسال جزء ولو بسيط من راتبه كل شهر حتى يعود زوج ابنة عمه الى عمله ٠٠ المرتب لا يكفى حتى آخر الشهر ٠٠ التزامات البيت والأولاد كثيرة ٠٠ لكن يا عزيزتى المرتب كبير ولو انسقنا وراء كل احتياجاتنا ورغباتنا لن يكفينا أضعاف هذا المرتب ٠٠ فى مقدورنا الاستغناء عن كثير من الأشياء الصغيرة ٠٠ لم أحدثها عن أسرة صديقى الحبيب حسين الذى فقد فى الحرب ٠٠ عن انسانيته وشهامته وأولاده ٠٠ ينبغى أن نودهم وأن نحمل معنا اللعب والهدايا لهم ٠٠

قالت زوجته : ننزل المحطة الجاية نشوف الاوكازيون فى عمر أفندى وبعدين نروح الكازينو محتاجين حاجات كتير ٠٠

هاجمته لحظة صورة شوارع وسط القاهرة التى شاهدها أمس مع بداية الاوكازيون تهتز أرصفتها ومحلاتها بآلاف الكعوب النسائية ٠٠ مظاهرات هائلة من الوجوه المصقولة والأرداف المشدودة داخل الفساتين المحزقة والقصيرة والاذرع والسيقان العارية كلها متداخلة فى بعضها البعض ٠٠ محشورة فى محلات الصالون الاخضر وسيدتى الجميلة وأمام المحلات والفترينات نساء ربات بيوت وموظفات تركن مكاتبهن الى مولد الاوكازيون الكبير ٠٠ والرجال المحفلطون ٠ قال لزوجته ـ بلاش الاوكازيون ٠٠ نروح يوم تانى ٠٠

ـ تكون الحاجات الكويسة طارت ٠

ـ الزحام فظيع والبنت معانا ٠



ـ نتفرج يمكن نعرف نشترى ٠

رد بانفعال ـ نزلنا للفسحة مش للأوكازيون ٠

فى نادى التجديف جلسا على شاطىء النيل٠٠ غرق فى أفكاره بينما راحت هى تراقب الصغيرة تلعب مع الآطفال الآخرين ٠٠ كيف يبدأ حديثه الطويل معها الآن وهى بعيدة عنه تشعر بالضيق لعدم الذهاب الى الاوكازيون ٠٠

ـ البنت حتقع ـــ الحقها حتقع

لم يرد ٠٠

ـ البنت حتقع ٠٠ بتنط من السلالم تقلد العيال الكبار ٠

ـ سيبيها تلعب ٠٠ قالها دون نظر ناحية البنت ٠٠ استغرقا مرة أخرى فى الصمت ٠٠ لن يحترم نفسه بعد الآن اذا لم يرسل جزءا من مرتبه الى أسرة عمه كل شهر ٠

ـ البنت عايزة فساتين وعايزة جزمة وعايزة أجيب لها صوف تريكو ٠

ـ هيه ٠٠

ـ أنا كمان محتاجة شنطة جديدة ٠٠ بيقولوا فيه تشكيلة قماش حلوة قوى فى عمر أفندى ٠

***

راديو ترانزستور قريب منهم ٠

عشرين ألف قتيل ضحايا الزلازل فى ايران حتى الآن ٠٠

طرد الأهالى العرب من الضفة الغربية لنهر الأردن ٠٠

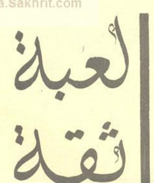
تدمير سبع منازل للسكان العرب بغزة ٠٠

ـ يسرية جابت امبارح بلوزة شيك قوى من الاوكازيون ٠٠ على فكرة اذا ما روحناش النهاردة ولا بكره مش حنلحق حاجة ٠

لم يرد ٠٠ ظل غارقا فى صمته ٠٠ سحب نفسا طويلا من سيجارته ٠٠ تناول فنجان القهوة الذى أمامه ٠٠ جرع جرعة كبيرة ٠٠٠ تكرمش وجهه وقد شعر بطعم القهوة يقبض حلقه ٠٠ وحتى آخر الليل لم يستطع حلقه أن يتخلص من مرارة القهوة ٠



طه حواس



كان يقف أمام الباب الكبير فى المكان المحدد للقاء · عيناه تتفحصان وجوه القادمين · أنه لا يملك الآن غير الانتظار ·

ـ لماذا سلمته المستندات ؟ التعليمات صريحة · أنا المسئول عنها شخصيا ·· أنا لا أعرفه لم أره فى حياتى قبل أمس كان ساعتها يبتسم · كان وجهه يوحى بالثقة لذلك فقد أعطيته المستندات ولم آخذ منه ايصالا بها · هل يريد بى شرا ؟ ·· ولكن لماذا ؟ لا ·· لايبدو عليه أنه من هؤلاء الناس ··

شفتان غليظتان تثرثران · ترتعش بينهما سيجارة مضطربة ، وقبضة كف بيضاء ضخمة تنهال على المكتب فى ضربات قوية ··

ـ لم استلم منك مستندات يا أستاذ ··

وأحس بدوار من انهالت على رأسه ضربات مفاجئة · وقال وقد اتسعت حدقتا عينيه فى فزع ·· كمن فوجىء بوجود حيوان شرس أمامه·

ـ تقول أنك لم تستلم المستندات ؟

وصرخت الشفتان تؤكدان ··

ـ نعم لم استلم منك مستندات ·
ـ وهذا التوقيع ماذا تقول فيه ؟
وتحركت الشفتان فى سخرية ··
ـ توقيع ·· هذا ليس توقيعى ··
ـ كيف تقول هذا وقد وقعت أمامى ؟
ونفث دخان السيجارة الى أعلى وقال فى لا مبالاة ·
ـ اثبت ان هذا توقيعى ·
ـ أثبت ؟
ـ نعم ··
ـ ولكن الجلسة بعد ساعة ولابد من تقديم المستندات ·

ـ لم أستلم منك مستندات ·

ـ وتوقيعك ؟

ـ لم أوقع ·

ـ والجلسة ؟

ـ لاشأن لى بها يا ابراهيم افندى ·

وهز رأسه نافيا ··

ـ هذا لا يمكن أن يحـــدث معى · ابراهيم افندى لم يختر الشخص المناسب · لماذا تأخر صاحبنا · أيمكن أن يكون قد أصـــابه شيء ·· أم أنه تعمد عدم الحضور ؟ ·· لا يمكن أن أقع فيما وقع فيه ابراهيم افندى · انه ســيأتى فى الميعاد · أنا الذى أتيت مبـكرا ·· لولا ما حدث لابراهيم افندى لما أصابنى هذا الاضــطراب ·· انها مستندات خطيرة ما كان يجب أن أســلمها اليه فأنا المسئول عنها · ازدادت دقات قلبه · ضاق صدره · أحس العرق يبلل جسمه · نظر الى ساعته والى الطريق · الضباب يخفى معـالم الاشياء · الاشخاص على البعد يشبهونه ، وعندما يقتربون ويخرجون من الضباب تتضح ملامحهم · لماذا لم يحضر · لقد مضى الوقت · ســينكشف أمرى ·

أصاب الوهن ساقيه · الارض تميد به · أحس بدوار فى رأسه · الضـــباب يملاء المكان · فتح عينيه الذابلتين على صوت يأتيه من أعلى ··

ـ أنت مذنب ·

وتلفت يمينا ويسارا على الصـدى التى ترده جدران ملساء عاليه ··

ـ أنت مذنب ·· أنت مذنب ··

وانصرف الناس من القاعة يتهامسون ··

ـ انه لم يتعلم من ابراهيم افندى ··

ـ يقول انه وثق فى الرجل ·

ـ انه يعيش فى عالم آخر ·

ـ لقد أهمل فى واجبه ·

قذفه الحارس الى قاع حجرة ضيقة مظلمـــة · أغلق البـــاب خلفه فى عنف · اهتزت جدران الحجرة · وأخذت أصوات أقدام الحارس تتلاشى فى الممر الطويل · اصبح وحيدا خلف الجدران العالية · تحسس رقبته فى الظلام · آلمته تحت أصابعه الرفيعة · كانت قبضة الحارس خشـــنة شديدة · أحس ببرودة أرض الحجرة ··

كرر صراف التذاكر النداء ·

ـ يا أستاذ ·· من فضلك يا أستاذ ··

نظر اليه وهز رأسه فى شرود ·

ـ تذاكر ··

ـ معى اشتراك ··

وامتدت يد الصراف تسأل ··

ـ أين هو ؟

ـ ارتبك وهو يمد يده الى جيبه · دهمه شعور غريب · توهم انه لن يجد الاشتراك فى جيبه · ربما يكون قد سرق · وتحركت أصابعه فى جيبه تتحس الاشتراك · والتقت عيناه بعينى الصراف·

ـ لماذا لا يصدقنى ؟ لقد رآه معى أكثر من مرة لا يســـتطيع الانسان أن يفسر ســـلوك هؤلاء الناس ·

أحست أصـــابعه ملمس الاشتراك · هدأت أعصابه · نظر الى الصراف فى ســخرية وحقد بينما التفت الصراف الى الخلف يردد ·

ـ تذاكر · اشتراك ·

ـ هل انعدمت الثقة بين النـــاس ؟ وما فائدة المستندات له ؟ لا يمكن أن يطلع عليها أحد فكلها مغلقة ·· انه سيأتى غدا فى الميعاد · لولا سؤال الاستاذ بسيونى ·

ـ لماذا أعطيته المستندات ؟ انهـــا مسئوليتك شخصيا ·

لولا هذا السؤال لما كانت هناك مشكلة · وعلى كل سأصحو مبكرا · وهل ســـــأستطيع النوم الليلة ؟ ماذا كنت سأفعل لو أتت نرجس اليوم من البلد مع الأولاد ؟ الحمد لله · ان شاء الله ستمر على خير · هل لو رأيته أستطيع التعرف عليه ؟ ان صورته ليست واضحة فى ذهنى · بدا له من خلال الضباب شخص يتقدم فى سرعة ·

ـ لابد أنه هو ·

ودقق النظر بعينين ملهوفتين · اقترب الرجل خرج من الضباب · اعتصر الهم قلبه وســــأل نفسه :

ـ وما العمل ؟ هل أستطيع الهرب ؟ الى أين؟

نظر الى ســـاعته · لقد مر الوقت · لماذا لم يحضر حتى الآن ؟ لقد بدأ الاجتماع وسيسألون عنى · عن المستندات · ماذا سأقول لهم ؟

وأقبلت ســيارة أجرة · اقتربت من المكان · أبطأت فى سيرها · وقفت ·

ـ لا بد أنه هو ··

اقترب من السيارة · خاب أمله وسأل نفسه :

ـ لماذا أنا مضطرب ؟ يجب أن أناقش الموقف فى هدوء · هل رتكبت جريمة ؟ كل ما فعلته هو أنى وثقت به · فهل هذه جريمة ؟

شعر بدوار وتعبت ساقاه ·

ـ هل أسأل أحدا من الزملاء عن عنـــوانه ؟



لا ٠ لا ٠ سأكشف نفسى بهذه الطريقة ٠٠ ولكنهم سيعرفون فى النهاية ٠ انه انسان طيب٠ أنا أعرف ذلك ٠ لابد أنه تأخر لسبب ما ٠ أرجو أن لا يصيبه مكروه ٠ انه محل ثقة ٠ ولابد أن يكون لنا بين الناس من نثق به ٠ اذا أصابه مكروه فسيرسل المستندات ٠ انه يعرف مكان الاجتماع أنا متأكد من هذا ٠ سيرسلها فعلا ٠ فلا موجب لهذا الاضطراب والخوف ٠ انه سيحضر فى اللحظة الحاسمة ٠ وسأندم على هذه الساعات التى مضت فى هذا الاضطراب والقلق ٠ هذا الصداع يحتاج الى بعض الحبوب ٠

خطا وعيناه على الطريق الى الناحية المقابلة ٠ دخل الصيدلية وهو يلتفت الى الخلف ٠ ما زال الضباب يملأ الشارع ٠ أعطاه الصيدلى الحبات التى طلبها ٠ تناول حبة وثانية وطمأن نفسه بزوال الصداع ٠ نظر الى الشارع والى الباب الكبير ٠

لم يبق الا دقيقة واحدة على الميعاد ٠ لقد رأونى أقف أمام الباب ٠ سيرسلون من يبحث عنى ٠ لماذا لم يحضر ؟ انه يعلم أن حياتى فى خطر ٠ ولن أستطيع الهرب ٠

احتك به رجل ضخم وهو يخرج من الصيدلية لاحظ حركاته المضطربة ٠ خطا خطوتين عبر الشارع ٠ نظر الى الخلف ٠ مازال الرجل الضخم ينظر اليه ٠ وصل الى الناحية الاخرى ٠ وقف أمام الباب الكبير ٠ أخرج منديله من جيبه يجفف جبينه ٠٠ اقترب منه رجل طويل بيده عصا خيزران قصيرة ٠ حياه ٠ رد التحية فى لهفة ٠ نظر فى ساعته ٠

ــ ماذا يريد هذا الرجل ؟ لابد أنهم هم الذين أرسلوه ٠ الرجل الضخم يقف أمام الصيدلية ٠ فاتت فرصة الهرب ٠ لابد أن أمرى قد انكشف

خرجت من الضباب عربة سوداء ٠ اقتربت من الباب الكبير ٠ وقفت ٠ ظهر الرجل الضخم والآخر صاحب العصا القصيرة ٠ وقف الاثنان أمام باب العربة ٠ فتحاه فى بطء ٠ أشارا اليه بالركوب ٠ تردد ٠ جذباه الى الداخل وأجلساه بينهما ٠ انطلقت بهم العربة ٠ خرجت من المدينة سارت فى طريق طويل مترب عبر صحراء واسعة صاح فى رعب :

ــ ماذا تريدون منى ؟ انه سيأتى ٠ أنا متأكد من هذا ٠ ان ما تفعلونه الآن ظلم ٠٠ ظلم لى ولكم وللانسانية ٠ الرجل سيأتى بالمستندات ٠ عودوا بى الى المكان الذى أتينا منه ٠

انه سيقابلنى هناك ٠ أرجوكم أن تعودوا بى الى حيث كنت ٠

كان الرجلان ينظران اليه فى صمت ٠ اختفت جميع ملامح التعبير من وجهيهما ٠ نظر الى الامام الى السائق ٠ أراد أن يصيح :

ــ الى أين ؟

عقدت الدهشة لسانه ٠

ــ انه هو ٠٠

وصاح به فى فرح :

ــ هل أحضرت المستندات ؟ كنت أعرف أنك ستأتى فى النهاية ٠ هذا ما كنت أقوله دائما ٠ ولكن الى أين ؟ لقد بدأ الاجتماع وسيبحثون عنا٠ والتفت الى الرجلين :

ــ لماذا لم تخبراه بمكان الاجتماع ؟

نظر اليه الرجلان فى صمت ٠ العربة تثير خلفها سحبا كثيفة من الغبار ٠ اختفت الشمس خلف جبل ضخم ٠ أظلم المكان ٠ صاح الرجل فى رعب :

ــ الى أين ؟

العربة تنطلق مسرعة خلال الظلام ٠ والسائق لا يرى الطريق ٠ وصاح الرجل بالسائق :

ــ لماذا لاتوقد نور العربة ؟ سنصطدم بالجبل وستنتهى حياتنا ٠

زادت سرعة السيارة ٠ التفت الى اليمين واليسار ٠ الرجلان صامتان لا يحسان به ٠ كأنهما جزء من العربة ٠ مال بجسمه الى الامام ٠ مد يده اليمنى فى تردد ٠ امسك كتف السائق أحست يده بجسم صلب تحت الملابس ٠ ملأه الرعب ٠ تجمد جسمه ٠

ــ انه انسان آلى ٠

واستمرت العربة فى اندفاعها وسط الظلام

كأنها تسير فى نفق تحت الأرض لانهـــاية له • أغمض عينيه واستسلم للنهاية •

أتته اصوات أقدام الحارس خافتـــة فى الممر الطويل • أخذت ترتفع كلما اقترب منه • أزواج كثيرة من العيـــون بطل على الحارس من خلف الأبواب • وقف أمام حجرته • نزع القفل • فتح الباب • نظر اليه السجين من أســـفل • بدا له طويلا ضخما كالعملاق • قال له :

ــ ماذا تريد منى بعـــد ذلك • هل ظهـرت المستندات ؟

انحنى الحارس • مد يده الى قفاه • أوقفه ••

ــ انها زيارة ايها الشقى •

وقال السجين فى دهشة :

ــ زيارة ••

ــ نعم •• زيارة •

وأخرجه من الحجرة • دفعه الى ممر طويل مظلم فى نهايته باب كبير • أصوات عاصـفة تهب فى الخارج • الرياح تعبث بالباب ، فينفتح وينغلق فى عنف • سار السجين تجاه الباب على ضـــوء البرق • خرج من الباب • المكان فسيح منبسط أرضه سوداء ملساء • بهـــا آشـــجار كثيرة • أغصانها كأعواد الحديد • أحس ببرودة شديدة •

ــ **أين الزائر ؟**

وفى ضوء البرق • وقعت عينـــــاه على امرأة تلتف فى ملاءة سوداء • تجلس على صخرة تحت احدى الأشجار • نظراتها مشدودة الى أسفل • عند قدميها يجلس طفلان ملابسهما بالية بللها المطر • أمسك كل منهما بالآخر • فى نظراتهمـــا رعب وخوف •

ــ من تكون هذه المرأة ؟ أنا لا أعرفهـــا • قد تكون زوجة الرجل الذى أخذ المستندات •

اقترب منها :

هل أحضرت المستندات ؟

نظرت اليه فى صمت • التقت عيناه بعينيها• نزعت الرياح الملاءة من حول جسمها • صـــاح السجين :

ــ نرجس •

صاح الطفلان • ظهر حارســـان خلف المرأة • صمت الطفلان وصاح السجين كالمجنون باكيا :

ــ لا يمكن • انها امرأة أخرى تشبهها • انهـــا ليست زوجتى • والولدان ماذنبهما ؟ لماذا ؟ لماذا؟ سيأتى الرجل ، وسيندمون • وعنـــدما أبرقت السماء كان مكان المرأة على الصخرة خاليـــا • اختفت مع الولدين • وصاح به الحارس :

ــ انتهت الزيارة •

ودفعه فى الممر الى حجرته • أغلق الباب خلفه فى عنف •

اصطدمت العربة بالجبـــل • لم تصب بأذى • نزل الرجلان • أخذا السجين بين أيديهما • غادر السائق العربة • نظر اليه السجين :

ــ انه الرجل الذى وثقت به • ماذا يريد أن يفعل ؟

ردد الجبل صوت ناى أتى من جوف الصحراء • أشار السائق بيده تجاه مصدر الصوت • التفت السجين الى حيث أشار• شىء ما يندفع اليهم فوق الرمال يتلوى كثعبـــان ضخم • تحلق أمامهم فى دوائر كثيرة • ثم أخذ يرتفع الى أعلى فى سرعة رهيبة • اختفى طرفه فى جوف السماء • الطرف الآخر مازال بينهم فوق الرمال • وأشار السائق الى السجين :

ــ اصعد •

وتردد السجين •

ــ ولكن كيف ؟

وقال السائق فى هدوء :

ــ فقط •• امسك الحبل •

وتقدم السجين خائفا •أمسك الحبل من نهايته ارتفع به ••

ــ لعله طريق الى الهرب •

تعلق الرجل بين الســـماء والارض • اختفى السائق والرجلان • توقف الحبل عن الصعود • تعبت ذراعا السجين • لا يستطيع رفع قدميه الى الحبل • طرف الحبل كالصـــخر الخشن • امتلأت السماء بطيـــور غريبة لها أصـــوات الوحوش المفترسة • حبال كثيرة تتدلى من الســـماء كغابة كثيفة فى نهاياتها رجال معلقـــون تحوم حولهم الطيور المتوحشة • سأل السجين نفسه :

ــ من أين أتى هؤلاء الناس ؟ هل هم أيضـــا وثقوا بنفس الرجل ؟

صاحت الطيور بأصوات مخيفة ملأت السماء رعبا • اهتزت الحبال فى ايدى الرجال • سقطوا على الرمال • وانقضت عليهم الطيـــور الجارحة تعمل فيهم بمخالبها ••

وسقط على الرصيف أمام البـــاب الكبير • التف حوله الناس • أسعفه صاحب الصيدلية ، فتح عينيه فى بطء •• قال له الصيدلى :

ــ حمدا لله على سلامتك •

ودقق النظر فى الصيدلى • كان فى عينيه شىء غريب أصاب الصيدلى بالخوف :

ــ انه ســـيعود • اليس كذلك ؟ ســـيأتى بالمستندات •

نظر الصيدلى الى الناس المتجمعين حوله :

ــ هل يعرفه أحد منكم ؟

وهز الناس رؤسهم بالنفى • وقف الســـجين ينظر اليهم فى شرود • ثم سار بخطوات بطيئـــة متعبة • خرج الى الشارع يقول للناس :

ــ انه سيأتى • أنا واثق من ذلك •

عبد الحكيم قاسم

تحت السقوف الساخنة

● **ياسادتى**

ليست الاشياء هـكذا دائما ، ومقاييسكم ليست مطلقة ، وقد تنبثق زهرة خارقة البهاء من كومة العفن ، وقد تسبح نباتات الماء حاملة زهرات بيضاء كالملائكة على سطح بركة من الماء الراكد ، ومرات كثيرة وقفت بازاء هذا الجمال مسحوقا يعصر الحزن قلبى .

حقا نحن نملك شوارع تكتسح المسافة ، وسدودا تلزم الانهار شطآنها فى خجل ، وموسيقى تكور الحـزن في القلب ... لكن ، تأملوا ، حياتنا هـذه كانت فى البدء أكداسا من الهلام عائمة فى مستنقعات شاسعة ... أى طاقة هائلة تحتويها الحفر المبلولة والزوايا المعتمة .

من هنا أكتب لكم ، الحارات تنحدر نابتة من الشارع الكبير كالشرايين على ظهر ورقة الشجرة ، والبيوت رابضة على بطونها متزاحمة متراكمة وسـط أكداس القمامة ، البيوت كلها جديدة ، نعم ، فقد بنيت حـديثا بالطوب الاحمر ولهـا سقوف من الاسمنت المسلح ، وهى بيوت بسيطة البناء ، بل انها رهيبة البناء ، فسقوفها الاسمنتية الواطئة تتحول فى رقدة الظهيرة الى ألواح من نار كعرصات الافران ، قريبة من رؤوس الناس ، ويخيل الى أن قشرة المخ ربما يصيبها بعض التلف من تسلط هـذه الحرارة عليها ، بل ربما ! اختلط عمل المراكز المخية ... ربما .. لست أدرى ، فلست متخصصا .

والناس فى الشبابيك كمقل مريضة حائرة فى نقـر المحاجر ، والنـاس أمام أبواب البيوت شاحبون مبقعو الوجوه ، يضحكون أو يبكون بعصبية وزعيق عال ، وهم اذ يتعاركون يخمشون ويجرحون بقسوة غريبة ، والدماء تسيل من الجروح أكثر قتامة ، كل شىء هنا أكثر قتـامة و أقل استضاءة ، العتمة ساجية ، خافتة .

لكن الشىء الذى يلفت النظر اكثر هو تلك الكميات الهائلة من القمامة ، طول النهار يطوحون من الشـبابيك بالبقايا ، فهم طول النهار يرسلون العيـال الى الدكاكين بالقروش يأتونهم باللفائف الصغيرة ، معدة لها مليون فم ، ومليون فتحة شرج ، وكانك تسمع هزيم التمطق ، وكانك تسمع دبيب الحياة الجبارة التى احتوتها أكداس الهـلام العائمة فى المستنقعات الشاسعة في الزمن القديم .

وحينما رأيت كوثر قبض الحزن على قلبى .. ياالهى .. كم نحن قساة ، وكم من العمر راح ، لو كانت لنا أيد تطول النجوم ، أو تخط أكثر الكلمات عذوبة ، لو كانت الدموع تهطل هكذا تغسل كآبة القلب .

من أجلك ياكوثر أكتب ، من أجل جمال عينيك ، من أجل جمال غديرتيك ورقة أناملك .

● **السوط الفولاذى**

احدى عينيه ثقل جفنها حتى انسدل وظلت مغمضة، لا أحد يدرى متى بدأ هذا ، ولا هو نفسه ، ربما مـرة غمضت هذه العين فكسل عن فتحها وتركها هكذا ، قال فى نفسه .. الاخرى كفاية ، يشتغل فى مصنع ياسين ، ثمة لابلزم التحديق ، ينقل الاشياء الثقال من مكان الى آخر، لماذا تفتح عينيك وانت تفعل هذا .. ؟ أحسن أن تغلقهما وخاصة اذا كان حملك ثقيلا ، عين واحدة تكفى .

ياله من حذاء غليظ متهرىء ، مشى يسحق الطريق المفروش بالقامة ، حذاء قديم ، عملاق قديم يندفع فى مشيته يدب عائدا الى بيته . طول عمره يعود الى بيته فى هـذه الساعة تعبا ، طول عمره ، ياله من عمر ، اشتغل زارعا وهو صغير ، الامر لايختلف كثيرا ، تروح الى الشغل باكرا وتعود فى المساء تعبا ، اشتغل أشياء كثيرة أخرى ، مرة كان مبيضا للنحاس ، ابتسم ، ياله من عمر ، ليس له شهادة ميلاد ، لايدرى أحد متى ولد ، ولا هو نفسه ، لم يشـغل نفسه بهذا ، منذ آماد طويلة وهو يدب بحذاء غليظ متهرىء على طريق متسخ بالبقايا ، من أبوه .. ؟ من أمـه .. ؟ كيف كانت دارهم وهو طفل .. ؟ لايذكر الآن ، كل ذهنـه



رجال شعث الشوارب ، ونساء كالبقر العجوز جاؤا من كل القرى ، وهنا ، مقصية عن المدينة تقبع دور متزاحمة متراكمة .. ثم الرجوع فى المساء موثق العاتق بالعناء .

لكنه الآن يحس بغربة حقيقية ، لقد كثر اللغط هذه الايام ، يتكلمون كثيرا هؤلاءالناس ، هؤلاء النحيلو المعاصم، ولقد اخترعوا آلات تجعل الاصوات رهيبة نافذة ،لاتستطيع أن تغلق دونها الشبابيك ، في كل نافذة دكان ، على كل حائط أو سطح منزل راديو أو ميكروفون ، والناس فرائس هذه الضجة الرهيبة ، يستخرجونهم من قيعان الغرف كديدان الارض ، يؤذنون ويخطبون ويعلنون عن البضاعة ، يدعونك للصلاة ويعظونك ، يلقون عليك البيانات وينهون اليك آخر الاخبار ، أين تهرب ، يتحدب جسده العملاق من الحذر ، أعضاء اللجان ذوو الاسنان اللامعة واللثى الزرقاء ، هؤلاء الذين يملكون بطاقات يضعونها فى جيوب قمصانهم الشفيفة .

ثم انطلقت فرقعات السوط ، كطلقات الرصاص ، بقسوة غريبة ، باصرار ووحشية ، والرجل يزداد تحدبا ومذلة حتى يغمض عينه الاخرى فى استكانة ، والسوط طائر فى الهواء يتلوى ، أفعوان من فقارات فولاذية تدوى فرقعاته بلا تردد ، وتظل تدوى حتى يعوى الرجل مهيضا .

● السماح يا عمى

عندئذ ألقى المجذوب بالسوط الفولاذى على ظهره ، حلقات من الصلب تبدأ فى حجم القبضة ثم تصغر وتستدق حتى تصير عند الطرف قدر حبة الشعير ، السوط منسدل على قامة المجذوب حتى الارض ، وهو يضحك ضحكات بلهاء ، طاقية من صوف الغنم الاحمر ، والجلباب متسخ على كتفيه بالتراب والعرق ، ابتسامته تلمع فى ضوء المصباح الشاحب ، ابتسامة مجنونة بالتشفى مد يده فتناولها الرجل وقبلها خاضعا ومضى .

مضى يدب بحذائه المتهرىء ، ذليل تسح الدموع فى داخله ، وتذكر ابنته الجميلة ، آخر أولاده المعلولين ، ليته اشترى لها شيئا طيبا ، حتى الدموع التى تسح فى داخله لها ملوحتها .

● اللص

الناس أمم مغسولو الثياب قريرو الوجوه بالمذلة يدبون على الحصباء والقمامة نحو المسجد ، والميكروفون يدوى بكلمات خارقة كفرقعات سوط المجذوب ، والناس كأنما على رؤوسهم الطير ، وحينما انتهت الصلاة وتلفتوا بحثا عن نعالهم صاح صوت خائر ملسوع .

ـ الفاتحة يارجالة على اللى سرق الراديو بتاعى .. ربنا يحرق قلبه زى ماحرق قلبى ..

وازت الفاتحة فى قلوب المصلين ، وتطايرت الشتائم واللعنات ، فهؤلاء الناس لايخشون شيئا مثلما يخشون اللصوص والنساء ذوات الصدور والارداف والعيون الجسورة .

أما هو فان له دكان بقالة صغير ، وهو يقضى النهار مستندا بمرفقيه على البنك الموضوع فى فتحة الباب والعيال الزحاف الشاحبو الوجوه ، والنسوة والبنات ذاهبون آيبون من دكانه فى مسارب كمسارب النمل .

لم يسمعه أحد أبدايتكلم ، له عينان خارقتان وشارب كث ، وحينما تلقى يد نحيفة قرشا يرن على البنك ،فانه ينظر الى الوجه الطفلى الخائف ببلادة وصرامة ، ثم يتناول القرش ويلقى به فى الدرج ، ويدور حول نفسه فى دكانه الصغير ، ثم يأتى بالمطلوب ، ويطرحه على البنك فى سكون.

لكن مسارب النمل الناشبة فى الارض المحملة باكوام



القمامة ، هذه المسارب لاتنضب أبدا ، ذاهبة الى دكانه أو آيبة منه تحمل المشتروات الصغيرة فى الايدى وترتجف بالهمس كاسلاك التليفون ، وفي الغرف الساخنةالسقوف يتكلمون بصوت أكثر ارتفاعا لكنه خافت أيضـــا ومرتجف أيضا .

ـ شفتى اللى كان واقف معاه .. ؟

ـ الواد أبو قميص أحمر

ـ أيوه .. كانو بيكلموا .. وبيبصوا الناحية دى

ـ ياحوستى لاتكون عيتهم على شقتنا

ـ انتى حيلتك ايه

ـ الحلة النحاس الكبيرة

ويصمتون ، ويستطيل الصمت المتوتر ، ثم فجاةينفجر صراخ ملتاع فى ناحية من نواح الحى ، وينهمر الناس على مصدر الصوت ، وهناك يتكدسون جمهورا زاعقا صـــاخبا حاقدا ، وفى بؤرة الجمع تقبض سواعد قوية على شـــاب نحيل زائغ العينين يحمل متاعا مسروقا ، يرغـم عـلى أن يحمله على رأسه كشاهد لايكذب على ارتكابه الجريمة ، وتنهال عليه اللكمات والصفعات ترضه وتلهب وجهه وتطير الشرر من عينيه ، ويطـير المجـذوب سوطه فى نشـــوة ، والفرقعات كطلقات مدوية .

والزفة تسير بالولد الى المخفر ، ويعود الذين قبضوا عليه وسلموه ، ينتشرون فى الشوارع بين البيوت ، يكونون نويات صخابة ، يحكون ويحكون بفرحة غريبة ، وحولهم تتحلق حلقات الناس ، العيال والبنات والنسوة والعجائز ، بارقى العيون بالفرحة والدهشة والخوف .

لكن الناس ـ أيا ماكان الامر ـ لايكفون عن الاحتياج الى قطعة صابون أو الى مائمنه قرش من الجبن الابيض أو الى ملء صحن من العسل الاسود ، لاتكف مساربالناس الناشبة فى الارض المغطاة بالقمامة عن الدبيب ذاهبة الى الدكان أو آيبة منه بعناد ، مرتجفة بالهمس كأســلاك التليفون ، وهو لايغـير من متكئه على البنك ، ونظـراته الصارمة لايشوبها اهتزاز وشاربه الكث راقد تحت أنفه فى شموخ ، وهو يدور حول نفسه فى الدكان الصغير ويأتى بالمطلوب فى برود ، ثم يعود الى وضعه مستندا بمرفقيه على رخامة البنك .

وذات أمسـية ـ غريبـة فى الاماسى ـ وقفت ناقلة الجنود فى الشارع الكبير ، وتدفق منها المخبرون والعساكر وركضوا فى الحارة الضيقة ، وانقضوا على الدكان ،مزقوا كل شىء اربا ، كسروا كل اناء أو لوح زجـاج ، صرخـوا وزعقوا ولكزوا بلا حساب ، نشروا رعبا فريدا فى دائـرة شاسعة ، ولم يكن ثمة من يصرخ سوى امرأة واحدة ،ذات صدر وأرداف وعيون جسورة .

والناس فى الشبابيك كمقل حائرة فى محاجر العيون ، أو هم مزروعون فى الأرض دوائر دوائر ينظرون الاجتيـاح بلا حراك ، وهو بين أيديهمكخرقة ، عجنوه عجنا ،والناس ترى الشارب يتهدل ذليلا والعيون تنكسر صرامتها ، حتى مضوا به مدمدمين ، وقفزوا من كل ناحية على الناقلة ، وزمجرت هذه زمجرة هائلة وانطلقت كاعصار من حديد.

أغلق باب الدكان ، وضع عنـــد اجتماع المصراعين شريط صغير من القماش وختم بالشمع الاحمر ، النـــاس يمرون من الحارة محاذرين ، وينظرون بخوف الى الشريط من القماش ، والقطعة الحمراء المستديرة من الشمع ،لقد قبض على اللص واغلق الدكان ... لكنه ترك فراغا ،ترك فراغا حقيقيا ، وفي تضام المصراعين باحـكام معنى العمى والهمود .

دركه في العجوزة ، والشوارع هناك هادئة ، والعمائر شاهقة ، وحينما يطير الهواء ستائر الشبابيك الهفهافة تبدو أضواء متلألئة تسقط على أشياء صنعت كلها من الكريستال والمخمل .

وهناك يسود سكون غريب ، يتدفق في أوردته وشرايينه طراد جنسي عنيف ، وهو يقف في ركن معتم ، يتلفت وقلبه يخفق بعنف ، والعربات تمرق مارة به بلا صوت ، لا هدير للمحرك ولا دخان أسود كثيف يأتي من الذنب ، تمرق العربات لينة على الارض كالافاعي ، وفي داخلها ناس ، ذكور وانات ، ضحكات ناعمة الجرس وأخرى خشنة ، وربما صرخات صغيرة ولهاث ، وهو في ركنه المعتم يتحسس غدارته الباردة ، ومايكاد يشيع عربة حتى تسقط أنظاره على أخرى .

ووقع الخطى هناك غريب ، محاذر يحاول أن يتكاتم خفق النعال على الاسفلت ، والاشباح تمرق ، تقع في دوائر الضوء ثم تندفع الى عتامة الاركان ، رجال يلاحقون النساء ، أو نساء يقتدن الرجال بمقاود غير مرئية ويجررن لاهثات مرتجفات الخصل ، وهو في الركن يرقب مبهورا ، وتتصور كل خلية في جسده حنينا ، يتسمع ، من اى اتجاه ستاتي الصرخة التالية ، صرخة لها لون خاص ، جرس خاص وطعم خاص ، ليست مذعورة مستغيثة ، بل طاغية ساخطة مغناجة ... ويمشي خفيف الخطى ـ هو الآخر ـ يتجنب دوائر الضوء ويوغل في الزوايا المعتمة ، وهناك يجد المتشاجرين ، ينظر لهما مبتسما في ود ، مايكاد حتى يفران معا ، الشجار هنا يبدأ ويذوب كفقاعات الماء ، أو يطول الخلاف قليلا ، وتصيح بعصبية وتدلل «ياشاويش» وهو يتحسس بعيونه الخدود والشفاه وقمم الاثداء تنحسر عنها أطواق الثياب ... ثم فجأة تولد عربة ، أجرة أو خاصة ، ويدلفان الى داخلها ، ويغزه في باطن كفه أظفر طويل ، ويجد في يده خمسين قرشا ، ورقة لها رائحة خاصة ، يقبض عليها بشدة .

وفي ذلك المساء حينما استدبر الشارع الكبير ملقيا بنفسه في عتامة الحارة انقض عليه الحزن من كل ركن حتى كاد يبكي ، ضلوعه تئن حنينا للوضاءة ، الكريستال والمخمل ، دوائر الضوء والعتامة ، ذلك العبير ، الصرخات والضحكات ، الوسوسات في الأركان .. لكنه مشى في الحارة يخوض القمامة والروائح النتنة تخنقه .

وفي ذلك المساء كان وجهها شاحبا ـ زوجة الجار التي تخدمه ـ وجهها الليلة أكثر شحوبا ، تنظر اليه وتطرف بوجل ، ربما في وجهه شيء يخيفها ، واقفة أمامه مرتبكة .

ـ الأكل آهه

ثدياها نافران من طوق الثوب ، أبيضان ناصعان بطريقة خاصة ، لا تمت الى هذا المكان ، قلبه ينتفض في صدره .

انحنت ، زحفت على أربع ، يا له من وضع ، سقط على ركبتيه بجوارها ، وضع يده في خصرها ، هبت واقفة، هب واقفا هو الآخر ، عيناها مرعوبتان ، أرادت أن تفر ، أمسك بها ، أرادت أن تصرخ ، أغلق فمها ببسطة كفه ، وحينما احتوى طراوة جسدها في يديه اكتسحته رغبة عارمة في السحق ، ابتسم وهو يضغط بابهاميه على قصبتها الهوائية حتى انهارت متكومة على الحصير المفروش على الأرض .

من مرقده على السرير رآها متمددة على الحصير ، الثوب منحسر عن فخذها ، مكتنزة ، لكن وجهها غريب في عتامة الغرفة ، .. وأصول الجدران نخرتها الرطوبة ، وثمة خنفساء تدب متمهلة ، بشعة المنظر ، بدأت القشعريرة تزحف عليه ، أين يخفي جثتها .. أين ؟

السقوف ساخنة قريبة من رؤوس الناس تخلط خيالهم بالبشاعة ، بدأوا يتساءلون عن سر غيابها ، اين هي .. أين .. ؟ ومن شباك غرفة العسكري طار رباط رأسها الأحمر وطار ، حلق عاليا ثم حط في منور البيت ، أزواج العيون في الشبابيك خائفة .

وحينما قبضوا عليه بكى ودلهم على المكان الذي دفنها فيها .

● أحدهم

كان يأتي الى بيتهم كل يوم ، ويجلس على الكنبة الموضوعة في مواجهة السرير في الغرفة الوحيدة ، وكان يمدد ساقيه على آخرهما ويلقي برأسه الى الوراء حتى يستند على الحائط ، بنطلونه حسن الكي وقميصه ناصع شفيف ، ومن الجيب يبدو مستطيل البطاقة .

حينما يتكلم يكون جادا وحاقدا رهيبا ، ويكشر جلد وجهه الأخضر عن أسنان ناصعة ، يبدو أنه يدعكها بالكربوناته كل يوم ، والرجل يتأمله في سكون يتكوم على أقصى الكنبة ، عملاق له عين مغمضة والأخرى تطرف بحذر .

وحينما يتكلم ترتجف أهداب كوثر السمراء الطويلة، وأحيانا يستاثر بها القلق فتمسك طرف غديرتها السوداء الكثيفة بأناملها الوردية الرقيقة من على صدرها لتلقي بها وراء ظهرها .. لكنه أحيانا يبتسم ، حينئذ تبدو لثته الزرقاء ، ويشرق وجه كوثر حينما يطالب منها أن تأتيه بقلة الماء ، تقوم خجلى ، وتقف أمامه حاملة القلة وعيونها السوداء رائقة بالسرور ، ويمد يده ، بأصابع طويلة تلتف حول أنامل كوثر الممسكة بالقلة ، ويثبت نظراته في عيونها ، تغض وتحسب أناملها من تحت أصابعه وقلبها يرتجف في صدرها كالعصفور .. دائخة خائفة .

يأتي الى بيتهم كل يوم ، تجلس على الحصير مع جمع

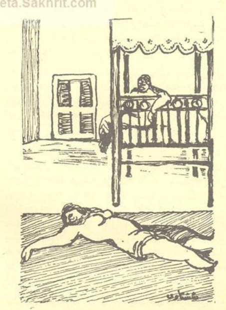
أخواتها ، مستندة على الأرض بكفها ، ساقاها مطويتـــان متحاضنتان رائقتان كالعســل ، مرسومتان باعتناء ، وجهها ونهداها مشوقان ، مرتفعان نحو خليل ، دائخة من كلماته تخيفها ، تحيرها ، تفز حلمات أعصابها نكته الجنسيــة العــارية ، وأبوها على طرف الكنبة مستخذ مداهن يطرف بعين واحدة .

وساعتها كانت الغرفة خالية ، وكانت واقفــة أمام الوابور تصنع الشاى ، والماء فى الابريق يئز ، أتى ، لف ساعديه حــول خصرها الرقيق ، التفت بكتفيهــا الدقيقتين فى رحبة صدره ، وأزاحت كل هواجسها ، ثم استدارت له ونامت على صدره ، ونهداها حران طريان ينامان على عظام قفصه الصدرى ، ضمها اليه بشــدة ثم مشى بهــا وئيدا نحو السرير ، كانت فرحة ، أهدابها طويلة محبة .

ــ .. تتجوزنى .. ؟

حينئذ عبرت وجهه سحابة اشمئزاز قاتمة ، وحينئذ انشبت كوثر أظافرها فى وجهه ثم بصقت عليه ، وشيعته بكل ماعرف الشارع من شتائم ، لكن الشاى كان قد اندلق على الارض .

أكداس الوجوه المبقعة الشاحبة فى الشـــبابيك ، أكداس الناس على أبواب البيوت وكوثر تمشى حــزينة ناحية الدكان ، كوثر أيها الحلم الرائع ، حــلم الرؤوس الدائخة من سخونة السقوف ، تمشين على العيون المربضة على القلوب المقهورة ... لماذا أنت حزينة ، ماذا يهمك مائة قرش من الشاى .



● جدار الخوف

شحمة أذنها تفرقت ثلاثة ، السن صغيرة ، كانت تهوى القروط الثقال ، لم يبق الآن مجال لقرط ، طاقتا أنفهــا هائلتان ، تشرع وجهها لاعلى وتشهق ، ثم تئوب ناكسة الرأس تعبث فى ملء جيب مرولتها من القروش المعدنية ، وتجلس على كرسى بجانب طاولة رخامية صغيرة ، يأتى ولد نحيل ، تلقى اليه بفردتى شبشبها من قدميها ، يأخذهما وينتحى جانبا من الرصيف كيما يطلبهما .

من مكانها هذا ترى امتداد المنازل الشاسع على جانبى شريط القطار ، المنازل الصغيرة المكدسة الاسمنتية السقوف ، وأسراب الناس ــ على البعد ــ صغار ســود كالنمال يدبون يعبرون شريط القطار من ناحية الى الناحية الاخرى بلا كلال ، وفى كل آن يندفع قطــار على الشريط داويا مزلزلا قاطعا أسراب الناس بضجيج الصلب الخرافى القوة ، يجزعون ، يفغون على الجانبين واجمين ، لكنهم يعودون مرة أخرى يدبون ، يعبرون من ناحية الى الناحية الأخرى ، وهى معهم ، من مكانها هذا ، يكاد يجمد قلبها خوفا ، ثم يمر القطار وينوى ضجيجه مبتعدا ، حينئذ يستريح خوفها وتعود تعبث بملء جيب مرولتها من القروش المعدنية .

لحظات الخوف تلك ، ياله من عمر ، أيام عصرت القلب بأصابع من حديد ، يرحمه الله ، كان خشن الصــدر ، عظيم الساعدين ، ثقيل الوطء ، كان يلم مزق نفسها فى الليالى السود ، كان يقبض على معصمها بكفه الضخم ويمضى بها وبالعيال يجوب النهــار مفزوع العينين ، يحفــر فى الشقوق من أجل العيش ، وكان يشترى لها كل آن قرطا ، فكم كانت تهوى القروط الثقال ... لحظات الخوف ، والدمعة الدافئة عند انفثاء الفزع ، ياله من عمر .

تدير هذا البوفيه ، تقــدم الشاى لراكبى القطــر البطيئة ، رجال طيبون وقطر قديمة ، تتلكأ قليلا بمحطتها ، ثم تمضى تجرجر حديد أطرافها مقرفصة ، وهى من مكانها هذا على الرصيف ترى امتداد المنازل الشاسع على جانبى شريط القطار ، زرعت الجانبين عيالا ، لها بنات وأبناء تحت هذه السقوف الساخنة ، يدبون رائحين غادين معهذه الاسراب السوداء ، وكثيرا ماياتون اليها ، يرفعون اليها وجوههم تعرف فيها ملامحه ، يرحمه الله ، تدس يدها فى جيب مرولتها وتعطيهم .

كان يلم مزق نفسها فى الليالى السوداء ، لم يبق فيها شىء ، تهدلت أثداؤها كخرق بالية ، شاخ وجهها ورأسها كحدأة عجوز ، وحولها زبائن القطر البطيئة ، رجــال طيبون ، يرشفون أكواب الشاى وهى تحكى ، وتضحك من أسنان تالفة ... مانحن .. ؟ بذرتنا يد مباركة ، نحن كثيرون ملء الارض ، ما التفت الا صادفت وجها لصيقا بوجهك .. ثم تضحك وتشرب شايها وتضــع قدميها فى شبشبها اللامع ، تطرف ناحية الطابور الذى يزحف عابرا شريط القطار فى تصميم ، وتجد فى قلبها بقايا نشوة قديمة يرحمه الله ، كان يلم مزق نفسها .



وانطلق على القضبان قطار هائج ، ضجة ترتج لها ارض الرصيف تحت اقدامها ، زلزال مروع ، هبت واقفة وكوبة الشاى فى يدها ، القطار طائر بجناحين من ريح محمل بالتراب أعمى عينها ، صرخت .

ـ استريارب

شق القطار الطابور العابر ، قسمه ، ضحيةجديدة، رشق خنجر فى قلبها ، ولولت كما لم تفعل فى أسود أيامها ، يارب كل شى كيف عرفت أن القتيل هو أحد أبنائها كان ساعيا اليها .

خاتمة

أمى تدور ورائى حاملة حذائى ورباط رقبتى ، وأنا أمام المرآة أبكى نفسي ، شحوبى وموات وجهى ، عباراتها كعديد الندابات ، تصلبنى كل صباح وتدق أطرافى ... «ياولدى ماتت كوثر ... ذهبت الى هناك ورأيت أمها تبكى دما » اذن فماذا ٠٠ ؟ يصبون القار فى روحك وتشبع به كل اخيلتك ، وتسود الرؤى ٠٠ « ياولدى احرقت الجاز على ثيابها واشعلت عود الكبريت ، دخل عليها أبوها ، لفها فى سجادة وبرك عليها ، لكن النار كانت تأكلها داخل السجادة » .. آه .. يخنقنى الحزن ، لطخت أعلام الذكرى بالحداد «.. هل أحرقت النار وجهى .. ؟ اذن لماذا يتاملنى اذا أتى لزيارتى ، خوفى أن أبدو قبيحة فى عينه ، كانت تحب خطيبها ياولدى ، كان اشترى لها فستانا حريرا موردا ، لكن أبوها غدر به ، أراد أنيزوجها لشيخ الجامع ، ظلت فى المستشفى سبعة أيام ثم ماتت ..» أعرف شيخ الجامع ، وجهه يشع بالتقى .

لكن لى عوينات مذهبة الاطار ، واذا أتكلم ارص الكلام باعتناء ، صلب أملس ، لكن داخلى رجراج كمح البيضة ، وأنا مدعو للشهادة ، مشيت رصينا ثابتا منهارا ، وكانت الدموع تسح فى قلبى ... انى لأذكر أنها كانت تبتسم لى، وكان الفرح يولد فى قلبى .

أنا مدعو للشهادة ، ولذا فقد صعدت السلم العريض ثابت الخطو ، مائت فى داخلى ، فى كل ركن يقف شرطى مسلح بعينين يريان ماتحت السطوح الخارجية ، بهوادة تسللت متفاديا النظرات النافذة ، وصعدت سلما يقطع النفس ، جلست على الدكة أمام المخبر ، رجلاى تركتانى، تثلجتا ، أكاد أهوى وترتطم جبهتى بالطاولة امام المخبر، لكنه ابتسم لى ، وقلت له كلاما كثيرا هادئا .

وكان ثمة فى الغرفة مخبرون آخرون ، ولصوص كثيرون ، وكان المخبرون يمارسون عملهم ، يعجنون هؤلاء الاولاد عجنا ، يسحقونهم فى الارض بكعوب الاحذية والاولاد يولولون كالنساء ، آهات وحشرجات كالمشرفين على الموت لكنهم لم يكونوا يعترفون ، لم يكونوا يقولون على الذى حصل .

قمت واقفا ، مشيت خارجا ألفت حوالى ، الكدمات خلطت ملامح الوجوه ، لصوص مباركون ، المبنى قديم ، يهتز تحت الخطو ، نزلت السلم وحيدا حزينا ... كوثر أيها الحلم ... من أجلك كتبت .

قصة من المغرب

محمد زفزاف

الدفن

لهاث جريح ينبعث من أعماقه ، وعرق جهنمى يتقطر من مسام جلده الضيقة المهترئة ·· كان يحس أن العرق المتفصد ، لا من جراء الصهد ، ولكن من جراء صعود الجبل ، يسير ببطء بين شعيرات جسده الكثيفة ·· ويسمع لهذا العرق فى عالم الصمت الذى يحيط به ضريرا مزهوا كخرير الغدران فى الوادى ·· لا شىء غير الصمت ، وخرير عرقه القاتل ، وانهيار فى الطريق ، وتعب موئس ، وامرأة ماتت منذ يومين ولم تدفن بعد ·· توقف س ·· عن المشى وبدأ يلهث بقوة كما لم يلهث من قبل ·· لقد تعب حقا ·· انه لشىء موهن ومتعب وقاتل أن يجتاز طريقا أخرى غير التى انهارت ·· وطيلة يومين وهو يصعد ويهبط طرقا غير هذه ، ورغم شعوره بالتعب المفرط فانه لم يستطع الوقوف أو الاستراحة ·· امرأته هناك فى البيت ملقاة ككيس من التبن المبتل ·· لعل الجسد الآن قد أصبحت له رائحة كريهة مزكمة ، أو لعل بعض الديدان قد بدأت تتكون فى أصابع الرجلين وهى تبحث لها عن الثقوب والمنافذ لعالم الضوء ·· المقبرة بعيدة ولكن الطريق التى انهارت زادت أبعادها أكثر فأكثر ·· ذلك المساء ، منذ أسبوع بالضبط ، بينما كان س ·· وزوجته التى ماتت الآن ، يتعشيان ، سمعا انهيارا عنيفا وضجيجا قويا ·· بحيث أن الضجيج غطى بتاتا على صوت الرعد وعلى تكتكات المطر ·· كان ضجيجا لم يعهداه من قبل ·· وفى صباح اليوم التالى وجدا أن قطعة من الجبل انفصلت عنه بفعل السيول التى حفرت فى التربة ·· وسقطت هذه القطعة على الطريق الوحيدة ، وتوقفت هناك بعناد ·· ومنذ ذلك المساء أصبح بيت س ··· وزوجته فى انفصال تام عن العالم ·· عن القرية وحوانيتها التى تبعد بأربعة كيلو مترات عن بيته ·· ولكى يذهب الى هناك فهو من غير شك يتعب تعبا شديدا ، بحيث أنه لكى يجتاز قطعة الجبل يتعين عليه أن يتسلقها بأظفاره ويديه وقدميه وكل جسده ·· وعندما يقف فوق قمة هذه الكتلة الترابية الصماء ، يقفز قفزة شديدة الى بقعة أقل ارتفاعا ، ومنها الى الطريق المسدودة ·· وكان قد فكر بعد أن توفيت زوجته أن يضعها فى كيس ويشدها الى ظهره ثم يقوم بنفس العملية ·· ولكن تبين له أن هذا ليس لائقا بالأموات ·· ثم انه قد ينجح وقد لاينجح·· وسيكلفه ذلك فيما يعتقد تأنيبا قويا من ضميره ·· ومنذ يومين وهو يبحث عن الحل لحمل هذه الجثة الى المقبرة ·· الطريق تسدها قطعة من الجبل ، وليس هناك الا طريق واحدة تؤدى الى المقبرة ولكنها بعيدة جدا ، بحيث



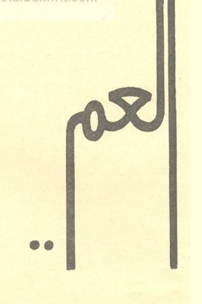
أنه لكى يجتـــــازها يجب عليه أن يدور ويدور بحلزونية حول الجبل ، حتى يجد نفسه فى النهاية بالحضيض ، حيث القرية والحوانيت والمقبرة ٠٠ ولقـد خطرت له فكرة بعد اليأس ٠٠ أن يأخذ فأسه ويحاول أن يدفن زوجته هنا بالقرب من بيته ٠٠ ولكن كل ما قام به كان عبثـــا ٠٠ فالأرض حجرية صلبة كالحديد ٠٠ وكان مجرد حفر بعض ملمترات مكعبة يتطلب منه الساعات الطوال ٠٠ وقد يضطر الى تغيير المكان فتصدمه نفس الصلابة ونفس العنـــاد ونفس التمنع ٠٠ وها قد انتهى الآن فقط من التوصل الى حل ٠٠ سيلتحق به بعد الظهر رجلان يساعدانه على حمل الجثـة ويسيران معه على طول الطريق الحلزونية حتى الحضيض ٠٠ حيث القــــرية والمقبـــرة والحوانيت ٠٠

وعندما بلغ س٠٠ البيت ، ظل واقفا لبرهة٠ كان التعب قد تمكن منه ٠ وبلا ارادة منه هوى الى الأرض الباردة ، وشعر أنها أدفأ وأرحم رغم صلابتها ٠٠ وركز بصره فى البعيد ، وتتبـــع بالحاح ذلك الخيط المنحنى الذى يفصل السمـاء عن الأرض ٠٠ واكتملت أمام عينيه لوحة حزينة: هناك بيوت بيضاء ، وهناك أرض محـــروثة ، وأشجار فقدت شكلها ولونها ٠٠ ثم فى البعيد البعيد خط منحن ذو تعاريج يفصل الارض عن السماء ٠٠ ومن هذه اللوحة المكتملة حول نظراته الى الخلف وركزها بالضبط عند أسفل الباب، ولبث مذهولا شاردا ٠٠ وأدرك أن وراء هذا الباب نصف المفتوح زوجته مسجـاة وقد ازرق لونهـــا ، بل ربما تغطى جسدها ببساط من الدود ٠٠واستجمع فى وعيه جميع الروائح الكريهـــة ، وشعر أن أردأها وأخبثها قد علق بوعيـــه ٠٠ ثم خطرت له صورة غريبـــة ٠٠ لو أن ذئابا تسربت من الباب شبه المفتوح بعد غيبته ، ونهبت الجسد الميت ٠٠ وتخيل زوجته التى طالما عانقهـــا وضمها اليه بالحـاح وقد تمزقت اربا اربا ٠٠ وحاول فى ذهنه أن يجمع هـذه الاجزاء المقطعة ليعيد لزوجته الراحلة ذلك الجسد البض الثمين والذى أصبح معلولا فى أخريات أيامه ٠٠ونهض ببطء ٠٠ نهض كآلة مفككة فى حاجة الى تصليح ووضع كفيه على ركبتيه المنهارتين بفعل الحزن والمرارة ٠٠ واندفع كالمحكوم بالأشغال الشاقة الى البيت ٠٠ لقد طرد صور الذئاب المفترسـة من ذهنه ٠٠ ليس ضروريـا أن يموت المرء شر ميتة وقد كان فى حيـــاته من أحسن المخلوقات وألطفهم وأرقهم ٠٠ ان العناية الربانية تقف جنبا الى جنب مع هذه الأرواح الخيرة ، دافعة للشرور ورفع يده ليملك مؤخرة رأســه ٠٠كان شــعره الخشن مبتلا ـ لا بفعل المطر ولكن بفعل العرق ـ

وعندما دفع الباب المفتوح ارتمت عيناه بلامقدمات على جسد مسجى فى هدوء ، مغطى بثوب نظيف بسيط ٠٠ كانت زوجته تحفظه فى صندقها لمثل هذا اليوم ٠٠ وعز اذ ذاك على س ٠٠ أن يجـد نفسه وحيدا أعزل ، وعز عليه أن يواجه العالم بلا عون ٠٠ ان الموت لا يمهل أحدا ٠٠ لقـــد اختطفها ذات صباح بينما كانت تتحدث اليــه بدفئها المعهود ٠٠ لم تكن تبالى بالموت ، ولم تكن تعتقد انه سيفاجئها ٠٠ وها قد فاجأها الآن ٠٠ فاذا كانت الحقيقة قـد غابت عنهـا فان الآخر قد أدركها بعد موتها ٠٠ زوجها وحده هــو الذى أدرك أن الموت انما يفاجئنا فى أى وقت وفى أى مكان ٠٠ ولم يطق س ٠٠ النظر الى الجثمان الهادىء هكذا ببرود ، بل حول اتجـاه نظراته الى أشياء لم تستقر أبدا فى وعيه بقدر ما استقرت صورة زوجته المرحومة ٠٠ وغـادر البيت ، وأقفل الباب ببطء ٠ ثم ذهب ليجلس على قطعة من الحجر متجذرة فى الارض ٠٠ وبدت له مرة ثانية البقع البيضاء فى الحضـــــيض ، والارض المحروثة ، والخط المنحنى الذى يفصل مملكة السماء عن مملكة الأرض ، وظل جامدا فوق الحجر حتى سمع أصواتا تنتشر فى الهواء الملبد الراكد كبركة آسنة ٠٠ ها قد وصل الرجلان وعندما أبصرا س ٠٠ ، تبعاه الى داخل البيت ٠٠ كان جو من الحزن مخيما على الوجوه ٠ لم يمت لهما أحد ، ومـع ذلك فمن المتعين عليهما أن يحزنا ، أو على الأقل أن يفتعلا الحزن ٠ وبعد قليل حملوا الجثمان على قطعة خشبية مفلطحة وغادروا البيت ٠ لم يحاول س ٠٠ أن يقفـل الباب ٠ كان وجهه قد تجهم أكثر ، واســـتعاد جسده التعبان حيوية عصـبية قلقة ٠٠ لقـــد شعر أكثر من أى وقت مضى أنه أعزل ، وأنه يواجه العـــالم بلا عون ٠ وعندما كان الثلاثـة ينحدرون ويتعثرون بأحجـار الطريق مر شريط سريع أمام عينى س ٠٠ الطريق الحلزونية ليست طويلة ٠ وتصورها مسفلتة بالرغم من أنها حجرية صعبة ولا أحد يمر منها ٠٠ انها على كل حال تؤدى الى الحضيض ، حيث البيوت البيضاء ، والحوانيت والمقبرة ، وحيث يوجد ، بعيدا عن هذه جميعا ، خط منحن يفصل السماء عن الأرض٠٠ كان يشعر بكثير من المرارة ، وبكثـــير من التعب ، وكانت تسرى فى جسده مع ذلك قوة خارقة لا عهد له بها ٠٠ وكان وزن جسد امرأته اذ ذاك لايساوى سوى مليجرامات قليلة ٠٠ لا شك أن روحهـا الآن تحلق مع أرواح عديدة فى ذلك المجهـول البعيد ٠ وانحدرت دمعة من عين س ٠ وبدت له الطريق الحلزونية الوعرة قصيرة جدا ؟



عبد الوهاب الأسواني



كانا يسيران بحذاء النيل فوق جواديهما مع بزوغ الفجر ٠٠ أحمد بسنواته العشرين فوق جواده الأحمر ذى العرف الاصفر والخرطوم الابيض وعم باشرى الذى جاوز الخمسين بقليل يبدو بجسده الرفيع الطويل فى حيوية ابن العشرين فوق جواده الأسود اللامع السواد ٠٠ كانت وجهتهما « القسايم » حيث يقام مولد الشيخ عبد الصمد الكبير ، ويجرى سباق الخيل الذى تتنافس فيه القرى بخيلها وفرسانها ٠٠ وقال عم باشرى وهو يتأمل عنق جواده الذى راح يتبختر به فى خيلاء :

ـ الحقيقة انكم جلبتم لنا العار فى مولد السنة الماضية ٠

فرد أحمد فى حرارة وهو يعدل من وضع عمامته الكبيرة التى تهدلت من اهتزازات الجواد:

ـ انا عملت كل جهدى ٠٠ سابقت هذا ٠٠ وغلبت ذاك ٠٠ شرقت فى (المرماح) وغربت ولم اتوقف الا بعد ان سقط بى الجواد (ثم وهو يرفع راحته الى محاذاة كتفه) الذى على عملته ٠

رد عم باشرى دون ان يلتفت اليه :

ـ المهم فى النتيجة ٠٠ البلاد كلها هللت عليكم وضحكت منكم ٠٠ واصبحت بلدنا التى يعمل كل فرسان الدنيا حسابها مضغة فى الافواه يسخر منها من يستحق ومن لا يستحق ٠٠ انا حينما بلغنى الخبر تمنيت الموت ٠٠ هذا المولد من عهد أجدادنا ونحن فرسانه وسادته ، لاينازعنا فيه

منازع ·· ولما شببتم انتم سلمناكم اياه وقلنا لكم: « ها ئم مرماح الخيل ·· لكم فيه السيادة والصيت البعيد ، لانريد منكم صيتا جديدا ·· فقط حافظوا على صيتنا القديم » ·· واذا بكم تنزلون الميدان فى غاية من استهتار ، ولم يمض عليكم مولدان اثنان حتى كانت السيادة قد انتزعت منكم (ثم فى لهجة غاضبة) ومن الذى انتزعها منكم ؟ ·· بلدة (المويسات) ؟ تلك القرية التى لا نعرف لها أصلا من فصل ، والتى لم نعمل لفرسانها أى حساب فى يوم من الأيام ؟ ··

كان عم باشرى يتكلم فى غضب شديد ، بينما صمت أحمد صمتا تاما وان كان وجهه قد علته كآبة ·· ومرت فترة صمت اشـــعل عم باشرى خلالها سيجارة ، ثم قال وهو ينفث الدخان فى ضيق :

ـ انا لا أذكر فى حياتى ان أحد فرســـان (المويسات) تجرأ وطلب مسابقتى أو مسابقة أحد من بلدنا ·· ابدا ·· (ثم فى لهجة تهكمية) عشنا ورأينا المويسات لها السيادة علينا ·· الله ·· الله يا دنيا !

والتفت عم باشرى ناحية النيل فرأى المراكب الشراعية تملأ صفحته متجهة الى (القسايم) وقد امتلأت بالشبان بملابسهم الجديدة ، والبنات وقد لمعت شيلان القطيفـــة على رؤوسهن وقد انهمك الجميع ـ كل على طريقته ـ فى ترديد الأغانى المناسبة التى تنم عن الفرحة بالمولد وما ينتظرهم فيه من بهجة ، فبدا المنظر ـ والجبل الشرقى يطل عليهم بسفحه الأخضر وقمته البيضاء ـ كلوحة رائعة فى معبد فرعونى قديم ·· فالتفت عم باشرى الى أحمد وقال له :

ـ انتم لاتذهبون الى « مرماح » الخيل من اجل السباق ·· ولكنكم تذهبون للبحلقة فى شيلان القطيفة وما تحت شيلان القطيفة يا أولاد البقر ! ليست «المويسات» هى التى هزمتكم ·· المويسات احقر من ذلك وأذل ·· انتم هزمتم من شـــيلان القطيفة !

رفع أحمد حاجبيه وقال والدهشة مرتسمة على وجهه الاسمر الجميل :

ـ لا والله ياعم ·· المسألة هى ان ال ··

فقاطعه عم باشرى قائلا :

ـ اخرس ! ·· ألك وجه تريد أن تدافع به ؟ خبرنى اذن عن السر فى هزيمتكم هذه العجيبة ؟ هه ؟ ·· ما سر هزيمتكم ؟ (ثم فى سخرية) الشيلان الحمراء هى السبب ·· ام الشـــيلان الصفراء ؟!

تجهم وجه أحمد وهو يقول فى نبرة مؤدبة :

ـ انا عملت ما على !

رد عم باشرى ولا زالت الصعبية تلف صوته :

ـ قلت لك العبرة بالنتيجة ·· لقد سألت كل واحد فيكم فلم يقل غـــير هذه الجملة (ثم فى محاكاة كاريكاتوريه) أنا عملت ما على ! ·· اذا كنتم جميعـــــا عملتم ما عليكم ·· فما سبب الهزيمة يا اولاد البقر ؟!

لم تكن هنـــاك صلة قرابة بين أحمد وعم باشرى ·· كل الصلة التى بينهما هى انتسابهما لقرية واحدة ·· قرية البغدادية ·· ولكن رباط الفروسية ربط بينهما برباط أقوى من رابطـة النسب ·· فكان أحمد وكل من فى مثل سنه من الفرسان يتطلعـــون الى عم باشرى فى اكبار ، وينظرون اليه على انه مثلهم الأعلى فى كل ما يتصل بالفروسية من قريب أو بعيد ·· ولا عجب ·· فهو الفارس الأول فى كل (الموالد) و (الليالى) التى تقام فى قريتهم والقرى المجاورة والذى يعمل له ألف حساب ·· ومع أن عم باشرى قد اعتزل شهود الموالد منذ سنتين الا ان علاقته بالفروسية لم تنقطع ·· فهو ينزل بجواده كل أصيل الى الرمال الفسيحة على شاطىء القرية ويركض أكثر من ساعتين وكأنه يخشى ان ينسى الركوب ·· علاوة على أن صلته بالفرسان من شباب القرية كصلة الاستاذ بتلاميذه ·· سهراتهم الليلية كلها عنده ، وأحاديثهم كلها تدور حول الخيل واصنافها وطباعها وأفضل الطرق لركوبها والتغلب بها على الخصـــوم ·· بل ان الـــــذى تلد له فرس فى القرية لا يهدأ له بال الا اذا أحضر المهر الصغير ـ أو المهرة ـ الى عم باشرى ليمكث عنده قرابة الشهر كى يعلمه « المشى » على قواعده الصحيحة ·· من هنا كانت نظرة أحمد وامثـــــاله الى عم باشرى نظرة يشوبها الاحترام الشديد ·· بل انهم لا يخاطبونه الا (بيا ·· عم) ·· حتى اذا غاب عنهم وقال أحدهم (العم) عرف الجميع بأنه يعنى عم باشرى ·· وفى الأيام الأخيرة ـ بعد الهزيمة فى المولد الماضى ـ رأى الشـــبان من استاذهم طبعا جديدا لم يعهدوه فيه من قبل ·· يحادثهم بعصبية ، ويثور فى وجوههم لأتفـــه الاسباب ·· واحيانا كثيرة يشتمهم خلال نقاشهم معه ·· فتحملوا منه كل ذلك صابرين لاعتقادهم بأنهم يستحقون ذلك لهزيمتهم الأخيرة غير المشرفة امام (المويسات) ·

وقال أحمد فى أسى ولكن بلهجة حارة :

ـ والله العظيم انا لم ابارح المرماح ولا ثانيـة واحدة ··

فقال عم باشرى وهو ينظر امامه الى الحقول المترامية الى مالانهاية :

ــ مغادرة المرماح ليست مهمة ·· لكن بشرط ·· انتزعوا سيادة المرماح اولا ، ثم بعد ذلك امرحوا كما يحلو لكم (ثم ملتفتا اليه) : ألم أقل لكم أكثر من مرة : اذا دخلتم المرماح فادخلوه خائفين وكأنكم تدخلونه لأول مرة ؟ ·· لماذا قلت لكم ذلك ؟ ·· كى أجنبكم الغرور يا أولاد البقر! ·· فالغرور يفضى الى الاستهتار ، والاستهتار يفضى الى الغفلة ومن ثم يأخذكم عدوكم على غرة ·· لكن تقول لمن ؟

فقال أحمد وهو يرعش يده الى أعلى ليحسر كم القفطان الشاهى بحركة لا ارادية :

ــ نحن غلبناهم فى أول الأمر والله ياعم ·· ولكنهم استعانوا علينا بجواد طويل القوائم ، كبير الجثة ·· اسمه (الغرباوى) ·· ما ان جاء هذا الجواد العجيب الذى لم أر مثله فى حياتى حتى هزم كل جواد تصدى له من بلدنا ·· هذا هو سبب الهزيمة ·

فقال عم باشرى فى سخرية :

ــ مدد ·· مدد ·· يا غرباوى مدد ! (ثم ملتفتا اليه فى عصبية) : ألم أقل لكم أكثر من ألف مرة ان الذى يفوز فى المرماح هو الفارس وليس الجواد ؟ ·· ألم أقل لكم ان الفارس الحقيقى هو الذى يهزم أحسن الجياد بأسوأ الجياد ؟ ·· لو انكم قلتم ان الذى هزمكم هو الفارس فلان الفلانى لعذرتكم ·· اما ان تقولوا ان الذى هزمكم هو الجواد الفلانى فهذا يعنى أنكم لا تعرفون عن الخيل وركوب الخيل شيئا ·

ومرت فترة صمت لم يكن يقطعها غير وقع حوافر الخيل على الأرض الهشة ·· وقال عم باشرى وهو يمد يده الى الأمام :

ــ على كل حال ها نحن ذاهبون الى المرماح ·· وسنرى !

عندما وصلا الى ميدان السباق ·· ألقى عم باشرى نظرة سريعة على الميدان الواسع ذى الرمال البيضاء ، الذى يبدأ من النيل ويضرب فى الصحراء الى مالانهاية ·· فألفى فرسان القرى قد تجمعوا بخيولهم جماعات جماعات ·· كل جماعة من قرية ·· وصهل جواده صهيلا قويا متواصلا وهو يتجه ــ مع أحمد ــ الى حيث تقف خيل قريتهم ·· فجاوبه صهيل متواصل من أكثر من جواد وكأنها ترد له التحية ·· ولفت عم باشرى الانظار بقفطانه الشاهى ، وعمامته الكبيرة وشاربه الفضى ·· وتهامس فرسان القرى وهم يشيرون اليه من بعيد ويحدقون فيه فى اهتمام

وطفح البشر على وجوه تلاميذه من ابناء قريته بمجرد ان وقعت انظارهم عليه ·· واتسعت ابتساماتهم وهم يرحبون به ·· وقال له عبد العاطى الزناتى أحد فرسان القرية مرحبا :

ــ سنؤرخ بهذا اليوم ياعم !

ولم يرد عم باشرى ·· شرع فى العمل بمجرد وصوله ·· أنزل هذا الفارس من على جواده ·· وأعطاه جوادا آخر ·· وأعطى جواده لفارس غيره ·· وأشار الى عدة جياد فطلب ان تكون فى المقدمة ·· وطلب من خيل أخر ألا تشترك فى السباق نهائيا ·· وفك الكثير من الألجمة وأعادها لخيلها مرة أخرى بعد ان وسع بعضها وضيق بعضها الآخر ·· واستبدل سرج هذا الجواد بسرج ذاك ·· ودار حول أحد الجياد وضربه بيده ضربات خفيفة فى بطنه ، ثم طلب من صاحبه ان ينزل به الى النيل كى يستحم ليطرد عنه الكسل وطلب من أحد الفرسان ان يقلم حوافر جواده لأنها أطول مما يجب الأمر الذى قد يعرضه للسقوط أثناء السباق ·· وهكذا ·· والعجيب ان الجميع يطيعونه طاعة عمياء ، ولا يعترضونه فى شىء ·· بل ينفذون أوامره وهم فى غاية السرور ·· واذا أبدى أحدهم ملاحظة واعجبته نفذها وهو يقول : « مادمتم فاهمين ·· فلماذا هزمتم يا اولاد البقر ؟! » ولم تطلع الشمس وتنتشر ، ويبدأ السباق ، حتى كان عم باشرى قد فرغ من تنظيمه ، وحتى كانت (البغدادية) قد أكملت استعدادها لخوض الموقعة فى ايمان وثقة ·

وبدأ السباق بين البلاد الأخرى ·· وفازت قرية (الكلاحفة) على كل القرى الأخرى ·· وتصدت لها (البغدادية) ــ كما تقضى تقاليد المرماح ــ فهزمتها باسرع مما كان يظن أحد ·· وجاء الدور على الخصمين الكبيرين ·· البغدادية والمويسات ·· وركضت الخيل ·· ولوح الفرسان بجريدهم الذى برى على هيئة الرماح ·· وكلما فاز جواد عرفت النتيجة قبل وصوله الى نهاية السباق من صيحات الجماهير المتراصة فى صفين عميقين طويلين من أول السباق الى آخره ·· فصيحاتها تشق الفضاء ، واقدامها تزلزل الأرض ·· وكانت النتيجة تعرف بأنها لصالح المويسات اذا صدرت عن الجماهير ــ المويسات منهم ــ هتافات بحياة المويسات سيدة الدنيا ! ·· اما اذا كانت النتيجة لصالح البغدادية فأول ما ينبىء بذلك زغرودة طويلة عميقة تجلجل فى مرح مغطية على كل صوت عداها ·· وتأرجح النصر بين الفريقين ·· مال هنا تارة ومال هناك تارة أخرى ·· الا ان كفة البغدادية بدت راجحة ··



ولعل وجود عم باشرى كان من العوامل التى أصابت فرسان المويسات بالخور .. فقد سبقت الرجل هالة - الى ميدان السباق - كانت اقرب ما تكون الى الأساطير .. ولم ينزل عم باشرى الى الميدان .. اكتفى بالاشراف والتوجيه وكأنه يعد نفسه للموقعة الفاصلة .. وتوالى ركض الخيل .. وتوالت الزغاريد .. حتى أصبحت الزغرودة هى النهاية الطبيعية المنتظرة لكل جوادين يتسابقان .. وبات أمر عودة السيادة للبغدادية أمرا مفروغا منه .. وفجأة سرت همهمة بين الجماهير تحولت شيئا فشيئا الى ما يشبه اللغط وصاح أحمد وهو يشير الى جواد ضخم يدخل به صاحبه الميدان على مهل .. مخاطبا عم باشرى :

- أنظر يا عم .. انه الغرباوى !

ولم ينظر عم باشرى الى الجواد فى أول الأمر استرعى انتباهه الحال التى أصبحت عليها الجماهير .. فقد سرت فى صفوفها همهمة ووشوشة - مع تحركها الدائم مما يخل بنظام الميدان - بينما امتدت مئات الأصابع تشير الى الجواد ، ونزلت الأصابع لتتسلط آلاف الأعين . وتمتمت الشفاه فى عجب (الغرباوى) .. تنطق الكلمة على شطرين .. (ال) وحدها فى سرعة ولهفة ثم تنطق (غرباوى) فى بطء شديد وبصوت ممطوط .. وكأنها - بطريقة نطقها هذه - تقول : (حضر الماء بطل التيمم !) .. وحول عم باشرى بصره فرأى جوادا بائن الطول ، ظاهر الارتفاع ، عريض الصدر ، ضامر البطن ، اشقر اللون ، وان خالط عرفه ومقدمته البياض .. وألقى على فارسه نظرة خبير فألفاه فتى فيما بين الخامسة والعشرين والثلاثين ، نحاسى الوجه ، أصفر الشارب .. اسكرته هتافات (المويسات) وتهليلها فأمال رأسه الى اليمين قليلا فى دلال وثقة !

ولم تهدأ ضجة جماهير المويسات ويعود النظام الى ما كان عليه قبل ساعة كاملة .. وحدق فرسان البغدادية فى وجه عم باشرى وكأنهم يسألونه الرأى .. فأشار بيده الى حيث يقف (الغرباوى) وقال وهو يبتسم : أتخشون هذا الأعور ؟!

- أعور ؟

هكذا صاح فرسان البغدادية والدهشة تعقد ألسنتهم وهم يحدقون فى وجه عم باشرى بين مصدقين ومكذبين .. ومرت فترة صمت كأنها دهر قطعها عم باشرى بقوله :

- انا أعرف هذا الجواد قبل ان تشتريه المويسات .. انه جواد غريب .. ليس من هنا .. وهو علاوة على أنه أعور .. سأخبركم بالسر الذى يمكنكم من هزيمته بسهولة .

وقال أحد الفرسان :

- ألا تنزل اليه انت ياعم ؟

فرد عم باشرى فى بساطة :

- أنا ؟ .. لم ؟ .. انه لا يستحق !

ثم أشار الى أحمد .. فاقترب منه .. ووضع عم باشرى فمه قرب اذن أحمد .. وأسر اليه ببضع كلمات .. فرفع أحمد حاجبيه وقال :

- أهكذا ؟

- نعم .. ولا شىء غير هذا

- بمجرد أن أصدر هذا الصوت .. يتوقف عن الركض ؟

- نعم .. ألم أقل لك اننى أعرفه ؟

لكز أحمد جواده ووقف قبالة الغرباوى .. واستعد الفارسان للانطلاق .. وقال عم باشرى لمن حوله :

- لا داعى لوجودى بينكم .. سأذهب الى البلد .. سلام عليكم .

وصاح فيه أكثر من فارس :

- ألا تنتظر النتيجة ياعم ؟

وقال وهو يثنى عنان جواده شطر البلد :

- ولم ؟ .. ألم تعرفوا كل شىء عن عدوكم ؟ ما دمتم قد عرفتم نقط الضعف فى عدوكم فالنصر مضمون .. ليس لدى ما أقوله لكم بعد الآن غير كلمة واحدة : (حافظوا على صيتنا القديم)

***

عندما وصل عم باشرى الى شاطىء النيل .. واستدار الى الجنوب جاعلا النيل على يساره فى طريقه الى (البغدادية) .. تناهت الى مسامعه زغرودة طويلة مجلجلة .. وابتسم .

ماهر شفيق فريد

ساحرة الأفاعى

نحن ننظر فيما مضى وما هو آت
ويسقمنا الحنين الى ما لا يوجد
أصدق ضحكاتنا
تشوبها لمسة من الم
واعذب اغنياتنا هى تلك التى تحكى أكثر الأفكار حزنا

شلى – الى قبرة

ها هى ذى تنهض شامخة ، كلوسيفار الفخور فى سقوطه، ترمقنى بعينين براقتين ، وعلى كتفيها يتلوى ثعبان أرقط ، والى يمينها دغل استوائى مخوف ، تمتد أغصان أشجاره كأيد مستغيثة ، وتلتف عليها الثعابين ٠ ومن قلب العشب تنبثق نباتات غريبة ، نصالها حادة مدببة ، أما وراءها فبحيرة على شاطئها الآخر أحراش كثيفة ، وفى السماء قرص الشمس الباهتة تشرق بيضاء على العالمين ٠٠

كانت لوحة « ساحرة الأفاعى » للجمركى هنرى روسو على أول ما يصافح بصرى عند استيقاظى من النوم ٠ وهاأنذا افتح عينى فى العتمة ، وقد أيقظنى من غفوتى صـوت المطر الذى يدق زجاج النافذة : كان الجو شتويا ، والحمى تنوش أطرافى ، ولكن عقلى كان ، على نحو ما صافيا غاية الصفاء وكانت تراوده فكرة واحدة : أن يعيد قراءة تلك الصفحات الرائعة التى كتبها صانع العدسات الهولندى باروخ سبينوزا ، عن الانفعالات فى كتاب « الأخلاق » ٠ لاح لى فى لحظتى انها سبيل الخلاص الوحيد مما أعانيه وكنت أجد عزاء فى قوله ان الذهن الانسانى أو العقل حين يؤكد ذاته من شأنه أن يعين صاحبه على التحرر من غـل الحواس والمغريات الخارجية ٠ فالاستبصار بطبيعة العواطف عون على التحرر من سيطرتها ٠ وفهم المرء لمكانه فى النظـام الكونى ومكان موضوعات حبه وكرهه وبصره بالضرورة التى تحكم الأشيـاء ، قادران على شفائه من مشاعر الاستهجان والأسى وخيبة الأمل ٠ هكذا يصطلح مع الأشياء ، ويظفر بسكينة الذهن ٠ وبهذا يتعلم العقل كيف يتقبل وضعه فى النظام الكونى ويسمو الذهن على دوامة الأهواء ٠٠

هى دقيقة واحدة لم تستغرق من مجرى الزمن شيئا يذكر ولكنها كانت فى نظرى ملخصا لحياة كاملة من الغش وحبـوط الأمل ٠ ففى اللحظة التى هممت فيها بدخول الخميلة ، رأيت من وراء أصص الزرع ظلين يفترقان بعد عناق ٠ كانا عاشقين خرجا لتوهما من الخميلة يدا فى يد ٠ لم يريانى لأن نور السعادة كان يعمى أبصارهما ولكنى رأيتهما جيدا ٠ وأبدا لن أنسى هـذه النظرة التى لم أرها فى عينيهـا قط قبـل



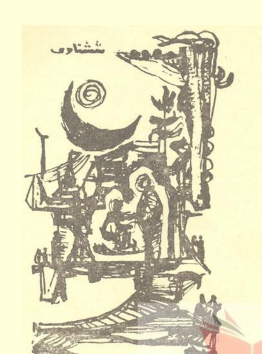
اليوم • كانت دائما عاقلة رزينة ولكنها كانت فى تلك اللحظة بنتا عاشقة تتوهج بنار غريبة • واذ خرجا من تحت التعريشة ، ردت خصلة شعرها الى الوراء وتنفست بعمق وهى تستقبل معه الهواء المبلول • واذ أدركت انه لا مكان لى فى دراما حبهما فقد تراجعت الى الوراء متواريا وراء الأشجار الى أن مرا أمامى فى المشى الطويل المرصوف بالحصباء وظلا يبتعدان ـ جنبا الى جنب ـ الى أن تضاءل حجمهما فى نهاية المشى •

واذن فقد شاء لى الحظ السعيد أن أذهب اليوم الى الحديقة اليابانية فى حلوان لكى أراها ـ هذه التى ملأت على أيامى بالمرارة وجرعتنى سما بطيئا ـ مع زميلنا الجديد فى الوزارة، يمارسان طقوس حبهما • ورغم كارثتى الشخصية تولانى نحو الجميلة التى وارتهما ضرب من التوقير ، وتؤكد لدى ان أسرارا مقدسة كانت تدور فيها ، ومن ثم تفاديت دخولها واكتفيت بالدوران حولها ، كما يطوف عابد بمحرابه • والتقت عيناى بوجه بوذا ، فكان آية فى التعاسة والوقار • تاقت نفسى الى الصفاء ونازعتنى الى التطهر من شوائب الغيرة والحسد والبغضاء ، فجلست عند قدمى المعلم ، وأسندت خدى على سطحهما البارد ••

والآن ، اذ أرقد محموما فى سريرى ، يلوح أن من الضرورى أن أرجع بالقصة الى بدايتها • ولكن لمصلحة من أفعل هذا ؟ ليس هناك من أروى له قصتى ، وأنا وحيد فى هذه الشقة بالاضافة الى انها ـ فى نهاية المطاف ـ لاتشتمل على أى شىء بالغ التشويق ، وتكاد تخلو حتى من الأحداث• لم يعد هناك من يتذوق درامات تشيخوف الهادئة عن موت الروح البطىء والعواطف التى تسطع فوق جليد النفس كشفق قطبى • ان كفى الوجدانى (وهو ليس الا جزءا من الداء المتغلغل فى كل أنسجة وألياف الكائن العضوى) ينفر نفورا شديدا من تعرية النفس ••

أحببتها منذ أول يوم عينت فيه فى المكتب ، وهاأنذا مازلت أحبها كما يشهد هذا الألم الضارى الناشب بأعماقى • ولما كان الحب شيئا مقدسا وشاعريا ، يعلو على المنطق فلست أرى ان ثمة مايلزمنى بان أحلل عاطفتى نحوها أو أشرح السبب فى انها ـ من بين كل من أعرف ـ غدت محور حياتى • أى سحر نسجته حولى ؟ وبأى سلطان تحكمنى ؟ انها تقبض على جذور غرائزى وأعصابى وعقلى جميعا • انحصر وجودى فى نطاق النقطة الصغيرة التى تشغلها من الأرض • وجودى اذن متنقل رهنا بخطواتها : فهو تارة على أرضية الوزارة ، وتارة فى بيتها ، وتارة فى الشارع ، وتارة فى •••

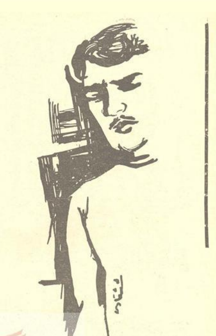
وفى مبدأ الأمر حاولت أن أستعين على فهم هذه العاطفة بكل ما وقع فى يدى عن الموضوع من أوفيد الى لورانس دريل • ونقبت باجتهاد فى بطون كتب الفلاسفة والمحللين النفسانيين وتلك الرسائل الفرنسية الطويلة فى علم الأخلاق ، ولكنى انتهيت الى أن الحب كلمة ابتذلت لفرط



ما استعملت ، وانى أريد أن اشعر نحوها بشعور لم يخالج رجلا نحو امرأة من قبل ••

وفى كل حديث عن الحب يثير الناس تلك القسمة الازدواجية السخيفة بين الجسد والروح • فهل كان حبى لها عذريا أم جسديا ؟ ان السؤال نفسه يكاد يكون بلا معنى ، ولكنى ـ تمشيا مع المنطق المألوف ـ أقول : لقد كنت فى مبدأ الأمر ـ فى فترة سعادتنا ـ أحبها بكل كيانى ولم أكن قد عرفت بعد تلك القسمة الملعونة ، التى لا تجىء الا بعد السقوط • ولكن حين بدأت الأمور تسوء ، واذ رحت أرقبها تتسرب من بين أصابعى كحبات الرمال ، تولانى شيطان الظهيرة : ذلك المزيج من اضمحلال الثقة بالنفس ومن الحس بالفقدان الوشيك ، مما يضرم شهوة التملك التى كثيرا ماتلتبس بشهوة الجسد • وهكذا أورقت التعاسة على أغصان شهوتى الجديبة • وفى وحدتى رحت أكتب لها سطورا تقطر مرارة ورغبة ••

كانت ساحرة الأفاعى تنظر الى مهددة ، فاغمضت عينى وأنا احس الحرارة تنفث أبخرتها فى جمجمتى • لم يكن مرضى عضويا قدر ما كان روحيا ، وكانت حمى العظام دليلا على توحد حساسيتى • ولم ينقطع المطر عن الانهلال ، بينما قعقع الرعد ، وخطف البرق بكاميرته صورة للشارع • وأخذت أردد أن الرجل العادى يقع فى الحب أو يقرأ سبينوزا ، ولكنه



لا يربط بين هاتين التجربتين ، كما أنه لا يربطهما برائحة الطهو ، أو صوت الآلة الكاتبة ، أما فى ذهن الشاعر فان هذه الخبرات تشكل دائما مركبات كلية جديدة ..

يوما كانت احدى زميلاتنا فى مستشفى الموظفين تضـع طفلها الأول ، واتفقنا على أن نذهب لنعودها فى ميعاد واحد. لم يكن لقاء المكتب فى الصباح ليكفينى ، وفى الوقت نفسـه كانت قد رفضت أن تقابلنى خارج العمل ، قائلة ان أهلها ما كانوا ليرضوا بذلك ، وانها ما كانت لتخدعهم . ولاح ان اللقاء فى المستشفى حل وسط يخفف من حدة التوتر بين مطالبى ومطالبهـا . وحـين دخلت كانت تجلس فى تايبرها الرصاصى الذى احبه الى جانب السرير ، وديعة حنونا . كانت جميلة جمالا لا يصدق ، وقد كان على أن ابذل مجهودا حتى أمنع نفسى من ضمها الى صدرى . وأخذت أتخيل يومها اننا متزوجان ، وقد خرجنا معا لأداء هذه الواجبات الاجتماعية . أيام سعادتنا كانت الثقة تملؤنى . كنت أتحدث كالمترفين عن عذاب الحب الشبعان ، وكانت تحدثنى عن عذاب الحرمان . الآن ادرك مدى الصــدق فى قولها ، بعد أن حرمت منها الى الأبد ...

يؤلمنى أن أتذكر انى تخيلت يومها انهـا تحبنى . كان ذلك يوم ان أهدتنى صــــورا لديجا وجوجان وغيرهما ، وشبكتها بالدبابيس . انى احافظ عليهـا كما هى ، لأنى اشعر بأن فيها شيئا من روحهـــا ، وانها موجودة حتى فى دبابيسها المعدنية ...

منذ أيام كنت أمر فى ردهة الوزارة فمررت بغرفتها بعد انصرافها . كانت نوافذها مغلقة والظلمة تسودها ، والباب مواربا . تقت لو ادخل واغلقها عـلى وأتلوى من الألم عـلى السجادة والكنبة وكرسيها والكرسى الذى كنت متعودا ان أجلس عليه حين أزورها وأخاطب الجدران . لم اكن أرى فى ذلك ضعفا لا يليق بل على العكس كنت أجد من المشرف ان تهزنى العـواطف العـاتية . لقد كان راسين خليقـا بأن يفهمنى حين أقول ذلك ...

ولأن العشاق يحبون أن يتخيلوا أن حبهم لم يكن وليد صدفة طائشة وانما هو قدر مكتوب ، فقد رحت أتساءل : ألا يحتمل ان نكون قد التقينا من قبـــل ؟ فى مترو مصر الجديدة مثلا وهى ذاهبة الى الكلية ؟ بل ألا يحتمل ان اكون قد أخذت منها كتبها وهى واقفة ؟ وقلت لها لا تصدمينى بحقائق تاريخية تدحض هذا الفرض فانا أحب ان أتصـور ان هذا حدث ...

وحين امتنعت على خاطبت الله قائلا : فى كل يوم ينشب فى قلوب آلاف الفتيات صراع بين العقل والعاطفة ولكنه ينتهى دائمـا بالاستجابة لنـداء القلب . فلماذا ياربى اخترت لى ألا أحب الا من هى أقوى ارادة من كل هؤلاء الآلاف ؟

يا الهى ! أكان من الأفضل لى ألا أراها قط ؟ لا شك ان ذلك كان سيوفر على كثيرا من العــذاب ، ولكنه كان سيحرمنى ايضا من لحظات السعادة التى منحتنى اياها .

وأعدت لنا الوزارة رحلة أسبوع الى مرسى مطروح على أن نخرج فى أفواج . وطبعا لم أكن فى الفوج الذى يضمها ، اذ كان المفروض أن يصـل فوجها الى المصيف يوم رحيـل فوجنا : ووجدت فى لقاء قطارينا فى الطريق معادلا رمزيا لآمالى التى لا تتحقق الا بعد فوات الأوان ، ووطنت النفس على أسبوع من الهجران . يا لهذا الغياب العزيز الذى يشيع فى جوانب روحى ! .. لقـد افرغ جسدى من كل محتوى أثناء غيابها ...

هل قدر لمرسى مطروح أن تكون مسرحا جديدا من مسارح عذابى فى حبها ؟ ان أمثالى يؤمنون بشعار : كل شىء أو لا شىء . وما دمت قد حرمت من ان أقضى كل دقيقة معها هناك ، فالأرجح ان أعمد الى وسيلتى التقليدية وهى أن أملك فى الغياب . سيكون غيابى عنها هو وسيلة الاتصـال بها . اذا افتقدتنى ـ وستفعل فلتعلم انى فى مكان ناء ، تؤنسنى فيه السماء والصخور والبحر ، أفكر فيها .

فى الفندق رأيت فتاة تشبهها فملت اليها على الفور . ينبغى أن أكون أكثر حذرا فى المستقبل اذ ربما أقع فى حب واحدة غيرها لأنها تشبهها ..

وفاء ، فلاح ان توترا خفيا يقوم فى داخلها ، وتطلع الجميع باهتمام الى نتيجة هذه المنافسة ...

والآن اصل الى بداية الجزء المؤسى من قصتنا ، بداية تغيرها ، على نحو قريب مما يجرى فى قصـيدة « الحب العصرى » لجورج ميرديث « اذ هل هناك ماهو أكثر ايلاما من أن نرى من نحبـه وهو يتنكر تدريجيـا لنا ـ بل يتنكر لنفسه ، حتى لا يعود يحمل أدنى شبه بذلك الشخص الذى أحببناه يوما ؟ لقد بدأت نذر الشؤم تتخايل لناظرى ولكنى كذبت عينى ، بذلك الاصرار العنيد على خداع النفس الذى يلازمنا حين نرى هزيمة نعرف فى أعماقنا انها واقعة بنا لا محالة . ولم أكن متعودا على الانتصار ولكن ألم الغيرة الوحشى أمدنى بعزم على النضال ، وقررت أن استبسل فى الدفاع عن سعادتى المهددة .

وكانت بداية تغيرها حين قالت لى ان المـوظفين بدأوا ينهشوننا بالسنتهم ، وطلبت الى أن أقلل من مجيئى الى مكتبها ، وذلك فى الوقت الذى كان الآخر فيه لايفتأ يتردد عليه رائحا غاديا . وأبى على كبريائى أن اشير الى هـذه الحقيقة فوافقت على ألا ازورها فى مكتبها الا يوما واحدا فى الأسبوع ، وشكرتها ـ بشىء من المرارة ـ على انها اختزلت لى أيامى الى السبع ـ قديمـا كنت أعيش سبعة أيام فى الأسبوع أما الآن فلا أعيش الا يوما واحدا ..

وكتبت فى يومياتى الخاصة : « أنا الآن كروح هائمة لا تعود الى مقرها الا فى اليوم المحدد لرؤياها ـ قديما كنت أراها يوميا ، وأحيانا أكثر من مرة فى اليوم ... » .

لو كنت أعرف رقم الغرفة التى ستشغلها فى الفندق . لتركت لها فيها أبياتا بلا توقيع : فان وجدت نعل بأرض مضلة ، من الأرض يوما فاعلمى انهـا نعلى . وستراها زميلاتها ويتعجبن عمن عساه يكون هذا الذى كتبها ، ولكنها هى وحدها ستفهم .

وعاد فوجنا الى القاهرة ، فبقيت فى مبنى الوزارة التى شهدت أعنف لحظات سعادتنا ، أتهجى لوحة الوحـدة . سيكون على أن أواجه العالم ، أسبوعا آخر ، من غيرها ، ولن أشـكو لأحد لوعتى . فانصدع يا قلب ولكن اصمت يا لسان ...

وليلة عودتها ـ ليلة الجمعة ـ فاض بى الكيل ، فرحت أتساءل : ترى أين أنت الآن ياحبيبتى ؟ لعلك فى القطار ، نائمة أو مستيقظة . أفى السرير الأعلى ام الأدنى أنت ؟ هل أتعبتك الرحلة وهل ترانى خطرت ببالك ، ولو لحظة ، وانت راقدة تحدقين فى الظلام ، فى تلك اللحظات الواقعة على تخوم النوم واليقظة ؟ ..

وحين عادت من الرحلة آثرت اصطناع اللهجة الفكاهية وقلت لها : من حسن حظك اننا لم نكن فى فوج واحد فى الرحـلة ، والا لكنت قضـيت كل الوقت فى معاكسـتك واغاظتك ...

ولكن أشواقى المتراكمة انفجرت على نحو غير متوقع : فقد فاتحتها بحبى وألححت الى مسألة الزواج ، فقابلت الامر فى هدوء ، قائلة انه بحاجة الى تفكير . ورغم أنها لم تعطنى جوابا قاطعا ، فقد رأيت الرضا يتخايل من وراء ردها ، ولم يبق على الا أن استمهل الزمن فى انتظار سعادتى المقبلة ..

ولأول مرة بدأت أنظر الى الحياة من زاوية جديدة ، فرأيت فيها من جوانب الجمال ما كان غائبا عنى من قبل ، بل بدأت أنسى قدمى العرجاء التى كانت قد قطعت على عهـدا صامتا بألا أفكر قط فى الزواج أو فى خطب ود فتاة : انها لم تكن شوهاء المنظر ، ولا كنت بحاجة الى عصا أعتمد عليها ، وغاية الأمر انها كانت أقصر قليلا من أختها ، وكانت تمثل جحيمى فى مراهقتى ، ولكنها لاحت الآن وكأنما تكتسب جناحا أثيريا ، خاصة وقد أكدت لى ان الشكل هو آخر مايهمها فى الرجل .

لم تكن كاذبة ولكنها كانت تبحث فى الرجل عن القوة والحماية ، ولهذا لم تملك الا أن تجاوب أحمد اهتماما باهتمام ، حين عين فى الادارة . كان فى الثلاثين وسيما ، وقد مال اليهـا من أول يوم . وكيلا أضفى على قصتنا مسـحة ميلودرامية ، يجمل بى أن أضيف انه لم يكن وغدا وانما كان يتمتع بمزايا اجتماعية وشخصية لا يستهان بها . لم تكن له عواطفى الحارة ولا عقلى النزاع الى التحليل والتأمل ، ولكنه كان يتمتع بذلك التوازن الذى حرمت منه منذ سن باكرة ، وكان زوجا تتمناه أى فتاة . وكثر تردده على مكتب

ولكنها ضنت على حتى بهذه السعادة الصغيرة فاننا بعد ان جرينا على هذا النظام الجديد أسبوعا فوجئت بها تغادر مكتبها فى الساعة التى تعرف جيدا انها ساعتى ، وكان على ان انتظر أسبوعين حتى أعاتبها ، وأتلقى منها اعتذارا لايشفى غليلا . قديما عندماكنت اجىء الى غرفتها كانت تترك صديقاتها لتجلس معى ، أما الآن فاننا عندما نكون بمفردنا ، تدعوهن الى آن يجلسن معنا . وها هى ذى الآن تتهرب من لقائى . ومع ذلك أبيت أن أواجه الحقيقة السافرة ، واكتفيت بأن اقول لها : ان العالم يتآمر على سعادتنا . ومن المؤسف ان يكون فى داخلك بعض الخونة الذين يساعدونه على تنفيذ مؤامرته ..

هكذا أصبحت لعبة فى يديها لاتستخدمها الا حين تريد اثارة غيرة أحمد ، وبدأت أرى نظرات السخرية والرثاء فى أعين زملائنا ، بينما كنت أعانى غيرة الذكر حين يرى أنثاه التى اصطفاها من بين كل نساء العالمين تستدير عنه مولية وجهها صوب ذكر اقوى وأجمل . ومما ضاعف لوعتى انى كنت أدرك أنها معذورة ، وان قوة غريزية غلابة تسوقها الى ذلك سوقا . المرأة الجميلة للرجل القوى . هذا قانون أزلى من قوانين الطبيعة ، فكيف سمحت لنفسى بأن أتناساه ؟ لم تكن رقتها وحساسيتها الا ستارا رقيقا تستخفى من تحته شهوات أشد غلظة . انها لم تكن منافقة على الاطلاق ، وانما كانت صادقة مع طبيعتها . غاية الأمر انى لم أر منها الا الجانب الذى تسمح لى المواضعات برؤياه ، واعتبرت ان هذا الجانب هو كل مافيها ، متابعا فى ذلك هذا الميل الطبيعى فينا الذى يدفعنا الى التهوين من شأن كل مانجهله والاكتفاء بما نعرفه ، وكأنه الحقيقة كاملة . لقد ارتكبت تلك الخطيئة التى نقع فيها كثيرا حين لانفهم أحدا : خطيئة تبسيطه ورده الى كائن بسيط يمكننا أن نفهمه . وحين يتكشف لنا عن كائن اعقد كثيرا ، ننحى عليه باللائمة ، ونتهمه بالتقلب والتلون مع انه لم يزد عن ان كان صادقا مع ذاته الأعمق ..

وجاء الوقت الذى غدا من المتعذر على فيه أن أسكت على هذا الوضع ، وحق لى أن أطالبها بأن تختار بيننا . وفى خاطرى مساءلتها : سأظل الى الأبد محيرا بهذا السؤال: لماذا تغيرت معاملتك لى ؟ بل لماذا تغيرت أنت نفسك ؟ لاشك انى أسأت فهمك منذ البداية ، حين تصورت انك تبادلينني شعورى .اذن أنت لم تتغيرى ، وانما أنا الذى كنت واهما انجابت عنه غشية الأوهام ..

لكنها فى نهاية الأمر كانت من الرفق بى بحيث افهمتنى ، بارق لهجة ممكنة ، انه من الخير لى أن انسى هذه العاطفة التى قالت انها لن تجلب الا العذاب لكلينا . كنا قد انتدبنا للعمل فى أحد المؤتمرات ، وفى الفترة الفاصلة بين اجتماعات اللجان فى اليوم الاخير من أيام المؤتمر، طلبت منها أن تصاحبنى الى ركن هادىء فى أحد الأروقة ، لأن لدى ما أريد أن أقوله لها . ولأن عذابات الاسابيع الاخيرة لم تدع لى طاقة على اللف والدوران ، فقد طرحت عليها هذا السؤال مباشرة : أهى مازالت تحبنى أم انها غيرت رايها ؟ وقد اجابتنى بأنى أسأت فهمها منذ البداية، وان شعورها نحوى لم يتجاوز قط حد الزمالة ، وانها اذا كانت لم تصدنى حين عرضت عليها الزواج ، فذلك لأنها لم تشأ أن تجرح شعورى ، ولأنها تود أن نظل أصدقاء وتقبلت هذه الكلمات بالثبات الواجب ثم طرحت عليها سؤالا آخر ، بحق الصداقة الجديدة التى اضفتها على : هل تحب احمد ؟ فسارعت الى الرد بالسلب ، واكدت لى أن شكوكى هذه محض أوهام ..

ولأن فى شيئا من طبع الرواقى ، رغم ميلى المؤسف الى الانغماس فى الرثاء للذات أحيانا ، فانى لم أجادلها بكلمة واحدة فيما قالته ، وانما نهضنا معا ، عائدين الى بقية زملائنا الذين كانوا جالسين فى كافيتريا المؤتمر . كنا قد غدونا صديقين الى الأبد ، وكنت أجد فى ذلك شيئا من الراحة . ان ما كان يعذبنى قبل هذه المحادثة هو تخيلى انها تحبنى، ولكنها تتصرف على نحو يناقض شعورها الحقيقى . أما وقد عرفت الآن انها لم تحبنى فى يوم من الأيام ، فقد لاح لى سلوكها متسقا ، وانتفى سبب من أسباب عذابى . لقد جعل الحب للقادرين عليه ، وكتب على الأقل صلابة أن يتحملوا طعنات الصد والعاطفة المرفوضة . أن تظل اليد ممدودة ، ولا تتلقى جوابا . ذاك قدرى . انما كنت أعرفه قبل أن أقدم على هذه التجربة ؟ ألم تعلمنى الخبرات السابقة أن أكون أشد حرصا ؟ بلى ، انى بذلك كله لعليم . ولكنى أقدمت رغم ذلك على مفاتحتها بحبى ، فما كان دافعى الى ذلك ؟ لم اكن آمل أن تستجيب لى ، وانما كنت على يقين من أنها سوف ترفضنى ، وقد سعيت سعيا الى سماع هذا الرفض باذنى ، كأن فى جانبا يستعذب الألم ويريد أن يراه رأى العين ، ولا يقنع بأن يتخيله ..

وجاءت على فترة من اليأس الهادىء الرخى ، كجو خريفى لايثير الا أحزانا وديعة ، اذ وطنت نفسى على تقبل ماحدث ، وعمدت الى عزاءاتى القديمة المألوفة : الفلسفة والشعر الموسيقى واللوحات وأن ظل يفعم نفس هذا التوق الذى لا يعرف له مستقرا ، هذا الحنين الذى يظل سابحا فى أركان النفس كسحابة متطاولة لاتدرك، لايتجسد ولا يعتقل فى كلمات ، بخار يفعم مداخل النفس ومخارجها . وكلما استبد بى الشوق اليها ، عزيت نفسى بقول بندار : فيا روحى لا تطمحى الى المطلق ، واستنفدى حدود الممكن ...

ورغم أن كبريائى أبت على أن أفاتحها مرة أخرى فى موضوع شعورها نحوى ، الا آن جانبا فى ظل يرفض أن يصدقها ويتمنى ألا تكون جادة فيما قالته . هكذا كتبت لها فى مذكراتى الخاصة « أحمل اليك نبأ سوف يدهشك : انك ، فى أعماق قلبك ، تحبيننى » .

وتركت لها هذه الحاشية على دفتر السماء الحزينة :
« أنت الآن لاتحبيننى ـ حسنا . لكن حذار! انك قد تستيقظين يوما ، بعد سنوات من زواجك ، لتكتشفى انك تحبيننى ـ يومها ستدور بك الارض .. »

لكنى فى لحظاتى الاكثر واقعية كنت أنظر الى تذكاراتها



القديمة التي منحتها لى ، وأقول : ماذا سيبقى لى منك فى المستقبل ؟ لاشىء سوى خاتم ، وكتاب شعر ، وكيس تبخر منه العطر ، وورقة بخطها بها قصيدتا « الأطلال » وقالت «مرت الأعداء » أما أنا فلن اكون حتى ذكرى فى خاطرك

وفى لحظات الاكثر حسية كنت أقول لنفسى انى ان اكف عن مطاردتك مثلما كان الانسان البدائى يطارد انثاه وسانجح فى حملك الى داخل الكهف • كان جسدك قارة وطنت عزمى على أن أقفى العمر فى اكتشافها ، وان ارتاد كل مرتفعاتها ومنخفضاتها ، تلالها ووهادها ، تجاويفها الخفية واطرافها الناتئة • ووددت لو اعتلى هضبة جسدك واطل منها على حدائق المسرات السرية • لم أكن أقدر ان أحتقر مسرات الجسد ، وهى كل نصيبنا المتواضع من السعادة على هذه الأرض ••

وواصلت تهويماتى العشقية ، فاخذت اتصور اننا تزوجنا ، وان التوافق العاطفى بيننا كان تاما • نصل الى قمة اللذة فى نفس اللحظة ، وننحدر عنها معا • ننحدر عنها لكى نصعد اليها من جديد ••

فى السرير نتحاور بالقبلات والأذرع والأرجل المشتبكة• نتعارك بالمخدات تعضنى فى كتفى وأعضها فى حلمة نهدها • تجد انوثتها لذة فى الاستسلام لسلطان ذكورتى ••

ولكنى أتوقف عن هذه التهويمات حائرا فيما اذا كانت ترنيمة مجيدة للحب تنضاف الى كلاسيات العشق الجسدى أم هى لا تعدو ان تكون صرخات خوف ورغبة كتلك التى يطلقها حيوان مهجور يبحث عن انثاه ؟ وأقول لها على سبيل التبرير العقلى ان الشهوة تتوقف عن أن تكون أمرا معيبا حين تدنو من بابنا وانما هى تعد قمة التعبير عن رقة حبنا••

وعائدا اصل الى نهاية قصتى عائدا من حيث بدأت ، فاقول انها كانت صادقة حين قالت لى انها لاتحبنى ولكنها لم تكن صادقة فى الجزء الثانى من كلامها • ففى الصباح خرجت تحت المطر الى الحديقة اليابانية بحلوان لأراها مع أحمد ، يمارسان حبهما فى خميلة ، وكانهما الهان جميلان من آلهة الاغريق لم اكن عاتبا عليها انها أحبته وانما آلمنى أنها كذبت على • ورفعت رأسى الى سماء الشقاء الرمادية ، فالفيتها ملبدة بالسحب تهيج الحنين ، وقد راحت أسلاك المطر الفضية تتساقط فى خيوط طويلة على بركة الحديقة متجهة فى حجر البوذا كانه موكل بجمع أحزان السماء وفى قلب الخديعة ادركت فيما يشبه الكشف انى مازلت أحبها رغم كل شىء وانه قد كتب على ان اعيش بقية عمرى حاملا هذه الكتلة الصلبة الجامدة من الألم بداخلى كورم خبيث فات أوان علاجه•

هكذا كمنت الشهوة تحت قناع البراءة كما تكمن أفعى فى قلب خميلة من الأزهار وفيما كنت سادرا فى أحلامى كان العالم يمارس شهواته الغليظة ، دون رهبة ولا شعور بالذنب • لاجديد فى هذا وانما هو الموقف الأبدى : موقف الحالم الذى يعجز عن ملاقاة من هم أكثف منه جلدا ويعى الهوة بين الواقع والمثال بين ماهو كائن فعلا وما نريده أن يكون ••

يا الهى ! عبثا احاول ان اتغلب على هذا الألم بقراءة الفلسفة او محاولة الكتابة فبالفن لاينقذ المرء شيئا كما علمته التجارب وليس هناك مايفتدى الألم : فللكاتب أن يكتب كما يشاء ولكن حذار أن يظن ان هذا سيفرج عن معاناته فانما الكتابة والألم منشطان •• متميزان تماما وكل ما تستطيعه الكتابة هو أن تعتقل ظل الألم فى اسار من الكلمات ، ان تظل تذكرة به كندب قديم ولكن هيهات أن يهدىء شىء من ثورة القلب اذا ثارت زلازله او هبطت عليه الذكرى كانداء مشتعلة او بسط شراع الحنين الى ما لاسبيل للوصول اليه••

وأغمض عينى على هذه اللوحة المخيفة القائمة على حائط غرفتى تحدق الى بعيونها اللامعة وأفاعيها الملتفة ونصالها المريبة واردد بمرارة بيتس الكاوية فى سنواته الاخيرة : أما وقد ذهبت سلمى فساضطجع حيث تبدأ جميع السلالم فى حانوت القلب القذر المكون من خرق بالية وعظام • فى الخارج مازالت تمطر السماء ، وفى قلبى مطر كذلك الذى ينهل على المدينة ••

محمد الحديدي



ظلال و أشخاص

اختبأت الشمس خلف قمة عمارة مرتفعة ملقية على الطريق الكبير ظلا لا نهاية له ، واستيقظت الحياة باقتراب المساء فازدحم الطريق بالسيارات التى تصرخ أبواقها وهى تجر خلفها أو تدفع أمامها احمالا ثقيلة من الظل ٠

وقفت واحدة منها أمام دكان لبيع الدراجات، وكانت تقودها سيدة ٠ زحفت الى الناحية اليمنى تجنبا للتيار المتدفق ٠ وكان بجوارها طفل فى الثانية ، فتحت الباب وهى تمسك الطفل بيدها ثم أخرجت ساقيها فانحسر رداؤها القصير فجذبته ثم حارت بين الباب والطفل والرداء ، وأخيرا غادرت السيارة فى اتجاه الدكان وهى تجذب طفلها من يده ، وهو يستكشف الكون من حوله بالتفاتات مشوقة ٠

دخلا الى الدكان حيث حملته لتمنعه من العبث بالاشياء الكثيرة التى يمتلىء بها المكان ، بينما اقترب منهما شاب طويل نحيل ، ابتسم مرحبا بالسيدة ثم أومأ برأسه ، وعاد ومعه دراجة صغيرة ، ما أن رآها الطفل حتى تملص بكل قواه ثم انحدر الى الارض وانطلق نحو الدراجة واخذ يتحسسها بشغف عظيم ٠

ثم دخلت من الباب شابة تلبس ملاءة سوداء وشبشبا من المطاط ، ومعها دراجة صغيرة ، فتقدم منها صاحب الدكان ، وأشارت الى مقعد الدراجة ثم الى العجلة الامامية ، فأمسك بمقبضى القيادة مثبتا العجلة بساقيه ، وادارهما قليلا ، وحاولت أن تساعده فى ذلك ، فانحسرت الملاءة وظهرت ضفيرتان سوداوان طويلتان ، حانت منه التفاتة سريعة اليهما ثم أشار بيده فجاء الصبى ٠ استمع له برهة ثم ذهب وعاد ومعه مبرد ومفتاح انجليزى بينما عاد صاحب الدكان الى حديثه مع السيدة ٠

كان الطفل الآن قد بدأ يحاول الصعود فوق الدراجة والسيدة تساعده ٠ جلس فوق المقعد وهو يضرب بساقيه وذراعيه ، ثم اكتشف الجرس فأخذ يقرعه وفى كل مرة يضحك بصوت مرتفع فتظهر اسنانه ونونتان صغيرتان فوق خديه ٠

ونظرت السيدة فى ساعتها ثم تقدمت نحو الطفل وحاولت انزاله ولكنه صرخ محتجا وجذب يده بشدة فرفعته من أبطيه فزاد صراخه وأخذ يضرب الهواء ـ وبطن السيدة أحيانا ـ بساقيه فأجلسته ثانية على مقعد الدراجة مستسلمة ، وما لبث أن ابتسم ثانية وبدأ يقرع الجرس ويضحك،فابتسمت ووقفت ترقبه بشغف٠وكانت الفتاة ذات الملاءة ترقب الصبى وهو يقوم بعمله، فلما لم تجد ما تفعله وجذبتها صرخات الطفل ثم ضحكاته وصوت الجرس،اعتدلت واسقطت الملاءة الى خصرها فظهر رداؤها البرتقالي وتحته نهداني



دون العشرين، بينما التصقت الملاءة بردفيها منبئة عن مزيد من ثراء جسدها الشاب ، مما كان موضع اهتمام صاحب الدكان للحظة خاطفة ، مالبث فور انتهائها ان شاركها فى مراقبة الطفل والدراجة ٠

ولكن ابتسامة الطفل غاضت فجأة ، وسرح ببصره من خلال واجهة الدكان الى الطريق وقد رفع حاجبيه وضم شفتيه معبرا عن دهشة بالغة أو اهتمام شديد ٠

اتجهت انظار الكبار الى الطريق حيث كان يقف طفل آخر لا يظهر منه الا رأس أشعث ، وجزء من جلباب لم تترك به القذارة مكانا لمزيد من البقع، كان ينظر الى داخل الدكان وقد وضع اصبعه فى فمه ٠

تبادل الطفلان نظرة طويلة صامتة ، ثم رفع صاحب الدراجة ذراعه وطلب من السيدة انزاله نظرت فى ساعتها ثانية ثم رفعته وأوقفته على الارض ، وفتحت حقيبتها وهى تنظر الى صاحب الدكان وتناوله النقود ، ثم استدارت لتذهب فوجدت طفلها ينظر الى الطفل الآخر من خلال الزجاج وقد وضع اصبعه فى فمه هو أيضا ٠

تحرك الطفل الآخر فوق الرصيف حتى وقف بباب الدكان ، فجرى طفل السيدة حتى وقف فى مواجهته ، فتشجع الآخر ودخل الى الدكان ، ووقف يقلب أنظاره بين السيدة والشابة صاحبة الملاءة ، ثم نظر الى الطفل ، واخرج اصبعه من فمه وأشار الى الدراجة ثم اعاده الى فمه ثانية ٠

ارتبك طفل السيدة وظهرت فى عينيه نظرة خوف وجرى اليها مستنجدا فرفعته من ابطيه ، وبدأت تتحرك صوب الباب ، ولكنه كان ينظر من مكانه المرتفع الى الارض ، فرأى الدراجة والطفل ، وكل شىء فى مكانه ٠ رفص بقدميه ثانية وتملص فانزلته السيدة وهى تنظر بقلق الى ساعتها وجلباب الطفل الآخر وسحابة الذباب التى جاء بها معه ٠

تبادل الطفلان نظرة طويلة ثانية ثم تقدم طفل السيدة ومد ذراعيه ولمس صدغى الطفل الآخر ٠٠ ولكنه لم يتحرك ، فجرى الى الدراجة وأمسك بها ونظر اليه ولكنه لم يجد منه أى استجابة ، فجذب الدراجة وتحرك بها الى ناحيته ٠

وكان صاحب الدكان يفحص عمل مساعده ، ويرقب صاحبة الملاءة بنظرات جادة سريعة ، وقد جعلها الحر تخلع الملاءة كلية وتضعها على منضدة مجاورة ، وظهرت ساقاها الممتلئتان فاتجه الى درج مجاور ، أخرج منه شاكوشا صغيرا وعاد وهو يهزه فى يده ٠



دق بضع دقات ثم أشار الى مساعده فبدأ يعمل ولكنه نحاه باشارة من يده واتكأ على ركبته متوليا الأمر بنفسه بعد ان نظر الى الشابة ، مبتسما هذه المرة ، لم تبادله الابتسامة ، ولكنها كانت ترقبه وهو يعمل بنظرة فيها الاعجاب والفضول، وشىء ثالث تصعب ترجمته ٠

ثم انتهى من مهمته ونهض ، وأمسك عجلة الدراجة بساقيه محاولا تحريك ذراع القيادة ليتأكد من ثباته الآن ، فلما لم يتزحزح نظر الى الشابة وبسط كفه مشيرا الى الدراجة ، فتقدمت واخذ مكانه لها ، وقامت بنفس الحركة مما أدى الى انحنائها وظهور بعض التفاصيل التى كانت خافية الى الآن ، ومنها (على سبيل المثال فقط) بطن ركبتيها ، وفى كل منهما خط افقى ينتهى من ناحية الساق الاخرى بتغيير فى اللون يكاد يكون غير ملحوظ، الا للنظرة الفاحصة التى كانت الآن تظهر فى عينيه بشكل صريح ٠

انتهت من تجربتها واتجهت الى حيث كانت الملاءة ، وقد دست يدها فى صدرها، وكان الشاب يرمقها وقد بدا عليه القلق ، ثم حانت منه نظرة الى الطفلين ، وكان طفل السيدة قد بدأ يجذب الطفل الآخر الى ناحية الدراجة ٠٠ ضحك الشاب بصوت مرتفع وهو ينظر الى صاحبة الملاءة،فتركت الملاءة ثانية وجاءت تتفرج ٠ ونظرت الى الشاب، مبتسمة لأول مرة ٠

انقاد الطفل ذو الجلباب بهدوء الى الدراجة ، وما زال اصبعه فى فمه ، وكل شىء فيه كما هو لم يتغير ، نظرته وكل شىء ، فيما عدا أن الذباب بدأ ينصرف بهبوط الظلام ٠ أخذ طفل السيدة يجذبه بالحاح ٠٠ وأخيرا رفع يده من فمه ووضعها على مقبض الدراجة وقد تغيرت ملامحه لأول مرة معبرة عن الرهبة ، ونظر الى السيدة متسائلا ٠٠٠

نظرت الى ساعتها مرة أخرى ، ولكن طفلها كان قد اقترب منها وبدأ يجذبها من يدها باستماتة،

فطاوعته ، وقال شيئا لم يفهمه أحد الا هى فيما يبدو ٠٠ ولكن الباقين رأوه وهو يشير الى الطفل الآخر ثم الى مقعد الدراجة ٠

تبادل الشاب وصاحبة الملاءة النظر ، ثم الابتسام ، وتحركا لنجدة السيدة ، ولكن طفلها صرخ محتجا ، فرفعت الطفل الآخر وأجلسته فوق الدراجة ، فأمسك بمقبضيها ليحافظ على توازنه ، ونظر الى صديقه الذى كان يقفز طربا ٠٠ نظرة جامدة ، ثم بدأ يهز احدى ساقيه هزا خفيفا ٠

بدأ طفل السيدة يحاول دفع الدراجة، فتحركت السيدة بسرعة وحاولت منعه من ذلك كما تحرك الشاب وصاحبة الملاءة والصبى ، ولكنه صرخ محتجا فابتعدوا ، وبدأت السيدة تشارك طفلها فى دفع الدراجة وراكبها يهز كلتا ساقيه ٠

تحركت الشابة ثانية الى حيث كانت ملاءتها ، فلفتها حول جسدها فى غير احكام ، فلمست الاجزاء البارزة منه منبئة عن ابعادها فى غبر تفصيل ، واطمأن صاحب الدكان الى أن السيدة الاخرى لاتراه لانشغالها بما هى فيه ، فتفرس فى الملاءة محاولا أن يجسم محتوياتها فى مخيلته ٠ استدارت واتجهت ناحيته وفى يدها كيس نقود٠ فتحته وأخرجت ورقة مالية ، وقالت شيئا أجاب عنه الشاب بهزه من رأسه تحمل معنى النفى ٠ اطرقت قليلا مفكرة ثم مدت يدها ثانية بالنقود فأمسك بمعصمها ورفع اصبع يده الاخرى وهزها بما يفيد النفى أيضا ٠ ثم أشار الى الدراجة التى جاءت بها معها وبسط راحته وهو يهز رأسه ٠٠ اعادت النقود الى الكيس ودسته فى صدرها ٠ واتجهت الى دراجتها وحملتها بين ذراعيها فانزلقت الملاءة من فوق شعرها ، فسار صاحب الدكان الى صبية ووضع يده على كتفه وانحنى يحادثه ٠ تحرك الصبى بسرعة وحمل الدراجة ، حاولت أن تأخذها منذ فنظر الى الشاب متسائلا فهز اصبعه نفيا ، فحمل الصبى الدراجة وخرج ، وأصلحت الشابة ملاءتها وصافحت صاحب الدكان مبتسمة فأبقى يدها فى يده حتى أوصلها الى الباب ٠

وكانت السيدة قد تعبت من دفع الدراجة فتوقفت ، وحملت الصبى صاحب الجلباب وانزلته الى الارض ، وقف طفلها يرقب هذه الحركة ، ومرت لحظة صمت قصيرة ، ثم اتجه الى الحائط واسند رأسه وشهق ، ثم انفجر باكيا ٠

اتجهت اليه بعزم وجذبته من يده ولكنه رفض ان يتحرك ، فأدخلت طوق حقيبتها فى ذراعها وحملته رغما عنه ، وتلفتت حولها ولكن الشاب كان واقفا على باب دكانه يرقب الطريق، أو هكذا بدا لها ٠ أيقظه بكاء الطفل من شروده فأسرع الى مساعدتها ، وحمل الدراجة وسار خلفها خارجا من الباب ٠

وكان الطفل الذى يرتدى الجلباب قد بدأ يتحرك هو الآخر ، خرج الى الرصيف الى ما وراء الواجهة الزجاجية حيث وجد عتبة مرتفعة قليلا ، جلس فوقها ٠ وكان الطفل الذى تحمله السيدة ما زال يبكى وهو ينظر الى الطفل الآخر ويمد ذراعه مشيرا اليه ٠ وتوقفت السيدة ، وبصعوبة كبيرة فتحت حقيبتها وأخرجت منها شيئا ملفوفا فى ورقة فضية ، وتوقفت ثم مدت يدها الى الطفل الجالس على الارض ٠ فأخذه منها فى صمت ٠ وسارت الى السيارة وكان طفلها مازال يبكى ، فمد له الشاب ذراعيه بالدراجة ولكنه دفعها بيده غاضبا ، وتلفت الشاب خلفه فرأى صاحبة الملاءة والصبى ينتظران لحظة مناسبة لعبور الطريق ٠٠ كانت مصابيح السيارات والشارع قد أضيئت ، ولمعت لافتات النيون ٠٠ التفتت صاحبة الملاءة وتلاقت انظارها بأنظار الشاب وهو ينحنى ليضع الدراجة فى سيارة السيدة، ثم استدارت وسارت مبتعدة وقد حبكت الملاءة حول جسدها فبدا واضحا تماما بكل تفاصيله رغم ابتعادها وهبوط الظلام ٠ انطلقت السيدة بسيارتها مسرعة وقد اضاءت مصابيحها ، كان الوقت متوسطا تماما بين النهار والليل ، وقد اختفت جميع الظلال ، اختفت تماما ٠





الارنب وملك الفيلة عند بئر القمر
كليلة ودمنه ـ سوريا ١٣٥٤ م ـ مكتبة اكسفورد

القصة والفن التشكيلى فى المخطوطات القديمة

كان تصوير المخطوطات من براعات الفن الاسلامى ، بل كانت الصورة مكملا للكلمة ... واحتوت الكتب بدائع الفنون التشكيلية من الخط والنقش والتذهيب والتلوين ..

وفيما حفظه الزمن من المخطوطات القديمة كنوز تدل على حضارة عريقة وحس رهيف جعل من الكتاب فنا رائعا بل محتوى لعديد من الفنون .

ولقد أبرز الأستاذ أرنولد فى مؤلفه « الكتاب الاسلامى » جوانب الفن فى المخطوطات الاسلامية التى تحرص دور الكتب والوثائق فى العالم على اقتنائها .

وتجلى الولع بفن التصوير فى الكتب ، وعلى الأخص فى القصص بمعناها الواسع من سير وحكايات نثرا كانت أو شعرا .. وكان القرن السابع الهجرى بداية ازدهار لهذا الفن ... أولع الناس فى العراق بتصوير الكتب ومن أروعها مقامات الحريرى وما سجلته من حكايات

أبى زيد السروجي فى تصاويرها القــاهرية أو البغدادية .

ثم ازدهر هذا الفن فى فارس بما تميزت به من عبقرية تصويرية وشغف باللون تمثل فى تصاوير رائعة أبدعتها المدارس الفنية المختلفة.. وفى هذه التصاوير جنوح الى العنصر القصصى بل هى تعبير تشكيلى عن حوادث وحكايات يتمثل فيها صليل السيوف وعــراك الرجال ونجوى المحبين .

من خلال هذه التصــاوير تعايشــنا قصص يوسف وزليخــا . ومنــاجاة خسر وشيرين ، ومشاهد ليلى والمجنون يقاد فى أغلاله الى ربعها .

ومن أروع المخطوطات التى صــورها الفرس بستان ســعدى وكلســتانة وديوان حــافظ والمنظومات الخمس لنظامى والشاهنامة للفردوسى بل انه يقــال أن الفردوسى نظم الشاهنامة فى غرفة تزينها الصور كان يستوحيها أحداثها .

ولقد تميزت التصاوير الفارسية بسطوع اللون والحس البســتانى الذى يتمثل فى الاهتمــام بتصوير الحدائق والهيام بالزهور والربيع .

وكان للفنــان المصور مكانة سامية فى هذا العصر حتى أن الشاه اسماعيل راعى المصــور الفارسى العظيم بهزاد حرص على اخفائه فى بهو مع الخطاط شاه محمود نيشابورى عندما قامت الحرب بين الشــاه والأتراك فى القرن العــاشر الهجرى ذلك لأن سلامة المصور والخطاط كانت تعنى عنده الحفاظ على القيم الحضــارية التى يمثلانها .

ومن أكثر الكتب التى حظيت بعــديد من التصاوير كليلة ودمنــة سواء فى مخطوطاتها الفارسية أو العربية ، كما سجل كتاب الأغانى صورا لبعض الأحداث والحــكايات التى حفل بها .

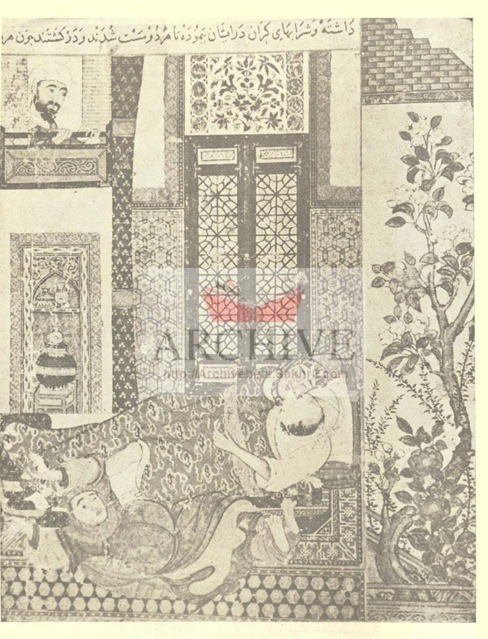
وعندما ترجم ابن المقفع كتاب « كليلة ودمنة » جعله مصورا وأشار فى ذكر أغراض الكتاب الى أن ذلك يعين على أن يكون الكتاب أنسا للقلوب ، ويكون الحرص على قراءته أشد للنزهة فيما حفل به من صور .

لقد كان لقاء حضاريا رائعا ذلك الذى تمثل على صفحات المخطوطات الفارسية والعربية فأضفى على الكلمات نبضا وايقاعا وجلا رؤى ماحوته من قصص بالمزاوجة بين التعبــير بالكلمة والتعبير بالشكل .

بدر الدين أبو غازى



كليلة ودمنة
ملك الغربان يســدى النصيحة من مخطوط سورى المصور «اخمالا» ١٢٠٠ ـ ١٢٢٠م المكتبة القومية ـ باريس



كليله ودمنه ـ شروع فى فتل تبريز (١٣٦٠ ـ ١٣٧٤) مكتبة جامعة استنبول ـ قصر يلدز

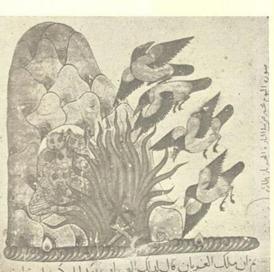


مشهد حب
تصوير
محمود يوسف
الحسيني حوالى
سنة (١٦٣٠)
نيويورك مكتبة
مورجان

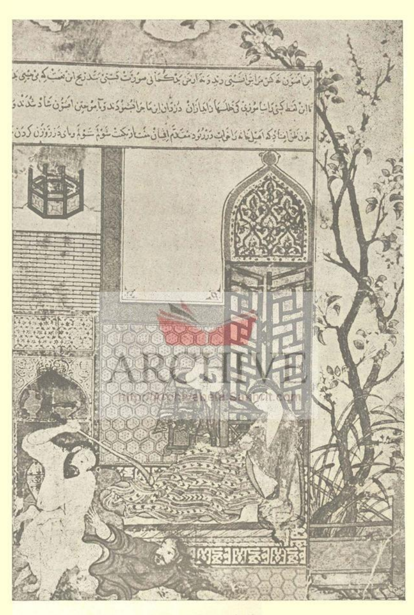


السجناء أمام خسرو ـ شيراز (١٤١٠) لشبونة ـ فارس

من كتاب عجائب المخلوقات ـ قصة القرد
وجمع الفراكه من الشجرة ـ مدرسة بغداد
(١٣٨٨) المكتبة الوطنية ـ باريس



كليلة ودمنة
البوم والغربان
المكتبة القومية بباريس ـ النصف الثانى
من القرن الرابع عشر الميلادى



كليلة ودمنة_ اكتشاف اللص فى المخدع – تبريز (١٣٦٠ –
١٣٧٤) مكتبة جامعة استنبول



مختارات الاسكندر ابن عمر .
اسكندر يراقب عرائس البحر ـ شيراز ١٤١٠ ـ لشبونة

محمد روميش





١

.. الاظلاف السنة عشر تضغط وجه الارض فى قبلات متلاحقة ، ثقيلة ، تاركة خلفها صفين من الاقواس الهلالية.

سلاح المحراث يشق سطح الأرض . قبل أن تندمل شفيرتا الخط المشقوق يسقط وسطه سرسوب منتظم من حبات الذرة فيلتئم عليها ـ كالرحم ـ يتهيا لميلاد جديد .

كف عم الوهيدى اليسرى تمسك بيد المحراث خشية أن يسيخ أعمق من العمق الذى يريده لانبات الذرة . يمناه تضم أحبالا طويلة تنتهى الى آذان بقرتين سوداوين ، يخلص نسبهما بحكم المجاورة فى الزمان والمكان ، الى نسب عم الوهيدى . بالأحبال الموصولة يعيد الرجل البقرتين أو احداهما الى الخط اذا ما عن لايهما أن تنحرف عنه .

على الكتف اليمنى ، تستقر قلقة فرقلة تلسع ، عند اللزوم ، الجلد الاسود الفطيس ، وهنا يبذل العجوز مجهودا منتبها : ليحفظ توازن العمق والاستقامة للمحراث، وليشرخ ظهر الحيوان بالسوط ، وقبل أن يفلت منه واحد من خيوط العملية ، يرتفع صوته مخاطبا واحدة من البقرتين يميزها بشدة ودودة من أذنها .

ـ لا .. ارجعى

وترجع البقرة بعد أن تنفض رأسها نفضتين : علهما تململ أو مشروع تمرد مضى عليه ستة آلاف سنة ولم يتحقق ، على انهما ـ النفضتين ـ لا تخلوان من عتاب دينى صامت مستسلم قدرى حزين .

على هذه الأرض نفسها رعى عم الوهيدى جاموسة المرحوم ابيه . كانت الأرض هيشة ، تغطيها اعواد الغاب الرفيع واشجار الطرفة والسمار ويفرش سطحها حصير من النجيل والحلفاء ، وفى الحوافى شجيرات السريس والجلاوين ، وبركة دائما عمق أصبعين من الماء يسمح لسمكة او ضفدعة أو ثعبان مائى أن يعمر بالحياة سطح الهيشة .. ويحار العجوز ، الآن ، كيف أن الآباء الهبل تركوا أرضا واسعا كهذه هيشة ، لمجرد رعى الجاموس الأعجف والبقر الناشف . لم يقتنع بينه وبين نفسه ان الأرض يفصلها عن البلد مشوار طويل .

كان صغيرا لا يستطيع أن يرفع مقطف السباخ الى ظهر الحمارة يوم تعارك مع الواد بركات ابن ستهم . يومها اتلم العيال ـ تاركين البهايم تنحت أوراق النجيل . خلصوا رقبة بركات من قبضتى الوهيدى (بقوله روحى لى يا هوه) ..

ـ كانت الأرض دى كلها هيشة ياسيدى الوهيدى ؟ ـ السؤال من امرأة أبنة عبد الشاطر . مناسبة من تلك التى ينتظرها عم الوهيدى ، ليفيء عليها مما رآه بعينيه هاتين.. البلد ، أكوام السباخ ، الدور التى كانت تشفى بالرجال والخير وصفصفت على امرأة ، بيوت عائلة السوالم ، التى سمع من أبيه أنها قامت كالنبات الشيطانى ، أسماء الصف الطويل من نظار الوقف . لكن الوهيدى ـ اليوم ـ لا يصلح لاسترخاء المصطبة ، ولف السيجارة ، وولعى يا بنت عودين حطب فى الطاجن ، وهاتى كنكة القهوة وفنجان البيشة ..

التفت الرجل الى امرأة ابنه ، الجهامه المنبسطة التى استأثرت بتفاصيل الوجه .. مطلة . تجاهل السؤال عن تاريخ الأرض . استفسر عن كمية تقاوى الذرة المتبقية ..

عندما استدار المحراث يشق الخط الثانى كان عم الوهيدى قد قارب على الانتهاء من حرث أرض الهيشة وتحويلها الى حقل ، طاويا دون قصد صحيفة ربما هامشة ورخية من حياة الهيشة ..

أدار البهائم .. فى وسط الجسر الذى أقامه السيد أبو دراع ، سلط عم وهيدى سلاح المحراث . شخلل بالفرقلة . الاظلاف غاصت فى الأرض لترفع الحد بين أرض عم الوهيدى وساحل السيد أبو دراع .

من وسط الهيشة التى غدت حقلا ، رفع عبدالشاطر ظهره . كان يعالج بصبر خلع جذور الغاب . قبل أن ينحنى لمح المحراث . البقر يتعثر فى شق الحد .

– واد .. واد يافتح الله .. على الطلاق أبوك أشطر رجل في البلد .

فتح الله لا يرد . الشغل لم يدعكه . فلاح خفافى . ظهره يكاد أن ينكسر نصفين . مع انه يعمل فى أرضهم لكنه ينتظر غطوس الشمس . على أنه – فتح الله – حقيقة لاتهزه صفة الشطارة ، فى أبيه بالذات ، ومن أخيه عبد الشاطر على وجه أخص . فى أعماقه أن أخاه عبد الشاطر – بشعره الاسود الهبابى الخشن يغطى جسمه ورأسه ووجهه ، بكلماته القليلة المتقطعة – جنس آخر . دون أن يشرح عم الوهيدى فكرته من ضم قطعة الارض التى يزرعها السيد أبو دراع ، فهم عبد الشاطر كل شيء . ليس بالتحديد فهم ، أحس الفكرة كالجسم المقرور يحتمى بحجرة دافئة تلفحه كل حراراتها . اضافة ساحل السيد أبو دراع تخلق حقلا مربعا يستهوى الشهوة والفتنة في روح عم الوهيدى ، كما تستويهما فى روح ابنه عبد الشاطر ، الوهيدى الثانى .

عبد الشاطر لم يتذوق ما يمكن أن يسمى معارضة أخيه فتح الله لفعلة أبيه . عبد الشاطر لايدرى اتيان مايشكل دفاعا عن فعلة أبيه . ارادة أبيه كسقوط المطر ، كموت طفل صغير .. اللهم لا اعتراض .

– جاتك الغم ياد يا فتح الله .

احس عبد الشاطر حيود فتح الله .. تضايق .

– واد يافتح الله .. أقولك .. والله .. ماانتنافع

أمسك عبد الشاطر بذقنه ، تغطيها أبر الشعيرات كجلد القنفذه .

الخط الثانى شقه عم الوهيدى في ساحل السيد أبو دراع .

حامد لمح السيد أبو دراع مقبلا جريا قاصدا عم الوهيدى .

– حوش يا عم عبده !

قبل أن يصل السيد أبو دراع الى عم الوهيدى كان سوط الفرقلة قد لف حول رقبته ، وقبل أن يقذف السيد أبو دراع السكينة الطويلة أم حدين والتى يربطها دائما على اللحم لصق فخذه ، كان عبد الشاطر قد أحاطه بذراعيه من الخلف . كانت فاس قد هوت على رأسه ، وانبثقت نافورة دقيقة من دم أحمر . التقت عيون فتح الله وحامد . مذهولين كل يسأل الآخر مرتعبا .

فك عبد الشاطرذراعيه . سقط السيد أبو دراع . ابن الليل التائب .

أجال أبو دراع فيمن حوله من الرجال عينين مغبشتين. رآهم لا بسبب انعكاسهم على انسانى عينيه ، علها صورة قديمة تخيلها وانبعثت من داخل مخه كما انبعثت على طرف لسانه أو من مراكز النطق من مخه جملة أعدها قبلا .

– معلهش .. جزاة اللى يعيش نعجة بين الديابة



فتح الله تنقله الخطوات الحائرة . الليل يقارب أن ينتصف . فى عينيه الظلام رفع الفاصل بين البلدوالحقول بدت له الجهة كلها قطعة بلا نهاية من السواد ، الدور ذاتها نامت ، الكلاب على السطوح وفى الحارات تتناوب النباح .. تترصد الغرباء والذئاب وسيدنا عزرائيل الذى يهبط ويقبض الارواح . العفاريت انطلقت من عقالها تحت الارض . القطط والكلاب والارانب التى تنسل من أركان الحارات ومن فوق أكوام السباخ والتنفس الذى يسمع ولايرى مصدره .. حقيقتها فى يقين فتح الله عفاريت متخفية . فى القاعات المغلقة . الرجال والنسوان والعيال فى سابع نومه . على المصاطب المسطوحة ، على قباب الافران ، على الحصير ، على قش الارز ، المهم ان عيونهم اغلقها النوم ، واستسلمت أجسامهم للراحة . خارج الدور لاحياة لغير القطط والكلاب والعفاريت والذين تعكرت دماؤهم ولم يصاحبوا الفراخ فى استسلامها للنوم مع غطسة الشمس .

.. من خلف جسر المصرف انحدرت عصبة من الرجال. بندقية ميزر معلقة في كتف كل منهم . الجلاليب مقروطة عند الركب . ينسلون لا تحس بهم النسمة نفسها . اعترضهم كلب عم السبخاوى . تشممهم بصبص بذيله . تسلقوا السطح . سعل واحد منهم انتظارا أن ينادى عم السبخاوى . البر أمان . أعطى الرجل الاشارة . هبط الآخرون . كوز الشاى على قوالح الذرة المشتعلة في الطاجن . جوزة نحاسية صفراء سحبت . مع المعسل تحترق تعامير الحشيش . بدأ التحفظ على أولاد الليل . المطاردة – رغم كل أمان – دقات قلبهم . عم السبخاوى . خفير الحكومة القديم لم يفته قلق ضيوفه . قدم لهم الغريب . فتح الله ابن عم الوهيدى . فتحوا سيرة السيد أبو دراع. حزن بين أن يكون عميقا أو مألوفا – يرتسم على أوجه الرجال – ايمانهم أن القتل قدرهم . تطاردهم عقيدة أن من قتل يقتل .

فى انتظارهم الطويل للخاتمة يقتلون اذ يقع واحد منهم . الحزن ليس من أجله وحده . العقيدة اللعينة تطاردهم ، وتتحقق . عم السبخاوى – هامش من هوامش



رجال الليل لايحس عمق كربهم . شد واحد منهم نفسا من الجوزة . طرد الدخان من منخاريه كالبندقية أم روحين. وجه السؤال الى فتح الله .. من قتل أبو دراع . فتح الله ماخوذ . بدا له جلساؤه من الرجال صورة خرافية لأبى زيد الهلالى سلامة ، الزير سالم . الصور البشرية تملأ ملامحهم، لكنهم أولاد ليل ، لاينامون فى المغرب مع الفراخ . خال رؤوسهم محلوقة واقفة لاتعرف الانحناء لاحد . يستيقظون مع حلول الظلام . فى الليل الدنيا ـ لا الارض ـ ملكهم . أحاديث أبيه مع السيد أبو دراع .. والله ياابنى مافى أحسن من اللقمة الحلال .. الضحكة أطلقها أبو دراع مجلجلة . أبو دراع يطلق كلماته بلا خوف أو لجلجة . حلال والا حرام ياعم الوهيدى .. لاتؤاخذنى ، انت رجل كوالدى ، يعنى عيلة السوالم لامؤاخذة كانت الارض أرض أبوهم . أنا سمعت وأنت أدرى انهم ناس أغراب عن البلد . كل أهالى البلد شغالين عندهم . جابر أفندى أبو سالم ياما ضربنى بالشلوت وانا بعزق فى أرضه بالفاس . بعد كده على الحرام ياعم الوهيدى بنفسه كان يقوم يولع لى السيجارة . ياعم الوهيدى أن عشت نعجة تأكلك الديابة . ياما اشتغلت فى أراضى أولاد الكلب . ناس تخاف ولاتختشى عم الوهيدى لايعترض ، لكن الحلال والحرام بينهماالتفرقة جليه كالخيط الابيض والخيط الاسود . اسمع ياعم الوهيدى .. أنا بلا زوجة ، لكن على الطلاق أرض اولاد الكلب حرام ، اسمع ، اسمع يارجل ياعجوز .. رد على .. أرض السوالم تعبوا فيها ، عرقوا فيها ، كل أهالى البلد نسوان ورجال وعيال ، شغاله عندهم ، حلال أم حرام . الرجل العجوز يدعك عقب سيجارة فى سمك فتلة دوبارة احترق حتى آخره . يدعكه بطرف سبابته في أرضية المنضرة . يلتفت الى السيد أبو ذراع . يشب من على الارض . انزلقت عباءته الامبريال من على كتفه . لم يهتم بلمها . اسمع ياواد ياسيد ، اسمع ، رد على .. يعنى ياسيد عدت رجل ، يعنى ياسيد عدت بتفهم ، عدت بتعرف ، رفعت رأسك ، رد على ، رد على ياسيد ، عينى فى عينك ، فهيم بن زينه لما مسكوا مراته مع جابر افندى أبو سالم ـ وفهيم قام سم بهايم جابر افندى مين قتل فهيم بن زينه ، رد ، رد على ياسيد ، عينى فى عينك . فتح الله لايعرف بالتحديد من الذى قتل السيد أبو دراع. السيد أبو دراع كان رجلا ، لكن من قتل فهيم بن زينه . القلق المتسائل الذى يطوف بفكر فتح الله يعوزه التعبير عنه . كلمات أبيه تنطلق كطرقعة الفرقلة . انكر فى التحقيق انك ضربت ، حامد هو الذى ضرب . حامد ابن الدار ، امه طرف قرابه لايهم ان كانت قرابه بعيدة . ولد وتربى كابن .. كان فتح الله يحب السيد أبو دراع . كان يستشعر نوعا من الفرح . سيصيران جارين فى الارض . سيسمع منه حكايات الليل . لكن ياعم سيد انت خلاص ، قصدى شغل الليل سبته ؟ لكن ياعم سيد من قتل فهيم بن زينه ، مين قتل فهيم بن زينه انتقاما لحساب جابر أفندى . انت لست كأخى عبد الشاطر ، عبد الشاطر طيب ، راجل غيط، يحب أباه موت ، يخلق الشغل فى الغيط من تحت الارض، قبل الفجر ديله فى اسنانه الى الغيط ، راكب حمار ، ساحب بقرة ، الفأس فى يده كالسيجارة في يدك ياعم سيد يحب طين الارض أكثر من حبه لحريمه ومرة كان يتغدى وانسل عود برسيم مع اللقمة ، لم يرمه ، ضحك ، ياواد



يافتح الله كله خلقة ربنا ، البنى آدمين والبهائم والسريس والبرسيم .. فكرته الثابتة ان فتح الله خسران .

هانم ـ فى غندرة ـ تلقى تحية الليل على الرجال . الحديث الدائر عمن قتل السيد أبو دراع . فتح الله ، صدقونى ، لم يقتل السيد أبو دراع . الذى قتل هوولد شغال عندهم . حامد . فتح الله يؤذيه من دفاع هانم عنه وصف حامد بالشغال . حقيقة حامد ليس ابن عم الوهيدى ليس أخا لفتح الله أو عبد الشاطر ، هو يعمل فى الغيط والبيت ، هو منهم أو ليس منهم مسألة لم تطرح على ذهن فتح الله ، لكنه لم يخطر بباله ان حامد شغال . وقف عم السبخاوى ووقف فتح الله . الصينية حملها من على رأس هانم . بهدوء وضعت أمام الرجـال . على طرف المصطبة جلست هانم تعد الشاى . دعت فتح الله الى مشـاركة الرجال الاكل . عاودت تأكيد اتهام حامد بقتل السـيد أبو دراع . عم السبخاوى وقد فتحت له ابنته الطـريق اندفع . حامد هو القاتل ، ولد ضائع بلا أصل ، بلافصل ولدته امه فى بيت الحاج وهيـدى ، ماتت وهو مفعوص فتح الله ابن ناس . عم السبخاوى يسترضى ابنته هانم بمدحه فتح الله . فتح الله لم ترقه الطريقة التى عرض بها الموضوع أمام الرجال . هو لايعرف من الذى قتل . حامد سواء كانت فاسه هى التى ضربت أم لا ، واحد من العائلة . صمم على أن يدفع عن حامد الاتهام المؤكد .. الجـسراة لاتواتيه . سكت .

الصمت الذى يلف الجهة كلها امتد الى مصطبة عم السبخاوى داخل القاعة ، شخير عيال عم السبخاوى سمع من حجرة مجاورة . طال الصمت . طلب احدهم من فتح الله أن يستأذنهم . تدخلت هانم فى القاعة الجـوانية . خففت ماظنته اساءة الى فتح الله . ملعون أبوهم ، ليس فى الاعـسر ، وراءهم سرحة ، عينهم على مواشى واحد غلبـــان سيسرقونها الليلة . نددت بالرجال . فتح الله ليس غريبا عن بيت السبخاوى ، مع أن الضوء ضعيف أو منعدم فقد لمح فتح الله سنة من أسنان هانم مغطاة بالذهب البراق تلمع خلف شفتيها .



٣

فى الصباح اذ أنكرت هانم ان فتح الله ينام فى القاعة الجوانية لم يكن قصدها أن تكذب على الرجل الكبير الذى تهىء نفسها لان تدور فى فلكه . خوفها من جهامة عم الوهيدى الجمت لسانها . تخلى عنها تفاصحها . فتح الله بالداخل بين اليقظة والنوم خمن تقريبا ماحدث ثم قرصه صـوت رشاد بن جابر افندى يسأل هانم عن اخواتها . رشـاد افندى يشتم اولاد ستين الكلب . يتساءل مستنكرا لا يسرحون الى الغيط دون أن يوقظهم من النوم عشرين مرة ، ويسوقهم من الدار الى الغيط كالحمير .

تدخل هانم القاعة لاتدرى كيف تتحدث الى فتح الله تريد أن تؤدى -ايشـبه الاعتذار . سى فتح الله عارف

رشاد بن جابر افندى كأهله . ناس لسانهم طويل .ملعونة لقمة العيش التى تذل الناس . السيد أبو دراع هج من وشهم . هانم اقترحت على أبيها أن يقطع علاقاته بجـابر افندى ، وان يعمل اخوتها فى أراضى الفلاحين . كله عمل باليومية . عم السبخاوى اتهم ابنته بنكران الجميل . العمدة ياهانم خيره راكبنا ، شغل السبخاوى خفيرا فى الحكومة ، وانتقاه من بين الخفراء ، كان تابعه كظله . هانم تسقط هذا الجزء من دفاع أبيها عن جابر افندى . يحس فتح الله ان فتاته محاصرة . لايهم ، المهم انت ياهانم ، بعدك لاشىء يهم . امسك بيدها . تفحص وجهها . فيـه من أبيها سمرته ، من آمها صفرة باهتة . أحس به لامعـا نظيفا . تطل من أعلاه عينان . أطال فتح الله التحديق . النور الساقط من فتحة السلم على صحن الدار منعكس على وجه هانم . العينان سوداوان . الحاجب رفيع . الرموش سوداء طويلة . الرموش تتلاقى وتنفرج . الكحل الاسود كان قد صبغهما فى الصباح الباكر قبل أن يستيقظ . سألها هل تعرف أن عينيها حلوتان . هانم بين أن تقفعند الحديث عن حلاوة عينيها تخرج من الحفرة التى أوقعها فيها أبوها واخوتها وامها ، وبين أن تطلب منـه أن يمر سريعا . عليه أن يعرف أن فتـاته مـؤدبة . البنت ياسى فتح الله باخلاقها . فتح الله يؤمن على الحكمة التى ألقت بها هانم . امسك بيدها . تأمل عينيها . سأل هل حقـا تحبه . هانم تعترض أن يرحل بها فتح الله بعد الزواج الى بلاد بعيده . رجل الليل بلا بيت . لايملك نفسه . يخرج للسرحة لايعرف متى يعود . وقد لايرجع أبدا . هانم .. ابن الليل رجل .. رحم الله سيد أبو دراع .. لم يعجبه حال عائلة السوالم مع أهـالى البلد . هانم تعود بشـدها خوفها . أنت فين ياسى فتح الله وأنا فين . هى يكره منها هذه اللفة أو هذه الكلمات . هى تلف بالكلمات تخفى بها

رفضها متعللة بالغنى والفقر . الناس أولاد تسعة . ضغط على يدها . تأوهت ، سحبت ذراعها . خنقه صوتها الناعم المنغم الساخن كلسعة ضوء القمر . ضغط يدها . ركبها غضب مفاجىء . نشجت . انفجرت باكية . ليست واحدة من اياهن . فقيرة لكنها تحافظ على شرفها . الحلال أحسن. ارتبك . تذكر اللحظة التى فوجىء فيها برأس السيد أبو دراع مدشدشة بفعل فاس . فاسه هو . فاسه أم فاس حامد .. بتحسسه الحابى هانم على حق . المرأة على غير زوجها حرام لم لم يتزوج السيد أبو دراع .. حرام أم حلال ـ ماذا كان سيقول السيد فى هذه المسألة . بارتباكه تقدم يعتذر اليها . هو يحبها . لايفرق بين نظره تمسح وجهها وصدرها ونهديها ، بين دقات صدره هو كالطبل اذ يسمع صوتها وبين يده تضغط يدها . خالتى نرجس فتحت باب الدار . عقب الباب الواقف على قطعة صخر يلف فوقها . يزيق . مسحت هانم دموعها . لم تنظر الى فتح الله لكنها كانت تراه . حدثته بصوت رائق ، صوت لا أثر فيه لدموع أو نشيج أو وعظ أو ارشاد . عليه ألا يزعل . هى الاخرى ـ بصوت خفيض ـ تحبه .

الأم حيت فتح الله بحفاوة . سيدة تربت فى بيوت الثراء . بيت جابر أفندى . يسرها احساسها بقيمة أن يكون للانسان أرض يملكها وجاموسة وبقرة وعلى سطح بيته كوم الذرة . شرفتنا ياسي فتح الله ياابنى . أبوك رجل ولا كل الرجال . تبحث عن كلمات ترفع بها الحاج وهيدى عن حضرة العمدة . قدمت أرغفة ساخنة لفطوره . الى جانبه على المصطبة جلست هانم تنفخ فى القوالح تشعلها فى الطاجن . تعد الشاى . فتح الله لا يحب أن يشرب كرسى معسل على الصبح . ليس كيفا منقوعا . أين هو من أبيها السبخاوى ، الكييف الذى صاحب الجوزة قبل أن تولد هانم وقبل أن يتزوج الام نرجس . يمسك القوالح الملتهبة بين سبابته وابهامه . يرصها على المعسل . يضغطها ببطن ابهامه . أحست هانم بوضوح باحتقار لفتح الله . استصغرته . ليس رجلا . أولاد الميسورين تنقصهم الرجولة دائما أحست بعمق بنقيصة لاتغتفر فى أخلاق فتح الله . ألا يستفتح اليوم بكرسي معسل . فتح الله لاتذهب ظنونه ولايصدق ـ لو سمع ـ أن تكون هذه معتقدات وليفته . هذه بالذات يعدها مزيه تقربه من الناس الذين يكره تعاليهم عائلة السوالم الذين لا يشربون الحشيش الا فى الليل .

حوشنى ياسى فتح الله . استغاثة من السطح لواحد من اخوات هانم . حاولت أن تمنع فتح الله من الصعود الى السطح . صعد اخوات وليفته الذكور الثلاثة رءوسهم مكشوفة فى الشمس ، تبقعها فتلات من الشعر . الجلدة حمراء ، بيضاء ، مشقوقة ، ينز منها الدم . ليس دما أحمر ساخنا كالذى انبثق من راس السيد أبو دراع . دم أصفر ، أبيض ، دم دهنى . امرأة غريبة . ليست من البلد تجلس ناهضة على قزحها ، تشد بقوة قطعة رقيقة من جوال سماد كيماوى . طبقة القطران الاسود الرقيقة التى يشمع بها الجوال من الداخل ملتصقة بجلدة الرأس المتقيحة الجرداء . المرأة تشد قطعة الخيش بقوة . قطعة الخيش

لرقيقة تتمزق مرة بين يدى لمرأة ومرة يطلق لولد صرخة ستغاثة . شريحة من الجلد المعيوه تتمزق ملتصقة بالخيش. خالتى نرجس ممسكة بكل قوتها . هانم ركبها عفريت . شتمت امها . لعنت الاولاد وأباهم . لعنت اليوم الاسود الذى ولدت فيه فى هذا البيت . سحبت فتح الله من يده. متى سيتوب الله عليها من هذه الدار النكد . رصت كرسى معسل . مدت غابة الجوزة الى فتح الله . لقمها وشد نفسا عميقا كما لم يفعل من قبل . يقاوم رغبة فى التقيؤ. أحس الحرج مرتسما على وجه هانم . حاول أن يخفف عنها. أحس بها تريد أن تبكى لو أن فتح الله أمسكها من يدها لصحبته الى داخل القاعة الجوانية . تعرف ان البلد كلها تصف اخواتها بالقرع . لحظة تعيسة من حياتها حقا أن تحضر المداوية لتعالج اخواتها وفتح الله بالدار . لم تصل الى أن العلم بواقعة مايختلف عن معايشتها ، باحساسها أن علم فتح الله بقراع اخواتها شىء ورؤيته للقراع معروضا تحت أشعة الشمس شىء آخر . لحظة ضعف ساحقة تعيشها هانم. تريد أن تفعل أى شىء تشعل فى البيت حريقا. تطرد فتح الله . أحسست نحوه برغبة فى ألا تراه .. منذ عرفته وهى تسير على حبل . تخفى عنه حياة أبيها وأمها واخواتها . من أجل ماذا . هو لايستحق . ولد مفعوص، ولا خير فيه ، ويسرق من أبيه . من لا خير فيه لاهله لا خير فيه للناس . انها تكرهه . تكرهه . ملعون هذا القاتل المجرم ، قاتل كأبيه الوهيدى الملعون قتل صاحبه من أجل سمكه . اسمع يافتح الله .. السبخاوى يقوم باخفاء المواشى المسروقة . عليك أن تعرف . صاحب عملية الافضاء أو التفضفض رغبة بارزة أن تتعرى هانم أمام فتح الله . فتح الله تشغله شفقة عميقة نحو هانم . لم يلتفت .توازت داخل هانم عملية الافضاء مع رغبة فى أن تخنق فتح الله ، تخنقه بيدها ، بيديها تضغط رقبته ، وتلتصق به ،تحضنه

أمسكت بيد فتح الله . ضغطت دون أن تحس.! كانت تبحث عن كلمات ممطوطة لصياغة الخبر . مازالت حالة التقيؤ تشغله . رغم ذلك شدته جديه قاسية تشكل ملامح هانم وتهزها . انفراج واضح بين شفتيها . وفوجىء تماما . هانم تدس غابة الجوزة وتطبق عليها فمها . نفثت من منخاريها سهمين حاسمين من الدخان الكثيف . تموج دخان متسكعا بين فمها والهواء الخارجى . عندما وصلت هانم الى أن البهائم المسروقة يخفيها أبوها فى دوار جابر أفندى أبو سالم ، حضرة العمدة ، كانت قد انتهت من قذف الخبر كانت قد تخلصت من توتر عضلى شد داخلها لم تدر هى الاخرى سببه ، بعده أحست بالضوء يغمر المصطبة ، بارتياح ، حب الهى لفتح الله ، للجوزة ، لابيها ، لضعفه لامها ، لاخوتها القرع ، ليس ذنبهم ان ربنا خلقهم قرعا ، حنين نحو دارهم بطبقة الهباب فى سقفها ، القاعات ، المصطبة ، الباب الخشبى ، السلم ، جذع النخلة المنخور، البلاصى القاعد بجوار المصطبة ، الفرن ، الكانون . التفتت الى فتح الله . ولد طيب ، برىء ، لايجرؤ أن يذبح فرخة ، هجر آباه ، دارهم ، يتحدث عن أمه كطفل ، لم يرها ، ماتت قبلا ، يحب خالته ، ماذا تستطيع أن تقدم

له ، كيف تفديه ، عليه أن يعود الى أبيه ، الى دارهم، لا يجب أن يحرم من خير أبيه ، لا يجب أن تكون هى سببا فى شقائه ، عليها أن تمنعه ـ بعد ذلك ـ عن سرقة الحبوب من سطح دارهم عليها ـ بالذات ـ أن تفصل بينه وبين رجال الليل الأهبل .. يريد أن يكون منهم انهم مساكين وحياتهم ليل ليس لهم بيوت يملؤها الخير كبيت فتح الله . سألها فتح الله لم هى سارحه . أفاقت . فتح الله .. بحبك .. صدقنى .. قلبى أبيض .. ما يشيلشى من حد . حتى عيلة جابر أفندى .. ياسلام يافتح الله .. ياسلام قاومت رغبه مخدره للنعاس المت بجسدها كله . أحس فتح الله كربا يملاه . لها أن تحب كل الناس كل شىء الا عيلة جابر أفندى الا عيلة السوالم . هم أن يسألها . بدت له عليمة بأسرار الليل . هانم .. من قتل فهيم بن زيدان كيف لا تذكرينه فهيم الذى القى السم لمواشى العمدة وهى فى الدوار .



بعد صلاة العشاء على المصطبة الممتدة أمام دكان الشيخ سعيد قعده أولاد الحارة يتخاطفون سيجارة يرصون كرسى معسل يتراهنون على كسر أعواد القصب بسيف كف اليد يتراهنون على أكل قطع الصابون وشرب الجاز وسبب خفى آخر ، التعليق على نسوان الحارة عندما تمر عليهم فى الظلام . بعد الطبخ والاكل وتنويم العيال تتنادى جارات الحارة وكل جماعه قافله صغيره تأخذ طريقها ماره بمصطبه دكان الشيخ الى التلول تفك تكة السروال والجلسات متقاربة الأسرار ـ هى الأخرى ـ حمل ثقيل احتجزنها يوما بكامله لتخفف حالتهن ، تنتهى الجماعات بعد أن يتخففن . عند العودة ليس شرطا أن تكون كل جماعة هى بذاتها التى خرجت ، يعاد تشكيل الجماعات ، التلول حول البلد ملك للحريم فى الليل .

فتح الله يداور ابن خالته . يريد أن يطمئن على عودة هانم من التل . كل عريس يرقب عروسه من رحلتها الى تلول السباخ . لم تعد هانم . ان خالة فتح الله يشده ، ولد عفريت هو الذى كشف فتح الله . قم يافتح الله شوف خالتك . الغائب حجته معه . تعملها المرأة ، لو أن لها الفرض ، وهى نائمة الى جانب زوجها .

ـ ازيك يافتح الله . لمبة الجاز معلقة على مسمار بالحائط . على المصطبة تمدد الاولاد . الخالة قبلته من خده اليمين مرة ومن الخد الآخر مرة . احتضنته . ضمته الى صدرها . امرأة فارعة ، عجوز ماسكة حيلها .

ازيك يا حبة عينى .. عاتبته . ألا تراه الخالة الا بمرسال . لفت من بعيد . سألته عما اشتغله فى الغيط. فتح الله لم يشتغل . تابعت لفها . استفسرت ، الصحة متوعكة ياخالة . وهى تعلم انه يتهرب . تنزعج حقيقة . سلامتك يافتح الله ، ألف سلامه ، خالتك تتحمل عنك . نسيت أنها كانت تداوره لتصل الى خلافه مع أهله . تستقصى نوع تعبه .

ألف بعد الشر عنك . تتعب يافتح الله وامك لاتعرف. ضمته الى صدرها . طبطبت على كتفه . من يدرى ربما لم يتناول عشاءه . قدمت من الموجود . صحن الجبنة القديمة مدهوسة فى المش ، اللفت وأعواد السريس . فتح الله تغير . الخالة رأته قد امتصه الهزال . أبدا ياخاله والله أنا كالحصان . آه يافتح الله ، ياحبة عين امك ، هل تنكر ، عيان وتنكر ، لست أقل من أمك . فتح الله لم يملك نفسه . لو أن الناس كخالته . بكى . قبلته على خديه فى طرقعة . ماعاش من أبكى فتح الله . لاتعرف كم أعزك يافتح الله . سمع اسم امه . نطقته خالته وكأنها تبسمل ، كأنها تصلى على النبى . لايجب أن يبكى فتح الله وخالته على ظهر الارض .

فتح الله لايود أن يعود الى دارهم ، لايعرف السبب بعد يوم حكاية السيد أبو دراع .. كان ولد شهم ياخاله. فتح الله لو كان يدرى ماسيحدث لمنع ، هو نفسه ، أباه عن ضم قطعة أرض السيد أبو دراع الى أرضهم .

كان فتح الله يقيم جسرا . انتبه على زعقة حامد . أبو دراع كان مقبلا جريا . تململ فتح الله . تمنى لو أنه اعترف لخالته أنه هو الذى ضرب . ليلتها حاول أن ينام. تلف فى رأسه المشاهد . صورة أبو دراع مرة جالسا مع أبيه يرد على عم الوهيدى بلا خوف ، فى شهامة . على الحرام ياعم الوهيدى أنا والبندقية فى يدى ماتطرف عينى لجابر أبو سالم ، ولا لعيلة السوالم كلها ، عيلة فى عينى قش ، لا الارض ولا الهيصة تهز طرف عينى .

فتح الله لم يستطع أن يوفق بين أبو دراع الشهم وبين أبو دراع ملقى على الأرض ، على وجهه فزع ، ذلة ،



انكسار ، فى لحظة لم يكن هو السيد أبو دراع ، كيف . ترتسم قطعة الارض الصغيرة . هل كان عم الوهيدى يعلم. الاكيد أن لاشىء كان يمنعه عن ضم الساحل . وفهيم بن زينة . ليلتها طرق فتح الله حجرة عبد الشاطر ، كان نائما استيقظ ، انت يافتح الله مدلع ، ولد خسران . لو ان فتح الله تعب من الشغل في الغيط ، لوأتاه النوم وهو عائد على ظهر الحمار ! عبد الشاطر يخاق فى الغيط الشغل من تحت الارض . نصيحة عبد الشاطر أن يعود فتح الله لينام .

كان الشارع ساكتا ، مظلما . لم تكن القرية موحشة هكذا أبدا . الخاله تقاطع . نهايته ياخالتى .

لم يكن فى الحارة دار واحدة صاحية غير دار السبخاوى . شربت كرسى معسل ، اثنين . لم يكن لفتح الله رغبة أن يعود الى دارهم . غلبه النعاس . أسند رأسه الى الحائط . استيقظ . كان الليل ساكتا . كان رجال الجوزة انصرفوا .

السبخاوى ممدد . الى جواره نام فتح الله . شد الكيس . توقف فتح الله . أحس بخجل . فى الصباح الضاحى استيقظ . لم يكن بالدار سوى هانم . قدمت له كوبا من الشاى . سألته . حكى لها . استمعت اليه. حدثته . انت ياسى فتح الله وحياة سيدنا النبى رجل بنى آدم . الاعمار بيد الله . أبو دراع كان سيموت سواء ضربه حامد أو لم ضربه . الميتة مكتوبه على جبينه . كلنا سنموت . خفف عن نفسها ياسى فتح الله .

فتح الله سمع التأكيد قاطعا انه لم يضرب أبو دراع . فتح الله قلبه خفيف . حامد هو الذى ضرب . فتح الله طرح ماحدث على هانم . البراءة منها سمعها باذنه . يتمنى فتح الله أن يكون حكم هانم حقيقة .

الخاله لم تستمع الى تفاصيل الجلسات الطويلة . الخالة لم تر صلة بين موت السيد أبو دراع والطوفة التى ألمت بابن اختها . مصممة على أن تعيده الى دار أبيه .

السبخاوى يافتح الله ياابنى رجل من غير مؤاخذة ، اسم الله على قيمة ابن اختى ، مش راجل ، لم يكن خفيرا فى خدمة الحكومة ، سحاب نسوان لجابر افندى ، جابر افندى رجل ذيله نجس .

فتح الله يجابه أمه أو خالته . المهم هى ، هانم نفسها .

الخاله لايعوزها الرد ، اللهم احفظ ولايانا ، يابنى لسان الناس ، لسان الناس لا يبرىء نرجس زوجة السبخاوى ، هانم تربت فى ماعون شين ، كل واحد حسب ماعونه ، والبنت يا فتح الله يا ابنى لأمها فتح الله لم يقتنع . هو سمع ، لكن يا خالة هل هذا يعنى أن هانم معيوبة . يا فتح الله . من قالوا عنها قحبه هى قحبه الخالة لا تعرف ماذا يعجب ابنها فى هؤلاء الناس . عيلة معيوبة من طاطا لسلامو عليكو . الخالة تستعرض ، السبخاوى ، نرجس ، حتى يابنى عيالهم قرع .

فتح الله يقتنع تماما حتى نخاع عظمه بكلمات خالته. يضيف ان هذا شىء وهانم شىء ، ياخاله سيبى حكاية الزواج لن أتزوج . ترجح الخاله ان ابنها يناور . حاولت أن تصل الى داخله . أحست انه يكاد يفلت منها متخليا عن صدقه في حديثه معها . وبالتحديد مخفيا نياته عنها . يحكمها عاملان : حبها الشديد لابن اختها ، اتفاقها مع عم الوهيدى على أن تعيد الولد الشارد . عم الوهيدى هدد بضرب الولد بالنار . هدد بقتله . الخاله هددت ان الولد قد يفعلها ويسوح فى بلاد الله . الوهيدى وافق على زواج ابنه من هانم على أن يقطع علاقته باهل البنت . وصية عم وهيدى للخاله ألا تقدم للولد الحل الذى وصلا اليه الا بعد أن تكون قد غلبت معه . اذا أحست الخاله انه قد آن لحظة القاء الورقة الاخيرة . صارحت فتح الله بموافقة أبيه شريطة أن يقطع علاقته بالسبخاوى وعائلته .



بتوجس وخوف ـ ممزوجين معا ـ بالرعب أمسكت الست جواهر بالمقبض النحاسى الاصفر ، أدارته ، واربت ضلفة الباب ، انسلت الى الداخل . فى وسط الحجرة تنتصب أعمدة السرير ، نيكل بيضاء مربعة ، تنزل منها الناموسية ، كالحمل ، الضوء الخفيف المتسلل من ستائر النوافذ يعكسه طلاء الجدران الزيتى ، طربوش جابر افندى ، الجبه ، الكاكولة ، الجزمة ام أستك الاجلسيه، وفردتا الجورب فوق الرخام على الكومودينو تتدلى منهما حمالة استك حرير . رفعت الناموسية بحذر بالغ . صح النوم ياحضرة العمدة . لاتنتظر ردا . لم يعترض على أن تزور أخواتها . يسكنون فى نفس التربيعة التى أقامت عليها عائلة السوالم منازلهم وسراياتهم غرب البلد . على الزوجة أن تكلف واحدة من الخادمات اعداد دورة المياه . ابريق ماء ساخن فى المرحاض ، آخر لاغتسال حضرة العمدة .

فى منزل المرحوم أبيها ، بين اخوتها انفجرت الست جواهر باكية . أقات من اللحم الابيض اهتزت . لن تتحمل أكثر مما تحملت . رجل زناوى ، عياره مفلوت ، أقسمت الست جواهر بابنها رشاد ، كانت تفضل الزواج من بائع فجل ، الاخوة يعلمون ألا حيلة لهم فى الامر ، هم أنفسهم يفعلون مايفعله جابر افندى ، لامفر لهم من مهاودة أختهم الكبيرة ، عليهم أن يستعدوا الليلة لضبط جابر أفندى مع واحدة من نسوان الفلاحين أولاد الكلب في الحجرة الملحقة باسطبل الخيل . لم يبق الا أن ينام مفلوت العيار مع قحباءه فى حجرة النوم . استعد الاخوة ، أبناء عمومه وخؤولة جابر افندى .

السلام عليكم ورحمة الله ، السلام عليكم ورحمة الله .

تصافح المصلون . انتهت صلاة العشاء . عيال الحارة وأولادها على مصطبة الشيخ سعيد . نسوان الحارة فى طريقهن الى التلول . بعد الذى منه يدققن فى اختيار الطوبة للمسح ، الخشية من أن تكون الطوبة افراز آدمى جاف ،

الاولاد على المصطبة لايكفون عن التعليق على مواكب النسوة. حج مبرور • كل سنة وانتم طيبين • لايمنع ان تكون أم الواد بين الجماعة . يصفعه ولد آخر على قفاه . ياابن الكلب وسر المصحف الشريف امك كانت فى الوسط .

الدسيسة طرقت منزل المرحوم . واحـــد من خفراء حضرة العمدة . حماس شديد الم بالست جواهر مع الاخوة تقدمهم كلوب ، دون أن يشعروا كانت وراءهم زفة ، الاخوة أولادهم ، باب الحجرة الملحقة باسطبل الخيول العربية الاصيلة ، الكنوف ضفطت ، انكسر الباب ، اندفع الرجال تتقدمهم الست جـــواهر ، باقى المولد وراءهم ، فى ركن الحجرة كانت تقف مرعوبة ، مرتعشة ، تشلها هبات برد داخل مسام جلدها ، دست جلبابها من رأسها ، شـــدته بصعوبة ، نسيت السروال ـ كالعلم المهزوم ـ معلقـا على مسمار فى الحائط .

خيبة الامل حطت على الست جواهر . أحس اخوتها بالارتياح . مواجهة العمدة لم تكن شيئا هينا . لحظة مرت أو لم تمر . الاخوة وراءهم قعدات الحشيش . الست جواهر لحظتها ممتدة لم تنته من قبل أن تلد رشاد واخوته. من بعد ليلة زفافها وهى ترقب تسلل حضرة العمـدة مع واحدة من الخادمات . فى محاولة للافلات من اللحظة تقدمت الست جواهر قوية بدينة ، فيها عافية تكفى لشد نورج أو محراث تتعثر فيه بقرتان من بقر الفلاحين الاعجف ، رفعت يدها الى السماء ورن الكف على وجه هانم . هانم تلف بها أرجوحة لفات سريعة دائريةمتلاحقة حتى لكان الارجوحة ثابتة . هانم فاجرة كأمها نرجس ، فاسدة كأبيهاالسبخاوى السحاب . كان الكف اشارة البدء . على الاخوة أن يجاملوا أختهم ، بالايدى ، بالارجل ، بالعصي . يسقط الضرب على هانم ، متكورة ، منكمشة ، مستسلمة ، الست جواهر

لاتدرى كيف تفرغ غيظها ، خيبة أملها فى أنها لم تضبط حضرة العمدة . الضرب لايكفى . همت أن تهجم علىالبنت وتنهش فى بطنها بأسنانها وباظافرها فى الاماكن الحساسة. احتارت حتى الموت ماذا تفعل . كل تصرف مباح لها . حرة تفعل بالفريسة ماتريد . لحظة نادرة فى حياتها ، أنارعقلها على غير توقع منها . التفتت الى الاولاد والعيال . صرخت في وحشية : ولاد ، ولاد ، جرسوها ، بنت السحاب ، قحبة كأمها . وفى هدوء ، كالهواء النقى ، كأن على رأسه طاقية الاخفاء ، انسل رشاد افندى ابن جابر افندى لايصـــدق أن هذه هى أمه . فى قرارة نفسه أنها على حق وأن هانم . القحبه بنت القحبه تستحق اكثر مما حصل لها .



بنفسه رفض أن يقابل هانم حين طلبت لقاءه بعـد العشاء ، علىسطحهم . فىالمرة الثالثة ،حمل المرسال..هانم لن تحدثك ، ستعيد اليك أشياءك ، المناديل ، زجاجات العطر ، الفستان ، حتى الفلوس ستسددها ، فتح الله نفسه يحس أو لا يحس انه منقسم . دماغه يمـلأه طنين ، طنين تصنعه كل أحاديث المصاطب ، تملأ الحارات ،أحاديث جسور الترع ، مدارات السواقى ، قعدات الحشيش ، قعدات المعســـل والنسوان ، النسوان الجالسات على قرحهن فى الظلام على تلول داير الناحية ويتحسسن السباخ بحذر بحثا عن طوبه ناشفة . هانم ضبطوها مع رشـاد افندى ، مع جابر افندى ، مع فتح الله ، مع واحـد من زوار أبيها فى الليل ، مع .. مع .. مع ، كأمها .. كأبيها .. هل .. هل .. هل .. البلهارسيا ، نقط الدم الاحمر ملء كف بعد كل بوله ، توحد كل أبناء البلد ، فضيحـة هانم ملء كف دم وحدها ووحدتهم هى الاخـــرى . يسير فتح الله ، هو نفسه ، فتاة مخـــروقه لكن منطقه داخله لايستطيع فتح الله أن يضع اصبعه عليها ليقطعها ويستريح، جزء منه وليس منه ، جزء من صدره ، أصم ، أبكم ، أعمى، لاتصل اليه أحاديث المصاطب والجسور والتلول والقعدات. جزء داخله يعذبه ، يشد عينيه طوال الليل ، لاتغمضان ، يصاحب خطواته ، يخنق صدره ، جزء فيه هذا ال (هانم) وحدها ، زلطه تشعوط النار كل ماحولها ، هى صامدة ، زلطة يسكنها جنى يتحكم فى قسمات وجهه ، فى مزاجـــه ، لايتلقى أوامره منه .

قبل أن يستجيب لالحاح هانم ، ليقابلها فى حجـرة صديقة لها مر على خالته ، قبلته ، طبطبت عليه ، ازيك ياضنايا ، تعالى ، تعالى يافتح الله ، اقعد الى جـــوار خالتك ، شبه المرحومة امك تماما ، سبحان الخـالق ، ياحبة عينى ، الام تشبه من ياخـــاله ، أكانت شبهك ، انزعجت الخاله . خالتك ياحبة عينى ايش جابها لامك ، فرق البحر من الترعة . ياخالتى البطن واحدة ، انتوامى من بطن واحدة . آه ياحبـــة عينى ، البطن تجيب الزين والشين ، وابو فصادة والاقرع وراكب الخيل وخـــايب



زمانه . قهقه فتح الله . افلت من قبضة الجنى اللعين . الجنى الذى يلبد داخله ولايتلقى أوامره منه . جنى حضور هانم . آه ياخاله لو يسكن فتح الله فى حماك حتى يوم القيامة . لحظات الصفو الخالص معك وحدك . صفوك ياخاله لايأخذ بانفاسى ، لايخنقنى ، معها هى الاخرى تصفو النفس ، صفو منقبض خائف دائما . عرض على الخالة، هانم دعته للقائها ، تريثت الخاله ، ابن اختها ، حبة عينيها لم ير وليفته منذ الليلة الملعونة ، فى ليلة واحدة ، أمسك بفتاته زوجة له .. أفلتت منه الى يوم القيامة ، هو لايقول الى الابد ، بعدت عنه في ساعتها . الغد يخيفه ، فى يومه الجارى هى ليست له . الغد فى يد ربنا الذى فى السماء . حين يأتى الغد ويصير يوما جاريا هى ليست له لايريد أو لايحب أو لايجرؤ على أن يصدر حكمه على الغد . يكفى أنها ليست له فى يومه الآتى . انها ـ والعلم عند الله ـ قد تكون له فى غده . اذ يتدحرج غده ليصير يومه . عندئذ سيصدر حكمه قاطعا . هانم ليست له . قابلها ياابنى ، شوفها ، اسمع منها ، العيش والملح له حق ، اللهم استر ولايانا ، وفرت على يافتح الله . اللمبة الجاز معلقة على المسمار المدقوق فى حائط الطين ، على الحصيرة جلست هانم وصديقتها . كان سلام انتفض له الجنى داخل فتح الله . انها هى هانم . الصوت مرتعش محشرج مبحوح خافت . ازيك ياهانم . منطوية متكورة . متقهقرة . حزينة ازيك ياسى فتح الله .. الصمت لايعرف الخفوت أو الانطواء حط .. شريط اللمبة يطقطق . استاذنت الصديقة لتعد كوب الشاى . بقى الصمت . سطع نور اللمبة الباهت الخجول ، بقه فى حجم حبة عدس بقشرتها تجرى كالمذعورة على الحائط ، شجيرات العاقول الشوكية مسمرة على الجدران لقتل البق النهم . كان نعسانا على مصطبة السبخاوى . تقدمت اليه .. سى فتح الله . وارب عينيه، كان عم السبخاوى قد استيقظ وتركه نائما . سي فتح الله .. صح النوم . دلقت على يديه من ابريق الفخار الاسمر، غسل وجهه بصابونة معطرة قدمتها اليه ، على كفها كوب الشاى ، تأمل جبهتها ، نور اللمبة الباهت الخجول يسطع على جبهة هانم . ازيك ياهانم . اكتشف أن يده ممسكة بيدها . فزع . كان بين أصابعه ثعبانا . سحب يده على عجل سحبها وهو لايدرى حقيقة مشاعره . من دماغه كان ينطلق حديثه قاسيا ينهى كل شىء . كل شىء يجب أن ينتهى . السيرة لبانه بين أفواه القرية . قسمة ونصيب .. من المنطقة المجهولة . هانم هى هى ، هانم الى جواره بنفسها بلا زيادة ولا نقصان . عرضت هانم بؤجه بها أشياء فتح الله ، ردها. هو ليس خسيسا . هانم آمنت ، انت صحيح لست خسيسا وانت ابن ناس . ماذا يصنع فتح الله في الكلمات . هو يقصد أنه ليس خسيسا ليسترد اشياء خرجت من ذمته، اما أن تخرج الكلمة من فمه لتكون حبل اتهام تسىء تخنق فهذا مالم يرده . كل شىء يتمرد على ارادة فتح الله حتى كلماته . انفجرت هانم باكية ، هو ابن ناس اما ... أحس حزن حقيقى ، حزن من المنطقة المجهولة ومن دماغه مدا . مثلما كانت خالته تقبله على جبهته قبلها على جبهتها ، بشكل خفى ، تقبيلها على الجبهة عمل مختلف تماما عما فعله رشاد . لهذا فتح الله يبيح لنفسه اتيانه . هو يتفرد بالجبهة . هانم .. عليك أن تدعى كل شىء للغد . فى الغد يجد فتح الله راحته . وعدها أن يزورهم فى البيت . كانت قد نقلت اليه خبر مرض أمها .



٧

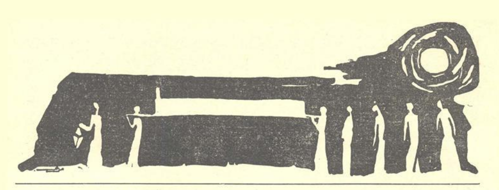
يبدأ بصداع فى الرأس . همود فى الركبتين . تهدل فى الجسد كله . اسهال . قىء . بعد ثلاثة أيام ماتت الام. ماتت نرجس . لم يشترك فتح الله فى السير فى الجنازة .

في نفس اليوم ماتت امرأتان . مات ثلاثة رجال . فى اليوم الثالث استقبلت أفواه المقابر خمسة رجال . دفنوا ـ أيضا ـ على الساكت . امرأتان . عدد من الاطفال . ببطء تدريجى ثابت . تسلل الخوف . ملأ البلد كلها . خلت المصاطب ، قعدات المسل ، حتى المساجد . تجمعات مختلسة مرعوبة تتهامس ، تتناقل آخر أنباء المرض ، أى الموت . من أصيب بصداع فيه الشك والامل . الاسهال يقطع الشك باليقين . البحث عن الليمون شغل الناس . اشاعة ان البلح هو السبب . المرض الجديد معد ياأولاد . ثلاثة أيام ثم الموت . لا مريض واحد شفى ، البلد تدفن كل يوم . كل يوم موت ودفن وجنازات صامتة . الدفن لايتوقف فى كل بيت مريض او ميت او مرعوب . قش الرز ملأ الشوارع والمصاطب . على قش الارز يجلس المشيعون . المدرسة الالزامية ، ومكتب المحافظة على القرآن الكريم اغلقا . سوق الاثنين ماعاد يقام . كل واحد انطوى على خوف عميق . خوف يخاف أن يهمس به لنفسه . لا أحد أبدا هاجمه المرض وشفى . البلد انقسمت قسمة غريبة كما لم يحدث ابدا أو كما هو حادث دائما . عيلة السوالم أقامت معسكرا وقائيا حول سراياتهم ومنازلهم . احتمت

داخل معسكرها . فكروا أن يقيموا سورا بين بيوتهم وباقى بيوت الفلاحين ، أى غريب عن العائلة محظور عليه الاقتراب من بيوتهم . أهالى البلد عليهم وحدهم ينصب غضب الله . العائلة الغريبة الوافدة على البلد بيوتها منعزلة . الشغالة الذين يخـدمونهم فى الغيط والبيت حجزوهم داخـل المعسكر . منعوهم من النزول الى ذويهم . المسجد المشترك قاطعوه . جابر افندى احتجز السبخاوى وكابه سبع الليل. مقابر البلد مفتوحة للاهالى وحدهم . المقابر ضاقت بالموتى من أهالى البلد . عبد الشاطر خيل اليه أن برأسه صداعا. حمل فأسه الى الغيط . هو يعالج الامراض بالشـغل . أربعون عاما مااعترف بطبيب أو مستشفى . الاعمـار بيد الله .. هو مشغول دائما فكيف يمرض . المرض رفاهية العاطلين أهل المصاطب . هو دائما وراءه شغل فى الغيط . الارض يا اولاد دائما تحتاج الى اليد اللى تلعب فيها . ترفع الحجر من جانب عود القطن ، تحيطه بالتراب الناعم . الزرعـة فى الغيط كالطبخة لو تركت على الكانون شاطت . عبدالشاطر عاد بفاسه . لم يصدق أنه اصيب باسهال . علامة لاتخطىء. عم الوهيدى الحريص الواعى الرزين جن . كل شىء يارب الا عبد الشاطر . لم ينجب سـواه . هو كل شىء . من أجله كل شىء . أبيع البهائم بهيمة بهيمة ، الارض التى جمعتهـا شبرا شبرا . أبيعها ، أعود كما بدأت لايهمنى ، يبقى عبد الشاطر ، سنخلق أرضا جديدة من تحت الارض، سنملأ الدنيا زرعا وقلعا وخيرا ، عبد الشاطر ، عبدالشاطر حمل الرجال عبد الشاطر نزلوا به الى القبر العميق . انهال التراب . عائلة السوالم بحالها كان المرض لم يعـرف بيوتهم . لا رجل لا امرأة لا طفل . الخالة هى التى أفضت الى فتح الله ، ياابنى البنت هانم سمعت يا ولداه قلها تعبانه . الحيرة عاودت فتح الله . امها ماتت ، العمدة حجز اخواتها . فتح الله حملته خطواته الى دار عم السبخاوى.



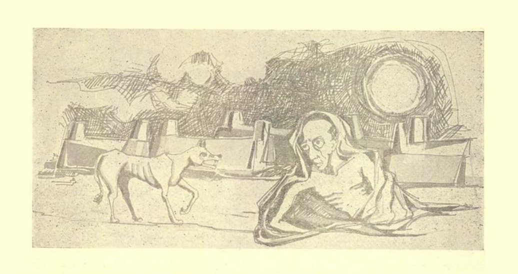
تخطى العتبة فى خوف . دق صدره خبطات متلاحقة . دوار خفيف طاف بدماغه ولم يلتفت اليه . قابل عينيه صـمت مقبض . كل شىء يـراه لاول مرة . باب الدار . شرائح غليظة من أفرع الشجر . تراب قديم يفترش كل ما أمامه. الهباب طبقة سميكة هشة متراكمة على السقف . الدار ، برج حمام مهجور ، طافت بذهنه كلمات موال . حرمت يادار أخش الزقاق علشانك . هو لم يدخل هذه الدار منذ زمن خيل اليه أنه عمر بطوله أول ليلة . البـلاصي الذى كان دوما نظيفا ومروقا بنقى المشمش ، مبخرا باللبان المحروق ، الجرزة . هنا جالس رجال الليل أخـذ منهم ، أعطاهم ، حـدثهم ، حـادثوه ، أتعبهم أبو دراع ، طوفه حملته الى الليل ، كان يكره عيلة السوالم ، كلنا نكرههم يافتح الله، لكن جابر افندى هو المتوى ، آخر محايلة معه ، أبو دراع أقسم بالطلاق ، طول م ابن الكلب متحكم فينا م يعيش معانا كان سيبكى كالحـرمة . ياجماعة هو ابن الكلب ورانا ورانا فى الغيط ورانا ، فى الليل ورانا ، أنا هـ اعدى الشرقية، لكن من قتل فهيم بن زينه لحساب العمدة . غمغم الرجال. حتى هانم لفت ودارت . كانت أحيانا تصمت . هل كانت تكذب وهى تشتم عيلة السـوالم . طالت وقفته . نادى اسمها . هانم .. هانم . ألقى نظرة على القاعة الجوانية. دفع الباب . وقف فى البحراية . زكمته رائحة الرطـوبة والعتمة تملآن أركان الحجرة . زبل أرانب فى جحر داخـل المصطبة . فوق حصيرة باهتة هانم متكورة . وجهها للحائط أنين خافت لايصل الى أبعد من آذان الجدار . وصل اليهـا صوت فتح الله . استدارت . رفعت عينيها اليه . فتح الله ازيك ، كتر خيرك يافتح الله ، العيش والملح له حق . كانا كالاخوة . كيف تتحدث . بكت . فتح الله عليه أن يرجع ، فالمـرض اللعون معد . ليبعد فتح الله يسـتمتع بشبابه . الانقسام الذى عذب فتح الله ارتفع كله خالصا لهانم ، لـكنه يحس ان دماغـه هو الذى يدفعـه . خنقـة الصدر ، شلل الجسم كله ، افتقدهما اذ يلقاها هـذه المرة . تقدم اليها . حزين . حزين من أجل حالة هانم . جلس الى جوارها . دق صدره . أمسك بيدها . ازيك ياهانم . احساس قوى بالواجب يدفعه . من رأسه تسقط تصرفاته . هذه هى هانم يافتح الله . تمن لها الشفاء . لم يطرح على فكره مابعد الشفاء . شمر كم جلبابه . بفاس قديمة جرد القىء . رش ترابا ناشفا . فتح دولابا داخل الحائط . سحب جلبابا نظيفا . أجلسها . أسند ظهرها الى صدره . بكوز ماء ، بقطعة قماش بللها ، مسح وجهها ، يديها ، قدميها ، خلع عنها الجلباب الذى تلبسه ، ألبسها الجلباب المغسول ، اعد لها كوب شـاى . أعطاها حبـة أسبرين ، عصر لها شقة ليمون فى كوز ماء . أرادت أن تقضى حاجتها ، أسندها الى كتفه ، بدد خجلها ، عيب ياهانم، السنا اخوات . داخل الدار فى مربط قديم لمعزة بيعت قضت حاجتها . كنس لها المصطبة التى تشغل صحن الدار مصطبة رجال الليل ، قعدات المعسل والحشيش . فرش الحصير ، أجلسها على المصـطبة . واربت هانم عينيها ،



الضوء يملأ الدار . يمامة تهدل على السطح . صحوة تتمشى فى أوصال هانم . حلم . أكدت أنها لن تموت . الموت لا يقدر أن يأخذها من جوار فتح الله . فتح الله يعرف أن هانم هى مايربطه بالبلد ، بلد السوالم . هل حقا كانت هانم تكرههم . هل تعود الحيرة داخل فتح الله . هل تغير دماغه منها . هل لحظة صحوها أرجعته الى حيرته والى الانقسام داخله . أحس فجأة بضيق لم يدر سببه . أدارت هانم عينيها . ألمت بكل مافعله فتح الله . نظرت الى جلبابها ، يديها ، اعملت ذاكرتها ، أحست بخجل حقيقى حين تذكرت خلعها جلبابها أمام فتح الله وقضاء حاجتها ، سحبت عينيها بعيدا عن فتح الله مداراة لخجلها ، عادت تنظر اليه ، أمسكت بوهن بكفه ، طلبت أن يجلسها . فى عينيها الدارنظيفة كأنها فى ليلة عرس . حاولت أن تقف . لم تستطع . جلست . لفت بها الدار بشدة . صوبت عينيها نحوه . لم تكن تعرف أنه يحبها كل هذا الحب . وفى المسافة الزمنية التى أحست فيها هانم بدبيب النهاية ، أحست بعتمة ضبابية أن اكتشافها لم متأخرا . كان يتفتح داخلها دلائل صدق حب فتح الله لها مع دلائل الاحساس الجسدى بالنهاية . لم تستمتع لحظة واحدة خالصة باكتشافها انه يحبها كل هذا الحب . يأس الم بعدد خلايا جسدها ، خلية خلية . يأس كأنه العقوبة . عقوبة تكتشفها هى وتخضع مرغمة لها . أمل تعجز عن افصاحه ، أن تحيا لحظة واحدة مع اكتشافها بعيدا عن يقين الموت . لاتملك القدرة من الحياة أن تسال نفسها سبب عماها عن عاطفة فتح الله . لم يجد جديد . كانت تعرف أنه حتما كان سيفعل ما فعل . كانت تعرف كلماته قبل أن ينطقها. تصرفاته قبل يأتيها . لكنها أبدا لم تكتشف قبلا ، ولا تكتشف الا في لحظة آفلة . احساس فوق اليأس ، فوق الالم ، يفوق الحياة نفسها ، يعلو على الموت . الممدة على المصطبة . ظهرها الى الحائط . الى جوارها الرجل الذى أحبها . تنظر اليه . ليس بعينيها ، فان عينيها قد كفتا عن وظيفة الابصار ، تنظر اليه بخلايا جسدها كله مخترقة الإلابس والسر والغموض . احساسها لم يعد يرتسم فى شكل معنى . لا تعبر عنه الكلمات . المعنى والكلمات يتنسبان الى شاطىء تقلع عنه . احساسها رؤى تنفغر داخلها . هى ذاتها غدت رؤية . احساسها قطيفة حمراء غامقة . تزداد غمقة حتى لتصل الى لون اسود .

احساسها ، قطيفة لحمتها الحياة بطولها ، سداها الموت بعمقه . حياة بلا نبض الحياة . موت بلا همود الموت . حياة تموت . موت يحيا . فى لحظة لقاء متوهجة مكتومة معتمة ملعونة . اليأس لا يرتسم معنى . يبرز شكل . أرض تسيخ تحت رجليها . الارض تنفتح . بئر تقع فيه بقدميها أولا . تحاول قدماها أن تتمسكا بأرض ، بتراب . الأرض تغور . هى يشدها البئر . يشدها البئر . انها داخل البئر .. داخله .. يشدها .. يشدها .

يحاول فتح الله أن يمد يده ، يمسك شيئا لا يقبض عليه . الحياة ليست وقفا على ارادتنا . تعاش مرة واحدة . اكتشاف لا يدريه الا وهو يفقد هانم . على الخشبة تمدد الجسد . غسلته المغسلة . وضعت القطن على المخارج . كلوب صغير خافت الضوء تقدم النعش ، النعش على كتف فتح الله . واحدة من مقابر الحريم ، انزلوها براسها . قالب من الطوب الاخضر تحت رأس الجسد المسجى . اهيل التراب . فقيه ضرير جلس خلف القبر يردد كلمات كئيبة . لا وقت للحزن . رجع المشيعون لا يزيد عددهم عن أصابع اليدين . تخلف فتح الله . وقف وحيدا . الكلوب يبتعد . على المقابر يزحف ظلام ثقيل . آمه .. سيد أبو دراع .. عبد الشاطر .. أخيرا هانم .. الظلام .. السكوت نواح خافت يأتيه من بعيد ، من داخل البلد . بلد كئيبة ، مقبضة ، ليس بها ما يربطه اليها . يبرز وجه خالته تضيع فى جهامته ابتسامة يلتقطها فتح الله دائما . الأصابع الطويلة المعروقة . تحركت قدماه . كان الطريق الثانى من داخل المقابر يقود الى جسر الصرف النظامى ، الجسر الذى ترقد البلد الموبوءة فى ظله . سارت القدمان . تيهة مشاعر تلفه . لا يعرف شيئا .. لا يدرى شيئا . لا يرغب فى شىء . لا يرغب عن شىء . كل شىء كأى شيء . ماتت هانم حقا. هو يحبها الآن. ما عادت سدا فى وجه . خاله انا هـ .هج.هـ.هج يا خاله. القدمان تخطوان . الكون كله ظلام وفراغ . تحت المقابر ظلام وفراغ . على سطح الأرض ظلام وفراغ . السماء ظلام وفراغ . وأنتم يارجال الليل ، ياصحاب ، قادم اليكم ، لم أقتل السيد أبو دراع صدقونى ، ردوا ، مدوا ايديكم عيناى توشك الإ ترى موضع قدمى .. رصاصة واحدة تفىء الطريق .



الذئب الذى أراد أن يدخل فى جملة مفيدة

د. عبد الغفار مكاوى

* فكرة القصة مستوحاة من قصيدة «الذئب» للشاعر الالمانى كرستيان مورجش ستيرن ١٨٧١ – ١٩١٤ .

الجبانة الريفية ساكنة فى حضن الوحشة والموت . والقمر معلق فى وسط السماء الصافية كالقنديل الاخضر . والقبور تبدو فى ضوئه الفضى كأسراب الحمام الوديع ، مستسلمة وحزينة وصامتة .

من هذا الذى يزور الاموات فى عز الليل ؟ لا هو زوجة ولا أم، لا هو أب ولا ابن ، بل مخلوق يسير على أربع ، عجوز نحيل ومسكين ، ولابد أيضا أنه جائع . شق طريقه بين الاضرحة والقبور حتى وصل الى أحدها فوقف أمامه يتشمم رائحته كأنه يتأكد منه. كان قبرا جديدا ، لا تزال رائحة الاسمنت الذى وضع على فتحته تفوح منه ، وأوراق الشجر التى وضعت على سطحه تعبق بندى الخضرة ، وحبر الكتابة الرديئة التى تشهد باسم صاحبه تزكم الانف ، وآثار الاقدام التى غادرته منذ ساعات ظاهرة على الارض . مد الحيوان المسكين ساقيه الأماميتين وخبط على جدران القبر كمن يطرب باب حبيب . سمع نبشا من الداخل وخبطات كضرب الفأس على أرض صلبة . ثم انفتح السقف وبرز منه وجه شاحب لا يزال الكفن يغطيه . رفع الميت القماش الابيض من على وجهه فبان رأسه الأصلع ووجهه المصفر وفتح عينيه مرات قبل أن يسأل :

– من ؟ ..

قال الزائر : أنا المتهم بدم ابن يعقوب .

قرب الميت وجهه منه وأخرج يده بصعوبة وأشار اليه : أنت ؟

قال الزائر : نعم أنا الذئب ٠٠ وأنت ٠

قال الميت مستنكرا : لابد أنك تعرفنى ٠ والا فما الذى جعلك تقلقنى فى هذه الساعة ، مع انك تعرف ٠

خفض الزائر ذو الاقدام الاربعة ، والجسد النحيل والبطن الجائع رأسه خجلا أو حزنا وقال: بالطبع أعرف كل شيء ٠ أنت مدرس القرية الذى مات ليلة أمس ٠

قال المدرس بصوت مرتفع كاد يزعج حوله الراقدين : تنتهز الفرصة ؟

رد الذئب فى انكسار وخيبة أمل : بالعكس٠ لقد انتظرت هذا اليوم من مدة طويلة ٠

صاح المدرس غاضبا : أأنا الفريسة الوحيدة ؟

قال الذئب فى هدوء : أبدا أبدا ٠٠ لأنك مدرس النحو الوحيد فى هذه الجبانة ٠

سأل المدرس : ألم يقل لك أحد ان عظمى أكثر جدا من لحمى ؟

قال الذئب : مازلت تسيء فهمى ٠

قال المدرس وهو لايزال متشككا فى نياته ماذا تريد اذن ؟

قال الذئب وهو يرفع رأسه اليه فى ابتهال : أريد أن تضعنى فى جملة مفيدة ٠

ضحك المدرس ضحكة عالية وقال : أضع الذئب فى جملة مفيدة ؟ ٠٠ مستحيل ٠

توسل الذئب باكيا : أرجوك ٠٠ هذه خدمة العمر كله ٠٠ جملة واحدة وأذهب ٠٠

أراد المدرس أن يداعبه فسأل : الى أين ؟

قال الذئب فى صوت ضعيف : الى زوجتى وعيالى ٠

ضحك المدرس مرة أخرى ، وغلبه الضحك حتى اضطر أن يضع يده الباردة فى فمه لكى لا يوقظ الحارس : اذن فخذ هذه الجملة : الذئب له زوجة وعيال ٠

صاح الذئب متبرما : ولكن هذه الجملة لا تفيدنى ٠٠ فأنا أعرف هذا من قبل ٠

قال المدرس وقد أمعن فى العبث : اذن فخذ هذه الذئب مسئول عن دم ابن يعقوب ٠

قال الذئب يائسا : لقد قلتها على سبيل المداعبة ٠٠ربما لانها كذبة مشهورة ٠٠ ألم يثبت القرآن نفسه براءتى ؟

تعجب المدرس من علمه وقال : معك حق ٠٠ ان الله نفسه قد برأك من دمه ٠٠ ولكن ربما كان ذلك مجرد صدفة ٠

سأل الذئب : صدفة ؟ اننى لم أقتله فعلا ٠٠ لقد حاول اخوته كما هو معروف أن يقتلوه ٠٠ رموه فى قاع الجب

قال المدرس : ولو كنت وجدته لما رحمته ٠

قال الذئب غاضبا : هذه كذبة أيضا ٠٠ فانا لم أعثر عليه ولم أقتله ٠٠ ان الناس ترتكب الجريمة وتلصقها بى ٠٠ أرجوك الآن أن تبحث لى عن جملة مفيدة ٠

تلفت المدرس حوله ٠ رفع عينيه الى السماء ثم خفضهما الى الارض ليتأكد مما حوله٠ رأى الذئب يقف أمامه حقيقة لا خيالا، ورأسه الشاحب يميل نحوه فى ضوء القمر ، وظله يمتد تحته ٠ قال : اذن فخذ هذه الجملة :

ــ الذئب يكلم مدرس القرية ٠

قال الذئب وفى صوته خيبة أمل شديدة: وهل هذه جملة مفيدة ؟ اننى أكلمك كما ترى ٠٠ ولم استفد من كلامك شيئا حتى الآن ٠

لم يدر المدرس هل يضحك أم يأخذ كلامه مأخذ الجد ٠٠ وأراد أن يجرب معه طريقة أخرى فقال : الذئب يأكل الشاة ٠

قال الذئب : هذا ما يقوله الناس جميعا ٠٠ وليس فى جملتك جديد ٠

قال المدرس محتجا : ولكنها جملة حقيقية ٠٠ هل تنكر هذا أيضا ؟

خبط الذئب بمخالبه على جدار القبر متعجبا قبل أن يقول : حتى مدرس النحو يقول هذا ؟ كنت أظن أنك لا تصدق الاكاذيب المشهورة ٠ ما الفرق اذن بين العالم والجاهل ؟

قال المدرس : ولكنه أمر لاشك فيه ٠٠ فأنت تأكل الاغنام وتفزع الرعاة منذ الأزل ٠٠ وأقدم الحكايات والخرافات التى وردت الينا تؤكد هذا ٠

قال الذئب : الحكايات والخرافات ٠٠ بالطبع ٠٠ ولكن الحقيقة تختلف عن هذا تماما ٠

سأل المدرس متحديا : وما هى الحقيقة ؟

قال الذئب مدافعا عن نفسه : الحقيقة اننى أهاجم الأغنام فعلا ٠٠ وقد أهاجم البشر أيضا٠٠ ولكننى آكل لحمها ولا أقتلها ٠

ضحك المدرس حتى كاد يستلقى على قفاه وقال : تأكل لحمها ولا تقتلها ؟



قال الذئب متضايقا: هل تعرف لماذا آكل لحمها ولا اقتلها ؟

سأل المدرس فى خبث : لماذا ؟

قال الذئب متحمسا : لاننى أهاجمها بدافع الطبيعة وحده ٠٠ الطبيعة فى هى التى تأكل ٠٠ فاذا شبعت لم أهاجم أحدا ولم أعتد على أحد ٠

قال المدرس : وما الفرق بين الاكل والقتل ٠٠ مادمت تأكل الشاة فأنت تقتلها ٠

قال الذئب : الفرق كبير ٠٠ اننى آكل اللحم الذى يصادفنى ٠٠ سواء كان لحم جدى أو شاة أو فلاح أو راع ٠٠ آكله لاننى جائع ٠٠ ولأن الطبيعة تريد أن تحافظ على جنس الذئاب عن طريقى ٠

قال المدرس: لا فرق بين الامرين ٠٠ أنت تأكل لحم الفريسة فتموت ٠٠ أى أنك تقتلها فى نهاية الأمر ٠

غضب الذئب وصاح محتدا : أرجوك لا تذكر كلمة القتل على لسانك ٠٠ هذه اهانة لجنس الذئاب كله ٠٠ وأنتم المدرسين مسئولون عنها ٠

قال المدرس محاولا أن يسترضيه : ولماذا بالله عليك ؟

قال الذئب : لانكم تعلمون التلاميذ بالصور والحكايات والخرافات أن الذئاب تقتل وتسفك الدماء البريئة ٠٠ ما من كتاب من كتبكم يخلو من صورة بشعة لواحد منا وهو ينهش لحم حيوان ضعيف مسكين ٠

قال المدرس : وما ذنبنا اذا كنتم تقتلون بالفعل ؟

قال الذئب : قلت لك الف مرة نحن لا نقتل ٠٠ نحن لا نقتل ٠٠ الى متى أكرر لك هذا ؟

قال المدرس : وماذا تسمى عملكم اذن ؟

قال الذئب : سمه كما تشاء ، فهذه حرفتكم ٠٠ أما نحن فلا نعرف القتل ٠٠ اننى مثلا لا آكل خروف لاننى أكرهه أو انتقم منه أو من أجداده كما تقول حكاياتكم السخيفة ٠

اننى أشبع جوعى وحسب ٠٠ أما أنتم ٠٠

قال المدرس : هل تقصد المدرسين ؟

قال الذئب : المدرسين وغير المدرسين ٠٠ انتم ابناء البشر جميعا تقتلون قتلا حقيقيا ٠٠ ان حياتكم كما تعلم كلها قتل فى قتل ٠٠ وتاريخكم هو تاريخ القتل ٠٠هل تظن انك وحدك الذى يفهم لتاريخ ؟ من عهد الحجر والحربة والسهم الى عهد الرصاصة والقنبلة والصاروخ ٠٠ قتل فى قتل فى قتل ٠٠

قال المدرس معتذرا : ربما يكون معك الحق يا صديقى ٠٠ولكننى كما تعلم مدرس برىء ٠٠٠

قال الذئب وقد بدت عليه الراحة : مثلى تماما ٠٠ ذئب برىء ٠٠

قال المدرس : أعترف لك بأن هذا التعبير لا يريد أن يدخل عقلى تماما ٠ ولكننى أؤكد لك أننى عشت طول حياتى أومن بأن الطبيعة خيرة والانسان فى صميمه خير ٠٠ واذا كانت التجربة والواقع والصراع من أجل الحياة قد غيرته ٠٠ فلابد أن يعود يوما الى طبيعته الاصلية ٠

قال الذئب : هذا هو الذى جعلهم يختارونك مدرسا ٠

سأل المدرس ماذا تعنى ؟

قال الذئب : أعنى أنهم وجدوك طيبا وعلى نياتك ٠٠ فاختاروك لهذه المهنة ٠

صاح المدرس محتجا : بل أنا الذى اخترتها عن عقيدة وايمان ٠٠ ولو عشت حياتى مرة أخرى لما اخترت غيرها ٠

قال الذئب : لانك طيب كما قلت ٠٠ اى لانك لست ذئبا كما تصوروا الذئاب ٠٠ ولو كنت مثلهم لاخترت أن تكون سياسيا أو محاربا أو تاجرا أو مديرا أو محتالا أو ٠٠

قاطعه المدرس مستاء : هذه مبالغة ٠٠ راجع التاريخ وستجد أن كثيرين من هؤلاء كانوا مثال الخير والبطولة والفداء والتضحية فى سبيل الغير ٠

قال الذئب ساخطا: يا سيدى متى تفهم ؟ قلت لك ان الانسان للانسان ذئب ٠ لست انا الذى

قال هذا .. هل تحب أن أقولها لك أيضــــا باللاتينية ؟

قال المدرس مستعطفا :أرجوك .. الا اللاتينى .

نظر اليه الذئب وأطال النظر . كانت عينــه كأنما تبحث عن الملابس التى يرتديهـا فلا تجد الا الكفن الابيض يحيط بهيكله النحيل .. قال بعد تأمل : خذ نفسك مثلا .. لو كنت ذئبــا مثلهم .. فهــل كنت ترضى بالعيشـــة التى عشتها ؟

قال المدرس : ولم لا ؟ .. لقد عشت حيــاة سعيدة .. أعلم اولادى وتلاميذى شيئا جديدا كل يوم .. راضيا بمرتبى و ..

قال الذئب : مرتبك .. وعلاواتك وترقياتك التى حرمت منها ؟ .. هل تعرف مثلا مقـــدار المرتب الذى يقبضه أولئك الذين لا يعملون شيئا؟

قال المدرس : قلت لك لقد عشت سعيدا ومت سعيدا .

قال الذئب : وتقول أيضا مت سعيدا ؟ وهذا الـــكفن من التيـــل الرخيص .. هل يدل على السعادة ؟ وهذا القبر المهجور المتواضع ؟

قال المـــدرس : الحمد لله اننى وجدت مكانا استريح فيه .. ولم أمت مثلا فى فم تمساح أو ذئب ؟

قال الذئب : رجعنا لاتهام الذئاب .. يظهر انه لا فائدة .. لنرجع اذن الى ما طلبته منك .

سأل المدرس : الجملة المفيدة ؟

قال الذئب : وهل جئت لشىء سواها ؟

قال المدرس : ليس عندى الآن ســـوى هذه الجملة : الذئب يأكل الشاة ..

صاح الذئب ورفع رأســــه الى السماء كأنه يشهدها على ظلم الانسان : قلت لك ليست هذه جملة مفيدة .. انها جملة مضرة .

صمم المدرس على موقفه وقال : ولكنها صادقة .. صادقة من آلاف السنين .. منــذ أن عاش البشر والذئاب على أرض واحدة .

عاد الذئب الى الاستعطاف وتوســـل باكيا : أرجوك .. اقبل قدميـــك .. ضعنى فى جملة مفيدة .

قال المدرس وقد شـــعر بأن البرد بدأ يؤذيه والفجر بدأ يشعشع فى الافق : ليس عنــــدى سواها .. قلت لك هذا الف مرة .

قال الذئب وقد ارتفع أنينه : ولـــكنها جملة مضرة. أقسم بالله جملة مضرة لى ولجنس الذئاب كله ..

قال المدرس وهو يلملم أطراف الـــكفن حول كتفيه : يؤلمنى أن أؤخر طلبـــك .. هل أعرض عليك شيئا آخر مفيدا ؟

قال الذئب وقد راوده الامـــل : أسرع ... ما هو ؟

قال المدرس وهو يرفع القمـــاش الابيض عن كتفه ويقدمه له : ما دمت لا أستطيع أن أفيدك بجملة فهل ترضى بهذه الكتف ؟ .. تعال وخذها لزوجتك وعيالك .

قال الذئب يائسا : أنا لم آت لآكل .. بل جئت لأتعلم .. وأين أجد مدرس نحو مثلك فى الجبانة كلها ؟ .. وعلى فرض اننى ذئب مفترس وقاتل كما تقولون.. أين هو لحمك ؟ لقد أفسدته كثرة التفكير .

قال المدرس : يا صديقى .. أوشك الفجر أن يطلع .. ولابد لى الآن أن أنام .

هل نسيت أننى مت اليوم ؟

سأل الذئب فى لهفة : والجملة المفيدة ؟

قال المدرس : الجملة التى عندى قلتها لك .

بكى الذئب .. توســـل للمدرس الذى غطى وجهه وغاص فى قبره وأغلقه على نفســـه ، خبط بمخالبه على الجدار الحجرى خبطات يائســـة وهو يصيح :

– أهكذا تبخل على بجملة مفيدة .. مع أننى شيخ مسكين .. ومتزوج وصاحب عيال ...

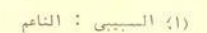
قصة من السودان

مختار ابراهيم عجوبة

عندما يهتز جبل البركل

عندما ينحدر كالسيل قطار كريمة من محطة الكاسنجر يزداد نبض قلوبنا ٠٠ ترى النساء والأطفال يحزمون أمتعتهم ، وينفضون الغبار وهم الخرطوم عن أجسادهم ، تهفو أرواحهم الى ديار تركوها زمنا ، يتراءى لنا جبل البركل من كل جانب اذا نظرنا شرقا رأيناه واذا نظرنا غربا رأيناه ، والقطار يتلوى كالثعبان يشق الوديان ـ وفاطمة تحدثنا عن سر الجبل الذى لم نره فى هذا اليوم ، فقد تأخر قطارنا ـ ولكن الجبل كان يجذبنا ، وقالت فاطمة ان الجبل يحن الى أبنائه كما يحن أبناؤه اليه ، يبقى الجبل فى قلوبنا سنين طويلة حين نغادر ديارنا ـ آخر ما نشاهده وعندما نعود أول ما نراه ٠٠

وكانت فتاة وجهها ندى ، تتدلى ضفائرها ، عيناها محاطتان بهالة سوداء ، كأنها بقرة نفساء عليها تمائم ٠ وابنها عبد المنعم يجرى يقفز هنا وهناك بين « قمرات » القطار ، كان كعصفور فيه ملامح أمه وبراءة الطفولة ٠٠ خدوده مكتنزة ٠٠ سمراء تشوبها حمرة ٠٠ عيناه فيهما حور ٠٠ وهو صغير وجلبابه المخطط ٠٠ وحذاؤه الأحمر ٠٠ اللامع ٠٠ وشعره السبيبى(١) الأسود ٠٠ ينساب على جبهته ٠٠ ويداه الصغيرتان الطريتان ٠٠ وحديثه الذى لا ينتهى ٠٠ وتعثر فى الكلمات ونطقها ، يجعله هذا محببا الينا ٠٠ من قمرة المدرسات كان يأتى الينا ٠٠ وعندما رأينا المدرسات كان خبرا سعيدا تناقلناه فى سرعة الريح ولم يلفت عبد المنعم ناظرنا فى أول الامر ، ولكنه كان الممر الذى عبرنا عليه الى قمرة المدرسات ، كان مصرا على التجوال في القمرات المجاورة ٠ ولكن حرصنا على أن يألف قمرتنا ، وكالطائر البرىء كنا نلقى له بالحب لنصطاد غيره ٠ وفى الممر كنا نحمله فيفلت منا صارخا مداعبا ، كنا خمسة مدرسين عائدين الى الشمال ٠ كان عبد المنعم يخطف نظارة أحدنا ، فاذا بواحدة ترجعها الينا ، ويخطف محفظة احداهن فنرجعها اليهن ، كنا كأطفال نتسابق فى ارجاع ما يخطفه عبد المنعم منا ٠ اختلطت حركتنا فى الممرات ، وسرعان ما كنا نحمل براريد الشاى وأطباق الترمس والفول ـ كنا نصر على ذلك ـ هن لايطلبن منا شيئا ، ونحن نتنافس فى صمت على ارضائهن ولو بالغنا فى الكرم ـ أى شعور ذلك الذى ينتاب أحدنا عندما يقدم خدمة لفتاة وتشكره وتبتسم له ٠٠ تكفى هذه الأشياء البسيطة لتجعل أحدنا يسير على رأسه أو يمشى مشى العقرب ٠ تحدثنا كثيرا عن الأحزاب ، واتفقنا وكنا متفقين سلفا ،



(١) السبيبى : الناعم

على أنه ليس فى البلد شيء مثير • حياتنا خلافات سياسية فى قرى نائيـــة لا نجد فيها ما نأكله أحيانا •• قبل أن أعرف اسمها بدأت الحديث عن ثورة أكتوبر فقالت لى : « انك تنفخ فى قربة مقدودة » •

فاجأتني بالرد ووافقتها مضطرا حتى أكسب رضاءها • وعندما كنا صغارا ، كنا نحضر الماء لمنزلنا عصر كل يوم ، صنع أبى قربة كبيرة كنـا نحملها على حمارتنا الزرقاء ، أختى مريم وأخى وأنا ، وفى النيل ألقينا بها حتى تبتل يومـا • وأعجبتنا برودة الماء واندفاع التيـــار الذى كان يجرف الرمال من تحت أقدامنا فنتهاوى وتبللت ملابسنا ، وجدنا هذا منعشا فأخذنا نتراشـــق بالماء ، وقربتنا عندما ذهبنا لأخذها رأينا الاسماك الصغيرة تقفز الى جوارها ، أعجبنا بياض السمك وهو يقفز هاربا منا ، كنا نصمت فيتجمع السمك حولها مرة أخرى فنحاول اصطياده ولا ندرى كيف كان يفلت منا • وكنا نسأل بعضنا • لماذا يتحاوم السمك الى جوار القربة ، وملأناها ماء وحملناها على ظهر الحمارة ، وعندما وصلنا الى البيت كانت قد أفرغت جميع مابهـا من ماء ، الخروق تظهـر من كل جانب ، ما نسد واحدا الا وانفتح آخر ، فتركناها وبتنا عطاشا •

أمسك رجل كبير عبد المنعم من يده وقال لنا ، وكنا نقف صامتين :

ـ يا جماعة الشافع (٢) ده ما عنده أهل ؟

قلنا له : خليه يا عم •

وعندما وصلنا « أم رهو » سمعنا صراخـــا واشتد الصراخ • ووب (٣) على يا منعم •وأخذت فاطمة تجرى نحو الصحراء ، القطار كله جرى وراءها •• وأخذت تلطم خديها وتصرخ :

ـ عبد المنعم وين •• عبد المنعـــم وقع من القطر ••

قلنا بصوت واحد : يمكن فى قمرة •

فتشنا القمرات ، فى قمرة طرقنا الباب واندفعنا وجدنا امرأة الناظر ترقد كجبل وعليها فركة (٤) فخذها لامع معطر ، غطته فى سرعة وأطفالها فوقها كالجراد ، لم تهتم بنا ، أزاحت الاطفال من فوقها وهم ينيصون (٥) ، سألناها :

ـ شفت عبد المنعم •

(٢) الشافع : الطفل الصغير •

(٣) وب على : يا نهار اسود على •

(٤) الفركة : ثوب من الحرير يلف الجسم كله فوق الجلباب ، وهو لباس الأغنياء •

(٥) ينيص : يبكى •



تثاءبت •• منو (٦) عبد المنعم ••

هرولنا •• وفى دورة مياه مغلقة طرقناهـــا •• فسمعنا طرقا •• فصحنا جميعا عبد المنعم لقيناه •• وازداد الطرق ، قلنا الولد شيطان•• قفل الباب عليه • وعندما اشتد الطرق ـ خرج عمنا الحاج •• العرق يتصبب من جسمه وكأنه نهر •• يحمل ابريقه فى يده •• نظر الينـا فى دهشة •

ـ مالكن (٧) آناس انتو مجانين ؟

اشتدت حركتنا •• لم نصدق •• عبد المنعم عمره أربع ســنوات لو وقع من القطار لتكسرت عظامه •• العويل •• يرتفع عاليا •• ونســـاء كالنعاج أخرجن رءوسهن من النوافذ وأخـــذن ينظرن •• اضطربت قلوبنـــا •• وكان الناس يتهامسون •• والنساء نسمع أصواتهن بين الحين والآخر •

(يا يمه الغبا (٨) على المرة •• المرة كيفن تخلى جنى حشاها للناس الأغراب) ••

يا يمه الله ينجينا شر بنات الزمن ده ••

نزلت امرأة كبيرة السن ، خفيفة الحركة ، جادة المحيا وأمسكت بفاطمة وضمتها الى حضنها وأخذت تجفف دموعها وترجوهـــا الصـــبر ، والايمان بالله ، والمدرسات يقفن مضطربات الى جوارها ولا يدرين ما يصنعن •• وماجدة •• التى علقت بها •• كنت أفتش وأراقبهـــا عن

(٦) منو : من ؟

(٧) مالكن : ماذا بكم ؟!

(٨) يايمه الغبا : يا أمى •• يا لغباوة المرأة •

بعد ومن طرف خفى .. فتشنا العجلات وكنا أكثر تشاؤما بحثا عن آثار دماء .. والعربات . قلبنا الأزيار والقفاف .. وفحصنا جميع الاطفال .. وكل أم أمسكت بطفلها .. والأطفال عندما نقترب منهم يصرخون .. مرة أخرى انطلقت فاطمة وانطلقنا وراءها .. وتحلق الناس حول خدام الناظر وكان دينكاويا (٩) .. طويل الساقين واليدين .. يرتدى رداء قصيرا وكان يجلس فى أحد سلالم الدرجة الرابعة ، لا يكلم أحدا ولا يكلمه أحد ، عيونه حمراء وشعره ورقبته وكل جسمه دثره الغبار ، وفى المحطات كان يأتى الى عربات الدرجة الأولى ومن الشباك كان يسأل امرأة الناظر ان كانت تريد شيئا .. وفى أوقات الطعام تعطيه قطعا من الخبز يأخذها ويذهب صامتا كعادته .. كان الناس يشدونه ..

ــ انت شفت الولد يجرى وراء القطر ..

فكان يشير اليهم ان نعم ، بعض الناس سبه لأنه لم يتكلم وبعض الناس عذره وبعضهم اتهمه بأنه هو الذى ألقى به ، وكان لا يدرى فيم يتكلم الناس وكان بعضهم يتقاذفه فى حماس هذا يمسكه من يده ويجره اليه ليحكى كيف رآه يجرى ، وآخر يشده من قميصه .. وفى كل مرة كانت اجابته واحدة ولغته لا تسعفه بأكثر منها .

ــ أنا شفت ولد صغير يجرى وراء قطر ..

أسرعنا الى السائق قلنا له نرجع بالقطار ، والشمس تلسع رءوسنا كانت الساعة الثانية عشرة ظهرا ، كثير من الناس استبشروا ، سيصل قطار كريمة اليوم فى موعده ، لم يحدث هذا منذ سنوات ، وأنا وحدى كنت أتمنى أن تطول الرحلة ، حططت الرحال وعقلت بعيرى .. وكانت ماجدة جنة دفق واديها ففضلت المقيل هنا ، وادى كان مجدبا .. كثيرا ما كنت أفشل فى معاملة النساء ، لا أريدها الا جاهزة وان غامرت وجلست مع فتاة وخاصة فى أماكن عامة كالقطار مثلا .. كنت أجلس معها وعندما أراها رزينة أضيق بها ، لأنها دائما تريدنى أن أتحدث وان وافقت وافقت برموشها . وأشعر بالاعياء والارهاق يتسلل الى جسدى .. الجبرية فى كلامى ينضب ما عندى ولا أجد ما أقوله لها ــ لأننى مباشرة أفكر فى حبها ويلف نظرى جسدها ، ويتحسس كل جزء فيها . تجردنى من كل فكر ، وأجردها من أى ثوب . تجلس أمامى صماء كالابله انتقل من موضوعات متفرقةوذكريات مبتورة ، لا يساعدنى عطرها على الاستمرار فيها فأقطع حديثى ، ويلفنا معا صمت قاتل .

أما قبيحات النساء فاننى لا أحاول أن أحادثهن أبدا ، وأضيق بزملائى الذين يتحدثون الى كل امرأة ، أحاديث أحاول مثلها فأفشل فاقرر ألا أحادث امرأة مرة أخرى ــ أخواتى دائما كنت أحرص على أن يكن متأدبات ومن ثم كنت لا أحادثهن ، آمرهن وينفذن وان احتجت واحدة كان الضرب نصيبها وكنت أندم على قسوتى ولكنها كانت من تمام رجولتى .. وعندما أطرق باب بغى كنت أحاول مغازلتها فقد قيل لى ان المداعبة .. لازمة ولكننى سرعان ما أطالبها بأن تتعرى أو أعريها ، وأنشحط وسطها وتتشابك الايدى والأرجل ، تصدر منها أصوات وعرق ومنى أنفاس ملتهبة ، وأعطيها الثمن دون أن أقول كلمة واحدة . علقت واحدة شقية مرة وظهر على وجهها الملل والضيق .

ــ الواحد فيكم زى الحمار يطلع وينزل .

ولكن التأوهات قيل لى انها مفتعلة، يفعلن ذلك للتهابيج . كنت أحب تأوهاتهن .. وكنت أظن أن لى ميزة خصنى بها أبى المزواج ومن شابه أباه فما ظلم ، وعندما أخبرونى بأن هذا للجميع ، ضقت بهن لأنى كنت أريد أن يكون المهن حقيقيا . وفى يوم طرقت باب واحدة وعندما تشابكت الأيدى والأرجل أسدلت يديها وأخذت علبة السجاير وأشعلت واحدة وقالت لى :

ــ تحب تدخن ؟

قلت لها : لا شكرا .



(٩) دينكاويا : منتميا لقبيلة الدينكا .

وانكمشت فوقها لحظة ثم تهدلت أطرافي وارتخى جسمي وصار باردا وشعرت برعشة برد وعمى يقترب ٠٠ وخرجت دون أن أقول شيئا ، وكانت هي مستلقية على السرير ، محافظة على وضعيتها لم تحرك ساكنا ، بردت أنفاسي ، وكأنفاس طفل لا يسمع زفيره ، والقطار تتدافع أنفاسه ويلتهب صدره ، الحر كان خانقا ، والناس يتحلقون حول ناظر المحطة ، والمشاورات تجرى بين السائق والناظر ، قال السائق : نتصل بعطبرة ، أو أبو حمد ، ولم نمهله وقفز شبان كانوا معنا الى القطار ووقفوا أمام الآلات ، هددوا ٠٠ وهدد سر الختم وأشهد الناس على تطاول هؤلاء الشبان ولكنه لم يجد شاهدا ، الجميع كانوا يديرون له ظهورهم ، حتى الناظر دخل منزله ، ولم يخرج منه ، ومنع أطفاله من الخروج بعد أن شرب ركاب القطار كل ما كان في بيته من ماء ٠٠ تراجع السائق بعد أن صاح فيه أحد الشيوخ ٠

ــ عيب ياود حاج ميرغني ٠

آلاف الناس كانوا يعرفون القطار ويعرفون السائق ويعرفون ناظر المحطة حتى عدد أغنامها كان معروفا لدينا ٠٠ وكنت أنا حريصا على أن أقف الى جوار ماجدة لم يكن بيننا ما نقوله ،ولكن عبد المنعم كان يؤلمنا ووقوفي الى جوارها كان يشعرني بالاطمئنان وكان أصحابي يقفون الى جوار أخريات والقطار يتهادى متراجعا في أرض رملية قاحلة ٠٠ أي قدر هذا ! آمالنا تتحطم ستكون مأساة أن فقدنا آمالا عشنا عليها قبل أن نخوضها، ذكريات وحب وأسماء ما كنا نحلم بها ــ خديجة، محاسن ، ماجدة ، والزوجة الصغيرة فاطمة ٠٠ توزعناهن وتراضينا سرا ، نياقنا شمت رائحة « الزيف » رفعت مناخيرها وتكرفت واتجهت شرقا بروق تلمع ليلا وتختفي نهارا ، تركت ابلنا الجوعى الهزيلة الدمر وهاجرت جنوبا ٠٠ نسيم مشبع بالندى يرطبنا في أرض قاحلة السموم فيها تشوى جلودنا ٠٠ جبالها سوداء كالحة ٠٠ ماجدة الشجرة الظليلة ٠٠ هديل القماري والبلوم (١٠) كان حديثها ٠٠ فتاة لامعة قمحية ٠٠ حلمت بها زمنا ٠٠ عطرها وثوبها السفري ٠٠ تبدو غير معتنية بنفسها ٠٠ عندما تحدثت اليها ٠٠ كان حديثنا متعثرا ، وفي لحظة تفجرت ماجدة نبعا عذبا ــ تغمض عينيها ترخي أهدابها ٠٠ وعندما تدهش من أحاديثي وأشعر أنني قد تألقت في الحديث معها كانت تتسع عيناها ٠٠ ومع بسماتها تمسك بطرف ثوبها من فوق الكتف تجذبه فيظهر نهدها ٠٠ قميصها الأخضر ٠٠

(١٠) البلوم : اسم طائر ذو صوت جميل ٠



يتكور النهد صغيرا جاهلا ٠٠ يتحرك القطار وتنسحب الرمال هاربة الى الوراء ٠٠ تبين خطوطا ٠٠ وكأنها خيوط مشدودة ، ولا أثر لعبد المنعم والناس يلتفون حول خادم الناظر يسألونه ٠٠ هنا ٠٠ شفته هنا ٠٠ فينظر اليهم بعيونه المحمرة ٠٠ وفجأة وعندما انهالت عليه الأسئلة ٠٠ صمت ٠٠ ورأيناه متحفزا ، كنا نتوقع انه سيعتدي علينا ٠٠ وصاح أحد المسافرين ٠٠

ــ والله تتحرك كده ولا كده الا يروح دمك ساكت (١١) يا عبد ٠٠ يا ابن الكلب ٠

شهيق ينبعث من الاعماق ٠٠ عينان تدمعان ٠٠ وانفجر الخادم باكيا ، بأعلى صوته ،وتفجرت أعماقنا ٠٠ يا الهي ٠٠ كان يبكي من قبله،والتف الناس حوله ، والمسافر الذي هدده أخرج منديلا من جيبه ومسح عن وجهه الدمع ٠٠٠ وأخذ يعتذر ولكن ٠٠ لا شيء ٠ الصحراء ،الرمال وكأنها لم تمسها قدم انسان من قبل ٠٠ علب الساردين الفارغة وعظام منثورة هنا وهناك ٠٠ قال لنا الرجل الكبير أملوا لي الابريق مويه ٠ فملأناه وأحضرناه اليه ٠٠ أخرج مسبحته وأخذ يقرأ آية الكرسي ، قرأها عدة مرات ، وفي منتصف الطريق بين المحطتين وجدنا آثار عبد المنعم ففرحنا ٠٠ وجدنا حذاءه ٠٠ ارتطم بالارض وغاص في الرمال ، وقف ، ٠وتقدم ٠٠ خطوات ٠٠ وقع

(١١) دمك ساكت : ميت ٠

مرة أخرى ، زحف قليلا ، وخلع الحذاء ، سار مع القضبان لمسافة ، واتجه شرقا ٠٠ وأعطونى الحذاء للاحتفاظ به ، حملته وذهبت لماجدة ٠٠ قلت لها :

ـ خلى ده معاك ٠٠

فرأيتها ٠٠ عيناها ٠٠ الدموع تتفجر وأخذت تبكى ٠٠ كانت متماسكة فى أول الامر ولكنها فجأة هى كذلك انفجرت باكية لم أجد ما أقوله لها ، ونسوة يجلسن على الرمال بالقرب من القطار ، أمسكت بكتفها ٠٠ وهززتها ٠٠ وكان طريا ٠

ـ اسكتى يا ماجدة كفاية ٠٠

وذبت شوقا ٠٠ آلاف الاحاسيس تنتابنى ٠٠ كنت مترددا بين الوقوف الى جوارها والذهاب للبحث عن عبد المنعم ، لا أستطيع أن أرى فتاة وهى تبكى ٠٠ كيف أتركها وأذهب ٠٠ كنا صغارا وجاء ابن عمى محجوب قيل لى انه تزوج أختى مريم ٠٠ وكم كنت أحب مريم فرحت جدا ، عندما رأيتها ترقص وعليها القرمصيص (١٢) ووجهها ورأسها وعنقها يلمع بالذهب ، ذهب القرية كلها ٠٠ كانت كالمهرة الدنقلاوية (١٣) ٠٠ وكان محجوب بسوطه يهز ويبشر معلقا السيف على كتفه وعلى جبينه هلال ٠٠ ألهب ظهور الصبيان بسوطه ٠٠ وفى الليل سمعت مريم تصرخ قمت أدعك عيونى ٠٠ كنت أرقد عند أقدام أمى ٠٠ شعرت بحركتى ٠٠ قلت لها :

ـ مريم مالها ؟

قالت ! الليلة ٠٠ الدخلة ٠٠

قلت لها : يعنى محجوب يضربها بالسوط ٠٠

قالت : لا ٠٠

قلت : لكن بتبكى ليه ؟

وما كان من أمى الا أن انهالت على ضربا ٠٠

ـ اندمس (١٤) نوم نومك ٠٠

وضمتنى الى صدرها ، توسدت ذراعها وكنت أجهش بالبكاء مع صراخ مريم ٠ وفى الصباح تخيلت اننى سأجد جلدها مسلوخا ٠٠ ولكننى وجدتها تضحك مع الفتيات وفى مدخل بيت العروس أرادوا الامساك بى فاندفعت نحوها ٠٠ وقفت الى جوارها كانت رائحتها عبقة ويداها ناعمتان ٠٠ نظرت فى وجهها محدقا في حنان وقلت لها :

ـ البارح بتبكى ليه ؟

(١٢) القرمصيص : الفركة أو ثوب من الحرير يلف الجسم كله فوق الجلباب وهو لباس الاغنياء ٠

(١٣) الدنقلاوية : نسبة الى دنقلة ٠

(١٤) اندمس : نم ٠٠ تقولها الأم بغضب ٠

غطت وجهها بالقرمصيص ، وحملتنى عشرات الايدى الى الخارج ٠ وبعد سنوات فهمت !وتلقفتنى الصحراء والهجير مع عشرات الناس نقتفى أثر عبد المنعم ٠٠ والرجل يحمل الابريق ٠٠ صامتا لم يتكلم ٠٠ كان يشير الينا بأن نبقى خلفه حتى لا يضيع الاثر وأسرع الرجل وراء الاثر فأسرعنا ٠٠ وصار عبد المنعم يجرى شمالا ويمينا حتى اختلط الأثر ، يبدأ من نقطة ليعود اليها مرة أخرى ـ صار أثره كمتاهة والرجل يلهث ويقرأ فى سره آيات من القرآن ٠٠ رأينا طيورا خضرا تطير ٠٠ تحلق فوقنا ٠٠ تلتقى وتفترق ٠ خفنا ٠٠ قلنا هذه صقور جوارح تحوم فوق عبد المنعم ٠٠ بعضنا قال ان هذه الطيور غريبة وانه لف السودان ويعرف كل أنواع الطيور ولم ير مثلها ٠٠ كانت أجنحتها فى حجم شراع القوارب وعندما نقترب منها كانت تبتعد ٠ قال لنا الرجل ٠٠ هذا طير الرخ ٠٠ طيور سعيدة ٠٠ تحمل بين أجنحتها عود الاكسير ، من يجده يغنى الى جنى الجنى (١٥) ، وسكتنا وضحكنا ضحكات مكتومة ٠٠ قال أحد المدرسين هذا طير أبابيل ٠٠ كانت هناك جبال كثيرة صغيرة ومبعثرة هنا وهناك فى أرض لا ماء فيها ولا شجر ٠٠ كان عبد المنعم يتجه دائما نحو الجبال ٠٠ يلف الجبل عدة مرات يحاول تسلقه وعندما يعجز يتركه الى غيره صاح فينا عسكرى من القيادة الشمالية :

ـ يا جماعة الكلام ده ما بينفع اتفرقوا ٠٠٠ ناس يمشوا الجبل داك وناس يمشو شرق وناس يمشو غرب ٠٠

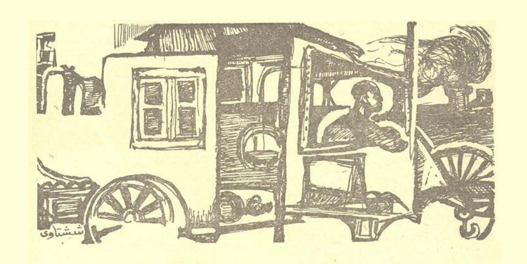
لم نستمع اليه ٠٠ وسرنا جماعة ٠٠٠ صار عبد المنعم يجلس على الارض ويخمش بيديه الرمال ويبعثرها ٠ وكان يجرى احيانا ـ السراب يتراءى له وقد اقترب منه ٠ قال لنا الرجل :

ـ خلاص بعد ده أسرعوا يا جماعة ٠٠ الولد عطش ٠٠ بلا ربنا يستر ساكت ـ القطار مل الوقوف ، دخانه كسا الجبال المنثورة الى جوارنا ٠٠ كتل الدخان تنعقد فوق رءوسنا ولكنها كانت أخف من أن نستظل بها ٠٠ وقف الرجل قليلا وتشهد ورأيناه يبكى ٠٠ وينظر أرضا ٠٠ وسألناه ما الذى أتى بالكلاب الى هنا ٠٠ ضاق الرجل بنا ٠٠ وأخذنا نتحدث عن الكلاب وطريقة عيشها هنا ٠ فصاح فينا الرجل :

ـ انتو مولودين فى لندن درب الضباع مابتعرفو ؟

وأسرعنا الخطى ٠٠ الضباع تنهش عبد المنعم

(١٥) جنى الجنى : ولد ولد ٠



.. والشمس الشـــمس .. الساعة الرابعـــة والنصف .. ستغرب بعد قليل، شارفت ،أرسلت خيوطها الحمراء دماء عبـد المنعم .. شعره حور عينيه كفاه الصغيرتان ، دمه كأشعة الشمس عند الاصيل يسيل فى فم ضبع جائع ، كنت أقتـل عبد المنعم وأحييه ، ان مات عبد المنعـم ماتت آمالنا .. وماجدة قلبها يتقطر تبكى دمع الدم .. تسلل اليأس الى قلبى وقلوب كثيرين ، ذهبوا وتحلقوا حول القطار بدأوا أشـد حماسا ولكن حرارة الشمس وجدب الصحراء ونفاد المياه من أزيار القطار جذبهم الى ظل القطار فالقوا بأنفسهم على الرمال يفترشونها .. لا أنا مندفع فى البحث عن عبد المنعم ولا أنا مستكين الى جوار النساء ، وفجأة لماذا لا أنطلق كما فعل الرجل والجنديان وطالب الهندسة ، أزرق العينين أبيض اللون ، فيه ملامح ذكاء وتقوى..وجدهم انطلقوا وتوغلوا فى الصحراء واختفوا عن أنظارنـا .. فلتأكلنى الضياع . « الولد الما (١٦) يدور القبيلة تلومه .. » أى لوم هل أنا مسؤول عنه .. غلطة أمه .. لا انها غلطتنا كانت تظنه معنا وكنا نظنه معهن .. وشغلناهن نحن .. وماجدة كنت أجلس معها .. قفلنـا الابواب والنوافذ خوفـا من تسرب الأتربة والغبار .. كن يلعبن « الوست » ونحن نتحدث وماجدة عطرها وعطر من معهـا يختلط بالغبار والجو الساخن وأنفاسهن تختلط برائحة الترمس والشاى ولحم محمر وبيض مسلوق ورائحة المانجو تملأ القمرة ـ كان خليطا من احسـاس بالشـبع وتعطش الى الجنس ـ العرق الخفيف المختلط بالعطر يفجر فى نفسى احساسات أحلم بها كثيرا وأنا أرقد وحدى أمام حجرة ضـابط الداخلية أعد نجوم الليـل عندما يكون مظلما وأعيانى العد .. وعندما يكون القمر بدرا .. كنت أحلم برحلة اليه فى سن السبعين و.عندما كنت أتحدث الى ماجده كرهت الداخلية والحجـرة الكئيبة . والكلاب تقفز ليلا فيطاردها التلاميذ وتسلح على بعضهم ويجدون فى ذلك لذة . مـرة دخل كلب حجرتى وكان التلاميذ يطاردونه وقفز على السرير وسلح عليـه . والتلاميذ الصـغار الأشقياء يضحكون .. أحضروا واحدا من أسرتهم وكنت مسهدا فى تلك الليلة . وكان حديثـا شائقا تناقله المدرسون وكنت أضـحك لأدارى غضبى وحنقى الذى كان يمزقنى فى الداخـل . كان المدرسون يغازلون فتيـات القرية وهـم متزوجون وأنا لاأراهن الا وأنا ذاهب لصـلاة الجمعة فغنين لى واشتهرت الاغنية فى البلد .. تقول كلماتها اننى أضاجع الكلاب .

قررت ألا يطارد التلاميذ الكلاب وطالبت بنقلى فورا الى أى بقعة فى البلاد . ومثل زملائى قررت أن تكون لى زوجة تحفظ سرى ولو سلحت أنا لا الكلاب على سريرى . وها هى ألتقى بها . مدرسة تساعدنى بمرتبها وبعد سنوات نبنى بيتـا فى الخرطوم ونؤجره وتتفرغ هى لتربية الأطفـال ويكون لنا طفل فى جمال عبد المنعم . والشمس تحاربنا نهارا وتحاربنا ليلا . لأول مرة تسرع الشمس نحو المغيب ، ساد الصمت بين الجميع الا همسا خفيفا ، الجميع التفوا حول القطار ماعدا الرجل ومن معه ، أربعتهم لم تعد تظهر معالمهم

(١٦) الما : لما .

— وأخذ السائق يشد صفارة القطار ، حتى ينبههم الى مكان القطار .. الشمس تهوى وان غابت الشمس غابت آمالنا .. والرمال منبسطة حمراء .. لونها شاحب لا أدرى لم خلقت هذه الأرض وكنت أتساءل عن هذه الأرض هل هى جزء من المليون ميل مربع وهل هى لنا أم علينا .. فى مرة قلت لطلبتى وقد كانوا يشكون من فقر السودان — ان صحراءنا تطوى فى أحشائها خيرا عميما ، من الذهب الأسود ، رأيت عيونهم تبرق . وفرح الصغار بالذهب الابيض فى الجزيرة والذهب الاسود فى أعماق الصحراء .

قال أحدهم وكان غاضبا :

— لو فتحنا أبيارنا فى البحر الأحمر بتجف أبيار البترول فى السعودية ، مش كده يا أستاذ ؟

قلت له :

— قول باسم الله — الله أعلم — لا تصدق يابنى خير الله واسع ..

قلت لهم :

— يا أولادى اقروا قرايتكم ، بتشغلوا نفسكم بيه .. أمور لم تشغل آباؤكم ولا أجدادكم .

فقال لى أحدهم :

— دى بلدنا يا أستاذ ..

فسكت . وانتقلت الى الدرس — وكنت أتحدث الى ماجدة قالت لى :

— ان الأمريكان لمصلحتهم الاحتكارية لا يريدون كشف البترول فى السودان . وعزت للسودان دورا خطيرا اذا ما اكتشف فيه البترول — فسيكون — على حد قولها — أغنى دولة فى الشرق الاوسط وفى أفريقيا — فلدينا ثروة حيوانية لا حد لها ، ولدينا أراض زراعية بالملايين .. ملايين الأفدنة .. ما نحتاج اليه هو التمويل .. وأعجبت بثقافتها واطلاعها وأشدت بها وقلت لها انك أول فتاة سودانية أقابلها وهى تمتاز بهذا القدر من الثقافة. راقت لى فكرتها وساقولها لطلبتى بمجرد وصولى . كنت أتخيل البترول ينبجس من هذه الارض ويكسوها سودا فى لون الجبال ، الماء فى القطار جف والأزيار أفرغت من مائها وارتوت قلوبنا بدم عبد المنعم ودم الشمس ، صار شرابنا مر المذاق ، أشعة الشمس الحمراء كسبت الجبال ، اختلط سوادها بحمرة قانية ، وكانت الجبال تعلو كأنها أفخاذ مستورة بت عبدالفراج ، فرخةعديلة خدعها أحد التجار وحملت منه ووضعت طفلة أنكرها أبوها . ومن يومها صارت مستورة مضرب الأمثال جاءت لعرس فى قريتنا وعندما خرجت نهارا تتبعها خمسة من الشبان وكانت تجرى وتصرخ والشبان يطاردونها وفى غابة الطلح التى كنت أرعى فيها أغنامنا أمسكوا بها والقوها أرضا .. سمعت صراخها وجريت نحوها .. جردوها من ثيابها .. وأهل القرية رجالا ونساء يقفون عن بعد يرفعون أيديهم ويضعونها فوق جباههم ليستروا عيونهم من الشمس وعندما يشاهدون الموقف ينسحبون الى داخل بيوتهم ، فقد كانت حرارة الشمس بالغة القسوة . قرص الشمس يدمى يتفجر لهبا على افخاذ مستورة .. كما الشمس بين الجبال تنفث دما — الشبان يغرسون السهام ما بين الفخذين فتأتى حمراء مبللة بدماء قانية ، شعرت بالدوخان ، وأنا صغير أقوى على رؤية الدماء تسيل من رقبة خروف يذبح — وكان أبى عندما يذبح خروف الضحية أشعر بأن لى صديقا ذبح وكنت أنتحى جانبا وأبكى ، وسرعان ما يدفنون الدم ومن النار آخذ نصيبى وأشعر أن ما آكله من لحم ، غير الخروف الذى كنت أرعاه وأنا صغير وهو حمل فى سن الرضاع . سألت أمى :

— يمه مستورة دى ما عندها أهل ؟

قالت لى : مستورة زى الزير ده .. الزير ده كان وقع واتكسر بتصلح تانى ؟

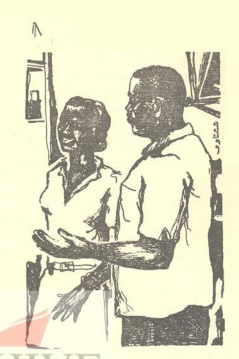
— قلت لها : لا ..

قالت لى : آه مستورة زيها زى الزير ده يا ولدى مالك — فرخة شرموطة مالك عليها .

وصارت مستورة منذ ذلك اليوم ما أن تخرج من منزل حتى يطاردها الشبان ولا يهم أن يراهم أحد أو لا يراهم . ضاقت بالقرية ، وحملت ابنتها الصغيرة ابتسام وكان الناس يضحكون على هذا الاسم ، وبعضهم كان يعد هذا من مظاهر قيام الساعة .. هاجرت الى الخرطوم وقيل انها فتحت بيتا ، صارت صاحبة نفوذ بين حكام الخرطوم ، وعندما سمع حسن حمزة بنفوذها ، سافر الى الخرطوم وعرض عليها الزواج ، فلم تقل له سوى كلمة واحدة :

— احفظ دمك يا حسن حمزة .

ومن يومها لا يدرى الناس ان كان حسن حمزة ميتا أو حيا ، فقد اختفى فجاة من الوجود ، تحمل اسمه فتاة قمحية اللون ، شعرها أكرت ، وأنفها بين الأفطس والأشم ، تسمى ابتسام حسن حمزة .. طالبة بالسنة الأولى كلية الآداب — قالت لى « حبوبتى » مرة أن الأطفال عندما يموتون ترفع أرواحهم الى السماء مباشرة ويصبحون من طيور الجنة وطيور الجنة صغيرة دقيقة الملامح حمراء



العنق ، كانت تألفنا وتأتي لتهبط الى جوار حبوبتي وتداعبها وتعطيها قليلا من حب العيش وبمنقارها الدقيق تلتقط الحب ، عبد المنعم ، طائر الجنة الصغير تصعد روحه الى السماء وتتنازعني آلاف الأهواء تشدني الى ماجدة ، وماجدة تقف على بعد أمتار مني ، كانت كالغزالة شاردة ساهمة تنظر الى الفضاء المتسع وكلنا كنا ننتظر عودة عبد المنعم ، والرجال الأربعة ، جف وادينا وابلنا تسير في أرض قاحلة ، فستانها الأخضر كان يظهر من خلال ثوبها الأبيض ، كانت تقف في الممشى ومررت بجوارها دق قلبي دقات سريعة وسال لعابي ولم تنسحب التصقت الى الجدار ، وأحسست بليونة صدرها وكأنها كانت تضمني الى الجدار ، كان الممر ضيقا ، وأردافها تبرز قليلا عن مستوى ظهرها وبالصدفة المقصودة ألصقت ظهر كفي بردفها ، كان مشدودا كسنام العاتي(١٧)

أمسيت على الله وسنام العـاتي
والتمباك مع شاي السفر ماياتي

(١٧) العاتي : الجمل القوي .. المولد .

جلست في البوفيه وقذفت « بالسفة » (١٨) من النافذة وشربت شايا وأنا أضيق بنفسي .. اعتذرت لها ولم ترد علي ، علها لم تسمع ، فقد غاص صوتي ، ولم أشعر بالاطمئنان الا في شندي حيث أرسلتني لاحضار خضار مطبوخ لهن من فندق المحطة ، وشملني فرح غامر ، يا الهي قد اخضر وادينا وبدأ السلم والسيال يخضر كخضرة مناديل شندي ـ وقلوبها الدامية أبدا تنغرس فيها السهام . وفي أبو حمد نزلنا الى سوق المحطة معا وشربنا الشاي وقوفا . وكان كثيرون يتغامزون ـ عساكر وشبان وطلبة متربون ملأ الغبار عيونهم ورؤوسهم من ركاب الدرجة الثالثة والرابعة أعرف فيهم بعض الناس تجاهلتهم عمدا وضقت بهم كثيرا عندما تركوا البحث عن عبد المنعم وجاءوا وجلسوا حول القطار ، كنت أخشى أن تسرق نظراتهم مني ماجدة كما سرقت الصحراء عبد المنعم ، وفجأة قذفت لنا الصحراء المخضبة بأربعة أشباح يظهرون ويختفون وكأنهم يسيرون في بحر من الدم .. وقف القطار كله ينظر اليهم وفي خطى ثقيلة مترددة خائفة بدأنا نتحرك نحوهم وكأننا نتهيبهم ، قلوبنا في أيدينا ، وأم عبد المنعم تركت البكاء نافرة اتسعت أحداقها تنظر الى الأشباح ، كلنا ..

ـ انشا الله يبقوا لقوه ..

ـ يارب سترك ..

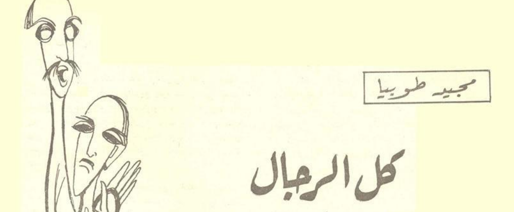
وانطلقت نحو الاشباح عدوا وقبل أن أصل رأيتهم يحملونه ، فوق أيديهم فاقفلت راجعا أعدو رافعا يدي الى السماء وكالسهم انطلقت لقيناه ، لقيناه ، تبادل الناس التهاني وأمسكت بيد ماجدة أشدها وأهزها ، لقيناه ، لقيناه .كان الرجل يحمله والعسكريان يرشانه بماء الابريق ، وطالب الهندسة كان يظلع تآكلت أقدامه من أثر المسير وطلوع الجبال . قالوا : وجدناه نائما تحت ظل شجرة خضراء ما شاهدنا مثلها حياتنا، كلنا أخذناه بين أيدينا وقبلناه من شدة البكاء وتورمت أقدامه . صار القطار أسرة واحدة وسميناه الولد السعيد .. قال بعضهم لهذا الولد مستقبل سيهز السودان ، وقالت أمه يوم ولدته رأيت النبي الخضر بعيوني ، وأخذته الملائكة ووضعته في طست ملء بالمياه ، وصرخت ، خفت عليه من الغرق، فأمسك بي الخضر عليه السلام ووضع يده فوق جبيني وقرأ آية الكرسي ، وقال سيحفظ الله ابنك من الشرور ، ركاب القطار يعيدون القصة ويكررونها وكل يضفي دورا بطوليا قام به وكان سببا في عودة عبد المنعم ، خادم الناظر وحده كان صامتا لم يتكلم ، الناس يضحكون هوجالس

يحدق هنا هناك ، عيونه الحمراء كقرص الشمس تلهب أجسامنا • فى كريمة خرجت كل كريمة لاستقبالنا ، قالوا لنا اليوم شاهدنا ما لم نشاهده فى حياتنا فى الظهر اهتز جبل البركل عدة مرات ، ومعه اهتزت المنازل ، والنهر كاد يفيض من كلتا الضفتين ولم تسقط طوبة واحدة • وفجأة رأينا الجبل ينشق ويخرج منه حيوان ،لونه أبيض تشوبه حمرة ، فى طول الجمال وشكله كالحصان – مد جناحين ظلل بهما كريمة كلها ، ورأيناه ينقسم الى أجزاء صارت الاجزاء سبعا من الطيور الخضر حلقت فوقنا عدة مرات ،واختفت لم نرها مرة أخرى ، كل انسان فى المحطة كان يأخذ عبد المنعم ويقبله • وفجأة رأيت امرأة سوداء طويلة تحمل مشعلا ووقف الى جوارها رجال يشبهونها أجسامهم عارية يسترون عوراتهم بجلود النمور ، وكل يحمل مشعلا فى يده يرفعه عاليا ، قلت لماجدة من هؤلاء ؟ قالت : انها لا ترى شيئا أغمضت عينى وفتحتهما فاذا بى أرى المرأة تتناول عبد المنعم ، وهو يصدف عنها ، رفعته الى أعلى وقبلته وانطلقت به ، وفجأة نرى آلاف المشاعل، جبل البركل يهتز مرة أخرى والمشاعل تجرى نحوه فجرينا وكان حاملو المشاعل أسرع منا عدوا ،طوالا كانوا ، ودخلوا الجبل وأظلمت كريمة عن آخرها •• وبتنا ليلتنا وتحلقنا حول الجبل كما كنا نتحلق القطار •

ولم تنم فاطمة لحظة •• كانت طوال الليل تبكى تحن وكأنها ناقة فقد حوارها (١٩) • فى الصباح لم نجد أثرا ، درب الكباش كما هو ليس عليه آثار أقدام •• سألنا الخفير فقال لنا انه لم ير شيئا ولم يسمع شيئا ، والجبل صامت يبقر الفضاء شامخا ، حاول طالب الهندسة الدخول فحذره الرجل مرة أخرى ، وقال لنا الفاتحة يا جماعة ، ورفعنا الفاتحة وقرأها •• وقرأنا ، وبعد أن انتهينا قال لنا لهذا الجبل قصة لا تعرفونها ، فى هذا الجبل يسكن قوم من العنج ، يملكون سواقى الذهب والفضة ولا يتعاملون مع أحد من الناس ، ففى داخل الجبل لهم مزارعهم وسواقيهم وماشيتهم ، قبل سنوات طويلة مرت عليهم سنة مجدبة ، فكانوا يخرجون ليلا يحملون الذهب بالأرطال ليشتروا جوالا واحدا من القمح ، جاءتنى امرأة منهم وأنا أرقد الى جوار ساقيتى أحرس محصولى بعد أن حصدته ، وطلبت منى كيلة من القمح مقابل كيلة من الذهب ، وفى اليوم التالى أحضرت لى طفلا مصنوعا من الذهب وأعطيتها أردبا من القمح وقالت لا تكلم أحدا ، وفى يوم اشتدت بى الحاجة ونفد مخزونى من القمح ، فذهبت لأحد التجار أحمل يد الطفل ودفعتها اليه سرا طالبا منه شراءها ، وكانت مفاجأة لى أن طلب منى أن أتقاسم معه الطفل والا أخبر الحكومة لم أسأله ، تركت له اليد وذهبت واذ بسيارة وضابط انجليزى معه مجموعة من العساكر يقفون أمام منزلى ، فتشوا البيت شبرا شبرا ، وجدوا الطفل ووجدوا كيلة الذهب وطالبونى باليد ، ولم أخبرهم بمكانها ، فساقونى الى السجن ، وحكم على القاضى بسنتين سجنا ، وجاء الانجليز ببواخرهم ورست البواخر الى جوار الجبل ومنعوا الناس من الاقتراب من الجبل وصاروا ينقلون الحجارة والأصنام – ولم يهتم الناس من الاقتراب من الجبل وصاروا ينقلون الحجارة والاصنام – ولم يهتم الناس بهذه الاصنام وكانوا يلعنونها فهى من عمل الشيطان ، وبعد شهور ارتحلت البواخر ولا ندرى ما كان فيها ولكنها كانت محملة بالحجارة وجاءوا برجل كبير السن بنوا له غرفة أمام الجبل لحراسته ، كان يقضى معظم وقته نائما ، وبعد شدن الأحجار من كريمة ، قال الناس ان الجبل قد اهتز وانطلقوا أصحاب المشاعل وخطفوا الضابط الانجليزى ، وعندما جرينا وراءهم وجدنا الخواجة ميتا وجثته مبعثرة عند سفح الجبل ، ومن يومها ، ان لم تداهم كريمة السيول فان الجبل يثور ويخطف طفلا ، مرة يغرق شبان فى النيل فلا نجدهم ، ومرة يتوهون فى أطراف القرية ولا نجد لهم أثرا – شهق الرجل •• وصرخ صرخة اهتز لها الجبل ، جلس وأمسك رأسه بيديه •• دهشنا •• فغرنا أفواهنا •• الرجل •• الرجل •• الشيخ أين هو •• الحق يا فضل المولى •• يا كمال •• يا صلاح يا ميرغنى •• يا حسن •• يا ماجدة •• يا أستاذ • شيخنا •• صار كبشا •• طريق الكباش يمتد الى مدخل الجبل وعمودان من أعمدة المعبد يلقيان بظليهما على سفح الجبل واتجه جمعنا نحو الميناء فى صمت فقد طبقت « الجلاء » الصفارة •• وافترقنا ••

(١٨) السفة : دخان يمضغ •• وهو مطحون كالبن •

(١٩) حوارها : ابن الناقة الصغير •



مجيد طوبيا

كل الرجال كل النساء..

سمعت الأصوات ·· باب الشقة مفتوح ـ الكتب فى يدى اليمنى ـ وقفت عند المدخل : الصالة ، السفرة منزاحة جانبا ، سواد ، مناديل بيضاء فى الأيدى ، عيون تنظر لى ، حواف المناديل سوداء · النساء ·· صورة المسيح مصلوب ، مصمصة ، العيون تنظر ، والعذراء تبكى تحت الصليب ·

تلفت يمينا : باب حجرة أمى مغلق بالمفتاح والأكرة مكسورة ·· السواد ·· الباب ابيض ، اين امى ؟ ·· وجه امرأة تضغط جفنيها بشدة ·· رأس المسيح بين الأشواك ·· النظرات تأتينى من كل ناحية ·· الباب الأبيض ، أمى ·· تقدمت اليه ·· لم تنزل دموعى ·· ولكن أين أبى ؟ الم يخبروه ؟! ·· مصمصات :



ـ شد حيلك يا حبيبى ··

الكتابة فوق الباب الأبيض بالرصاص : « نبيل بطل العالم · نبيل معبود الجماهير · عاشت ج · ع · م » :

ـ يا نبيل يا مكسور الرقبة قلت لك الف مرة لا تكتب فوق الأبواب والجدران ·

نقلت الكتب الى يدى اليسرى · لمست الأكرة المكسورة ـ النظرات ـ أدرت المفتاح ـ عيون ـ شهقات ـ بدأت أزيح البـاب · شممت رائحـة كولونيا نفاذة · شعرت بيدين تمسكنى ، تجذبنى بعيدا ، دفعت الجسد ، رأيت طرف رداء أسود وعروق نافرة فوق الكفين :

ـ تعال يا حبيبى ، شد حيلك ·

دفعتها بيـدى · جذبتنى · دفعتهـا ، دفعت الباب : الحجرة مضاءة ، الدولاب ـ كرهت الرائحة · هدوء ـ المرآة المشروخة :

– كسرتها يا مكسور الرقبة ، مرآة بلجيكى من أيام دخلتى !!

دخلت الحجرة : النافذة مغلقة بالشيش ، المصباح مضاء . الحائط ، مسمار ، برواز والمسيح يقوم منتصرا على الموت . السرير . نائمة فوقه مغطاة بالكوفرتة الحمراء ، فوقها ملاءة بيضاء . صوت أقدام بجوارى ، صوت درفة الباب المغلقة تهتز ، سمعتها . الكوفرتة منسابة فوقها ، اليدان فوق الصدر ، لابد . الرأس مغطى . الأنف بارز ، سينكتم تنفسها !!

اقتربت ، المسيح فوق السحابة بين الملائكة – شهقات – حراس القبر مندهشون ، الشهقات . مددت يدى لأسحب الكوفرتة ، التصقت امرأة بظهرى وسحبتنى يداها الى الخلف . استدرت ، رأيت سوادا ، شممت رائحة النفتالين .. احتوتنى بذراعيها وشدتنى خارجة ، سواد ، خنقتنى رائحة النفتالين النفاذة ، اهتاجت الدموع فى عينى . سرت خطوتين .. لابد أنها مغمضة العينين تحت الكوفرتة (انفلت وعدت وشددت الكوفرتة فرأيت الوجه ، كان مبتسما – سمعت بكاء – العينان مسبلتان ، كما توقعت . تبتسم – سمعت البكاء – ليست ابتسامة كاملة ، شروع ، بداية ابتسامة) . الوجه مختف ، الأنف مرتفع ، سينكتم نفسها !!

استدرت . ضممت جفونى بشدة ، ابتلت رموشى ولم تنزل دمعتان فوق الخدين ! السواد . الحائط ، رسوم يابانية لنساء فى الحمام . خرجت من الباب الأبيض .. « يا مكسور الرقبة » .

الصالة . السفرة . السواد عند الجدران ، الأهل ، جاراتنا ، بعض قريباتنا من القرية وصلوا قبلى . لماذا لا ابك ؟؟

– فلكل فعل رد فعل مساو له فى المقدار ..

طرقات على باب الفصل :

– .. ومضاد له فى الاتجاه .

الباب يفتح

– قيام .. جلوس .

– نبيل حنا يأتى .

ناظر المدرسة بنفسه !! قوانين نيوتن – وجهه حزين ، اندهشت . لم أرتكب اى خطأ . فقلت السطر الأخير من على السبورة : « ق=ك×ج » . سعل مرتين :

– احضر كتبك معك ..

يريد أن يفصلنى !! ربما بسبب هروبى من حصة الاحياء . لا أحب العبث فى أحشاء الضفادع ..

– اذهب الى البيت ، والدك يريدك .

كلمنى فى آسى فتوقعت . نظر فى عطف فخمنت وارتبكت .. ولما صعدت السلم تأكدت وسمعت ورأيت السواد .

– أين أبى ؟؟

– ذهب مع أخيك الأكبر لعمل اللازم .

– وميشيل ؟؟

– قال أبوك دعوا الولد الأصغر فى مدرسته ، ولا داعى لازعاجه مبكرا . كانت تحبه .

باب حجرتى .. حجرتى .. سريرى .. مكتبى الصغير ، القمصان ، النافذة .. النافذة المقابلة مفتوحة ، هل عادت « سناء » ؟؟ بالطبع لا ، مازالت فى مدرستها . جلست على حافة السرير .. أصوات النسوة – تعديد – ماذا ستفعل سناء عندما تعلم ؟؟ لم ترد على اشاراتى لها أبدا ، تقف تحملق فى ، أحييها وأبتسم لها لكنها لا ترد ولا تخفض عينيها عنى . فنظرتها ثابتة لا ترف ! .. بكاء النسوة ، صوت المعددة :

– كنت زهرة وقطفك الموت بدرى .. يا أختى ...

خلعت البلوفر . ارتديت الجاكتة .. ليست عندى كرافتة سوداء ؟! وحتى الآن لم أبك ! ضغطت جفونى بشدة .

ارتفع صوت المعددة – فجأة !! – زاد صراخ النسوة . اندهشت . ميزت صوت خالى ، فهمت : يرحبون بكبير العائلة ، خال أمى .. كلنا نقول له خالى .. أبى يقول خالى ، وأمى وأخوتى وأنا نقول خالى .. بانى مدفنة الأسرة .. ضحك أبى وقال :

« هذا الرجل سيدفن العائلة كلها ولن يموت .. »

سمعت خالى :

– الم يعد حنا حتى الآن ؟؟

– لا ..

– أحضرت المفتاح ، مفتاح القفل الجديد .. كسر اللصوص القفل القديم وسرقوا أسنان المرحوم وليم الذهبية ! فاشتريت قفلا جديدا «ييل» انجليزى أصلى .. لا أدرى ماذا كانت ستفعل العائلة بدونى ؟!

– ربنا يعطيك طولة العمر .

« هذا الرجل دفن ثلاثة من أولاده واحدى حفيداته وعمك واخاه .. ومن المؤكد أنه سيدفننى كذلك .. »

ثم ضحك أبى .. ابتسمت . خطوات خالى الحادة تقترب ، دائما يركب حديدة فى كعب حذائه حتى لا يتآكل بسرعة .. الباب ، وقف عنده :

– انت يا ولد قاعد هنا بدون عمل ؟؟ انزل لتقف مع عمال الفراشة .. ولا تدعهم يفرشون سجاجيد جربانة او يرصون مقاعد قديمة .

انعكاسات صفراء . برقت آلات النفخ النحاسية تحت أشعة الشمس . اقترب الأولاد فى صفين : زيهم موحد ، رمادى فى حوافه شريط أحمر .. « ملجأ الأيتام القبطى الخيرى » . جلسوا تحت السرادق . ابتسمت لهم ، لم يبتسموا . عودوهم على عدم الضحك فى مثل هذه الظروف . تاملتهم : زرايرهم نحاسية لامعة أيضا ، وضعوا الآلات فوق السجادة أسفلهم ، ولد أشعر وولد أحول والسادس عروقه



نافرة من نفخ آلته الكبيرة ••• والآخرون منظرهم عادى •• أيتـام !

الفراشـة حمراء ، الزخـرف أبيض عربى الطرز ملىء بالدوائر المتداخلة : « فراشة حسن عبد السلام » • الشارع • الشمس • عمود النور •• الحائط : « حاليا بسينما بالاس الكبرى •• » • افريز الحائط فى ركنه عش الزنابير الطينى ، حطمته فهاجرت الزنابير •• « ممنوع لصق الاعلانات » •• « حاليا بسينما بالاس الكبرى بالمنيا •• » • كيف لا أبك :

– ابنك نبيل خـرج الساعة السادسة ولم يعد الا فى التاسعة والنصف : ومن المؤكد انه ذهب الى السينما ••

– أين كنت ؟؟

– أذاكر مع صاحبى حمدى •

– كذاب • أين كنت ؟؟

– لست كاذبا •

– أمك تقول انك كنت فى السينما •

– كنت أذاكر مع حمدى •

– اسمع يا ابنى الذى يحمل قربة مخروقة تخر علبه •

– والله العظيم مادخلت السينما •

– أمك تقول أنت كنت فى السينما •

– •• •• ••

– •• •• ••

– اسمع يا ابنى : أنا أبوك وتهمنى مصلحتك •• ذاكر وفى الأجازة تفضى للسينما الكرافتة السوداء فى عنق أخى الأكبر • علب سجائر كبيرة فوق النضد الصغيرة •

سأل عن العربة وعن أبينا القسيس ، سأل عن «مشمش» لم يرجع بعد •

قالت أمى :

– كن أنت عاقلا فمشمش هو الأصغر وأعطه القلم ••

يبدو أنه كان يبكى ، أخى الأكبر •• لكنى لم أبك ! حتى الآن !

أصبع أبى أشار لى •• فمه :

– اسمع يا نبيل : كن متماسكا أمام مشمش عنـدما يأتى •• أنت الآن رجل كبير •

انفجرت صرخات محمومة ، جرس الكنيسة يدق من بعيد، شرفة البيت وسواد النسوة •• ثلاث دقات بطيئة ثم برهة صمت •• المناديل بحوافها السوداء •• « مع السـلامة يا غالية » • حركة فى الشارع •• بكاء ، دقة •• صراخ ، دقة ثانية .. عويل ، دقة ثالثة • الأولاد فى صفين •• « والله فراقك مر يا حبيبة » •• الرجال يقفون ، يصطفون خلف العربة ، خيول العربة تصهل : اربعة ستة ثمانية ، ثمانية احصنة •• والعربة مذهبة كثيرة الزجاج •• الجرس يدق •

باب البيت : صندوق خشبى فوق اكتاف رجال اربعة •• الصراخ أعلى ، امرأة تشد شعرها •• الصندوق •• الشرفات، عيال ونساء ورجال نظروا •• الصندوق •• العيون نظرت • سحبنى خالى الى الأمام : الصـندوق يدخل العربة •• القسيس أمامنـا •• خـالى ، أبى ، أخى الأكبر ، أنا ، الناس •• شرفة سناء ، مازالت فى المدرسة ، ترى ماذا ستفعل عندما تعرف ؟! • حزنت ، حتى الآن لم أبك !

آلات العزف فى الأفواه • « بساط الرحمة » يمسكه أربعة رجال – العربة تحركت – كل رجل فى طرف • نفخت الأفواه باللحن الرتيب بالايقاع المنتظم •• سرنا •• من شارع الى الميـدان •• الدكاكين تغلق نصف غلقة ، الجالس يقف ، يحترمون الصندوق المطل من العربة بين الملاكين الخشبيين • السيارات تاخذ جانب الطريق • أدرت رأسى : الحشد زاد – صوت الجرس – بالتأكيد مازال فى مدرسته صاحبى عزت، يا ليته بجوارى الآن ! •• العيون •• هل سأذهب غدا الى المدرسـة ؟؟ • أبطأت العربة لحظات ثم سـارت ، نظرت الى الأرض : عجلات العربة ، روث الخيل فوق الأرض ساخن ، بعض بخار الماء يتصاعد منه • أعتقد أننى سوف لا أذهب الى المدرسة غدا •• لكن عزت سيذهب ، وسناء أيضا ••

الصندوق أمام الهيكل •• القداس •• وقفنا جميعا • ظهر القسيس لنا :

ـ ٠٠٠ لأنه لا يبقى الا العمل الصالح ٠٠

باب الهيكل ، ستائر من القطيفة الزرقاء ، اللوحات الزيتية :

ـ ٠٠٠ ويذهب الانسان لكن ذكراه العطرة تدوم ٠٠

« مارى جرجس » ممسكا بالسيف ٠ المسيح يقوم من الموت ـ سعلات رجالى ـ الملاك ميخائيل له جناحين يطر فى السماء ٠٠ الصندوق ٠٠ فم القسيس ٠ البخور يتصاعد متكاثفا ثم يتخلخل ٠

قالت أمى :

ـ اسرع يا نبيل ، لابد أن نذهب جميعا الى فرح ابنة عمك فى الكنيسة ٠

وكان التاج فوق رأس العريس وفوق رأس ابنة عمى ، وامال كل منهما راسه فالتصقا وزغردت كل النساء ٠٠ وقال القسيس منبها على العروسة : « اطيعى زوجك وكونى عونه فى السراء والضراء » فضحك كل الرجال ، وقال : « ان ما يربطه الله لا يفرقه الا الموت » ٠

الشريط الأسود ٠ بكاء أخى الأكبر ٠ ضغطت جفونى بشدة ٠

وفى المساء قالت أمى :

ـ شد حيلك يا نبيل وذاكر لتاخذ الشهادة الكبيرة من الجامعة وازوجك بنت حلوة من عائلة مستورة ٠٠

(والتصق التـــاج فوق رأس سناء بتاجى وقال لهـا القسيس : « ما ربطه الله لا يفرقه الا الموت » ٠٠٠ فشاهدت سرير امى وروحها قرب النـــافذة وشممت رائحة الكولونيا النفاذة) ٠٠ ولما نظرت الى صورة اليابانيات العاريات فى الحمام ، أشار أبى اليها وقل :

ـ اشتريتها من قبل ان تولد انت وكانت أمك مازالت شابة جميلة ٠٠

يدورون بالبخور حـول الصـــندوق ـ الجرس مستمر ـ الشريط الأسود ٠ المسيح مصلوب هنا وعندنا فى الصـالة كذلك ٠٠ حيث علق أبى فى الحائط المقابل آية : « ان الله على كل شىء قدير » :

ـ انعلق آية المسلمين ؟!

ـ أعجبنى المعنى ٠٠ وانا لست متعصبا ٠٠

ـ لكنها آية المسلمين ؟!

البخور ٠٠ الدقات النحاسية ٠٠

ـ ليس كل المسلمين أشرارا ، منهم من هم اكثر طيبة من المسيحين ٠٠

القسيس ، المبخرة تتارجح ، الصليب فى يده :

ـ ٠٠٠ وقوى ياربنا اهلها بالصبر والسلوان ٠

حركة ٠٠ خرج الصـــندوق ٠٠ خرجنـا ٠٠ ربتت على كتفى :

ـ شد حيلك ٠

لم اعرف الرد ٠٠ هززت رأسى ٠ صوت الجرس يعـلو أكثر حماسا ٠

« محلات بشرى وفخرى » ٠٠ « جنة رضوان للملبوسات الفاخرة » ٠٠ « شارع التجارة » ٠٠ الزحام ٠ تعبت قدمى، الطريق طويل ينتهى عند النيل، عند «موردة الحنش» ٠ القسيس والموسيقى والملاكان المذهبان لم يطيرا بعد رغم ان جناحيهما مفرودان ! ٠٠ الصندوق ٠٠ الدقات الرتيبة ٠٠

ـ الله أكبر ٠٠ الله أكبر ٠٠

ماهذا ؟! نظرت حـولى ٠٠ سمعت همهمات ٠ التفت : العدد الكبير من خلفنا ٠٠ ثم ٠٠ ثم ٠٠ نعش آخر ، مسلم أو مسلمة فى الخشـبة ٠ ميت أو ميتـة ، يسيرون خلفنا والشارع ضيق ٠٠

ـ الله أكبر الله أكبر ٠٠

التفت ثانية : فى أعلى الخشبة طربوش ـ رجل ـ يرحمه الله ٠ يد تهزنى ٠٠ دقات الطبلة الكبيرة تشتد ، صـوت الجنازة الخلفية ارتفع ، زعقت الآلات النحاسية بصوت أعلى، قويت ترتيلات المسلمين ٠ اليد تهزنى : طفل ، نظر :

ـ يا عم يا عم ٠٠ من مات ؟ من مات ؟

من مات ؟! ٠٠ هى ٠٠ هى التى ٠٠ غصة فى حلقى ، بدأت عيناى تغرورقان ٠٠ سمعت صوت يشخط :

ـ امش يا ولد ٠٠ امش ٠٠

الغصة ٠٠ لكن ما هذا ؟! ٠٠ ترتيلات المسلمين تسرع تلهث ثم بدءوا يشقون طريقهم من فوق الرصيف ، مسرعين جريا ، لاهثين ركضا ٠٠ عجيبة !! ٠٠ سبقونا ، سبقوا الصندوق والعربة والخيل ٠٠ ثم هدأوا وابتعدوا وعادة رتابة صوتهم !!

ـ ما الحكاية ؟!

صوت خالى :

ـ لا يريدون أن يسبق ميتهم ترتيل النصارى ٠٠ ولا أن يسير أمامه صليب القسيس دهشت ، أحسست بالدهشـة ٠ اسرع خالى واقترب من سائق العربة :

ـ بسرعة يا ريس بسرعة ٠٠ الحق بهم واسبقهم ٠

تقدم أبى :

ـ لا داعى يا خالى ٠٠ لا داعى ٠

ـ لا يصح أن تسير بنت أختى من خلفهم حتى ولو كانت زوجتك ٠ بسرعة يا ريس بسرعة ٠٠

***

النيل « موردة الحنش » ٠٠ « رفاص البلدية » ، دخل الصندوق فوق المركب ٠ وقفنا فى صف بدأ بأبى ثم خالى وانتهى بعم جابر ٠ انصرفت الموســيقى والقسيس وبعض الناس ٠٠ ركب البعض مع الصندوق ـ دليل الاعزاز ـ أكثر من مائة ، صعدنا الرفاص ٠٠ كان المسلمون قد سبقونا ، جلسوا صامتين ، نظرت لهم ، التفت الى البر الى المدينة ، نظرت لهم ثانية : أعرف فيهم حسن ، اقترب :

ـ البقية فى حياتك ٠

ـ عشت ٠

مياه النيل تندفع الى الخلف ، اللنش يسير الى الأمام ـ لكل فعل رد فعل ـ الشمس ، الجبل هناك والمنيا فى الخلف ـ مساو له فى المقدار ـ الأحياء غرب النيل والأموات فى شرقه ! ٠٠ صوت خالى ـ ومضاد له فى الاتجاه ـ خالى :

ـ بنيت هذا المدفن منذ ١٤ سنة ٠٠ أيام الرخص ، ولم أبخل به على أى عزيز من العائلة ٠٠

المنيا تبتعد .. صوت الرفاص ، الماكينة ٠٠ بكاء أخى الأكبر ـ البكر ـ صوت خالى :

ـ فى كل عيد أعدى النيل الى الشرق وادخل المدفن أصلى على أرواح احبائنا هناك ٠٠

تل المقطم يقترب ، يعلو ٠٠

ـ فى العيد الصغير منذ أربع سنوات رصصت صناديق الرجال فى جانب ، وصناديق السيدات فى الجانب الآخر ٠٠ وكان منظرهم جميلا !!

« هذا الرجل هو دافن العائلة »

ـ وفى العيد الصغير منذ اسابيع وجدت أن المكان مزدحم فنقلت رفاة كل الرجال فى صندوق واحد واخرجت الباقى ، كذلك فعلت مع السيدات ٠٠

النيل ، المنيا صغرت بيوتها مآذنها أجراسها ٠ كف الجرس ، ربما لا أسمعه لبعد المسافة ٠٠ مقدمة اللنش تشق المياه تصفين ٠٠ « كل رجال العائلة فى صندوق واحد على جانب » ـ قرية « سواده » ظهرت فى حضن الجبل ـ « وكل السيدات فى صندوق آخر على الجانب الثانى » ٠ صوت عم جابر : ذكرياته عن السودان وجنادل النيل والنيل الأزرق وأحيانا عن السودانيات الجميلات ! ٠٠ ابتسمت ، لم أبتسم٠ أقارب المسلم يجهشون بالبكاء ٠ أبكى ، لم ابك ! أخى الأكبر احمرت عينيه الا أنا ! ـ البر ياتى الينا ـ لكنى أحبها ـ نحن ندخل البر ـ أحبت مشمش أكثر لأنه آخر العنقود ٠٠ لكنى أحبها ٠٠ خذلتنى الدموع !

دخلنا البر ، التصق بنا ٠ هبطوا ، هبطت ، لم يهبط المسلمون ، مقابرهم فى الموردة التالية « زاوية سلطان » ٠٠ الصندوق فوق الرجال ، الرجال يدوسون فوق التراب والصخور ٠ اللنش يتابع سيره جنوبا ٠ التراب ٠

***

تل المقطم ٠٠ ازقة ترتفع صاعدة بين البيوت والجحور٠٠ عيال يستمرون فى لعبهم ، اعتادوا قدوم الغرباء بالصناديق وعودتهم دونها ٠٠ تبعنا بعض الشحاذين ٠٠ دخلنا حاره سد ، عبرناها ٠٠ فى آخرها ممر ضيق ٠ صعدنا ـ على بعد عدة كيلو مترات قرية تونة الجبل ـ تعب خالى ، وقف أمام أحد الأكواخ لاهثا :

ـ سانتظركم هنا ٠٠ تعبت ٠٠

تابعنا ، صعدنا ٠٠ دخلنا زقاق آخر ـ فى حضن وفى بطن الجبل بنوا تونة الجبل للخالدين ـ « مقابر أسرة نجيب باسيلى » ٠٠ سرنا ٠٠ « مدافن عائلة كامل عياد » ٠٠

تابعنا .. « المجد لله فى الأعالى ٠٠ » صعدنا ٠٠ « مقبرة عائلة ٠٠ » أخيرا هانحن ، نهاية المشوار ٠٠

اسم خالى وباب حديدى ، الصليب بالطلاء الأبيض فوقه ٠٠ الصخور ٠٠ وضعوا الصندوق على الأرض ٠ التعب ٠ المفتاح فى يد عم جابر ٠٠ تقدم وامسك القفل ـ ييل انجليزى أصلى ـ التعب ٠ تنحنح :

ـ باسم الأب والابن ٠٠

أدار المفتاح ٠٠ عاكسه :

ـ صدأ القفل ٠٠

تقدم رجل من أهل القرية ٠ اخرج المفتاح وبلله بريقه ثم فتح الباب الحديدى ٠ نظرت ، شممت رائحة غريبة !! ٠٠ هل بالداخل عظام ودود ؟! ـ صندوق لكل النساء وصندوق لكل الرجال ـ حملقت فى فتحة الباب : ظلام ظلام ٠

ـ باسم الصليب ٠٠

ثم دخل عم جابر ، وقف ثوان حتى تتعود عيناه على الظلام ، دخل معه رجل آخر٠٠استدارا ، اقتربوا بالصندوق، دفعوه فسحباه ٠٠ دخل الصندوق الآن صندوقان للسيدات فى جانب وصندوق واحد للرجال ـ ظلام ٠٠ بكاء أخى يرتفع ٠٠ أبى يضغط على نواجزه بشدة وبسرعة ، هز راسه فى عنف ، غارت تجاعيده ٠ الظلام : اطل عم جابر منه ، ناولوه موسى ، دخل ثانية ٠٠ الظلام مرة اخرى ٠٠ نظرت الى جارى ٠٠ ربت على كتفى :

ـ ليمزق الكفن الحريرى حتى لا يسرقه اللصوص !!

ابى تتحرك شفتاه فى تمتمة غير مسموعة ٠ وانا ؟! يجب أن اقول شىء ٠٠ هل اصلى ؟! يجب أن ابكى ٠ صوت جارى :

ـ اللصوص هنا لا يراعون حرمة الميت ، فى الشتاء يسرقون الصناديق ويستدفئون بحرق خشبها !!

فتحة الظلام ٠ حملقت (رأيت الدود والعظام ، ثم رأيته بمنجله يحملق نحوى ، راسه جمجمة ٠٠ عزرائيل !!) ٠ تراجعت خطوة ، لوعزت بجانبى الآن (المنجل بثلاثة رؤوس ٠٠ تحرك ، تخلخلت عظامه ، اصطكت اسنانه !!) شهقت ، لوعزت معى ، وجه سناء (رأيت دودة كبيرة ممسكة فى فمها بلسان انسان !!) كدت أسقط ، أمسكنى رجل (ودودة تلتهم عين أحد أقربائى ! وعشرات الدود حول قلب صامت !!) ترنحت ٠٠

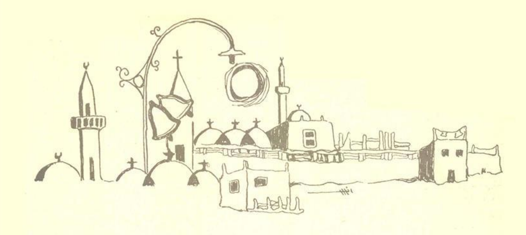
ـ شد حيلك يا ابنى ، شد حيلك ٠

وجه أمى ، عزت ٠٠٠ الظلام : خرج منه الرجل ثم عم جابر ، أمسكا الباب الحديدى (رأيت الملاكين ، المسيح فوق السحابة صعد ، ارتفع) سدا باب الفتحة، الصليببالطلاء ، القفل ٠ اختنق أبى :

ـ مع السلامة ٠ مع السلامة ، مع السلامة ٠٠

انهار أخى الأكبر ٠ ارتعشت ، دارت الأرض ، سندنى ، غامت الدنيا :

ـ كوب ماء من البيت الذى هناك بسرعة ، بسرعة ٠



بردت أطرافى :

ـ شد حيلك يا ابنى .. شدوا حيلكم . عيب ، انتم رجال !

شعرت بالغصة ..

ـ اشرب .

شربت . بدات آتنفس . اقترب الشحاذون ، تحفزوا ، هجموا على أبى ، تمسحوا به :

ـ البقية فى حياتك يا بيه ..

نهرهم عم جابر .

ـ ربنا يطول فى أعماركم ، البركة فى الأنجال ..

اخذهم جانبا . أخرج من جيبه نقود صغيرة ، قروش ، وزعها عليهم . سقط بعضها على التراب .

***

جاء الرجال :

ـ البقية فى حياتك .

سمعت جارى يقول لجاره انه ذاهب لعزاء الميت المسلم ثم يلحقه بعد ذلك على المقهى ليبارزه عشرة طاولة ..

خرجوا .. جاء غيرهم :

ـ شد حيلك .

هززت رأسى . جلسوا . تمتمت بكلام غير واضح. تحدث جارى مع زميله عن رحلات الفضاء وعن الترقيات وشكى له من رئيسه وزوجته النكدية ..

دار عليهم القهوجى بالقهوة السادة ، درت عليهم بعلبة السجائر الكبيرة ..

ـ شد حيلك ..

ـ طيب ..

أخرج احدهم قطعة حلوى وضعها فى فمه وقال أنه كف عن تدخين السجائر بعد أن نصحه الطبيب بذلك .. ثم حدثه جاره عن غلاء السمن البلدى وأنه لا يثق فى السمن الصناعى وأنه تعود على شرب كوب من اللبن كل صباح ..

جاء بعض التلاميذ ، جلسوا فى نهاية السرداق مبالغين فى حزنهم . نصحنى جارى بان اجلس بجوارهم .

قال تلميذ :

ـ استاذ العربى طلب منى أن أبلغك تعزيته .

هززت راسى ، أصابعه تضغط على بعضها البعض .. ذهبت مع بعض أصحابى لعزاء زميل لنا وكانت اول مرة ، وكبس علينا الضحك دون سبب بفعل شيطان غريب الشان !! هل يكبس عليهم الضحك الآن ؟! .. لكن عزت لم يأت معهم! من المؤكد أنه عرف .

مشمش يجلس منزويا ، يبدو غير مدرك للامور . كانت تحبه أكثر من جميع الأسرة ، آخر العنقود طبعا . نظرت له، قرضت أظافرى . لو جاء عزت ! لو بكيت !

انصرف التلاميذ . جاء عم جابر وجلس بجوارى . ربت فوق ركبتى :

ـ البركة فيكم . كن رجلا ..

ـ حاضر ..

انهمك مع جاره فى الكلام ، ذكرياته عندما كان يعمل فى السودان . لا يجيد الحديث الا فى هذا الموضوع . آه .. ها هو عزت . جرى الدم الى وجهى فجاة ، بدا مبتئسا شديد العبوس ، كانه انا :

ـ البقية فى حياتك ..

احسست بفرحة . جلسنا :

ـ كيف حدث ذلك ؟ هل كانت مريضة ؟ لكنك لم تخبرنى ؟ دائما أنت كتوم ؟!

استمر عم جابر فى حكاياته :

ـكان كل السودانيون يحبوننى ، وبكوا عندما تركت السودان ..

نظرت الى الناس .. يتحدثون أو يفكرون أو يتثاءبون . ميشيل ـ مشمش ـ يفقر ، كبس عليه النوم ..

وكثيرا ما خرجت الى رحلات صيد فى الأدغال ، أدغال السودان والحبشة ...

زغدنى عزت ، رمقنى بنظرة ماكرة . كنت قد حدثته عنه كثيرا ..

- ومرة خرجنا الى الغابات مع بعض الأصدقاء السودانيين. كنا مسلحين طبعا ، وفجاة خرج لى حيوان صغير جدا - لا هو بالأسد ولا هو بالنمر ، ولم يكن ببر أو ذئب أو اى حيوان أعرفه !! استصغرت شانه واستخسرت فيه الرصاصة ..

كتم عزت ابتسامته ..

- لكن أحد السودانيين قال لى : احمد ربنا ، كتب لك عمرا جديدا .. هذا الحيوان رغم تفاهة حجمه خطير وسمه قاتل ، اذا عقر انسان فقل عليه العفاء ، ولابد أن يموت على الفور .. ولا علاج له !!

هز السامعون رؤوسهم . رفع عزت يده وعبث فى شعره ليخفى ابتسامته ، فعلت مثله . وعندما هم عزت بالانصراف قال أنه لن يذهب الى المدرسة فى اليوم التالى وأنه سيقضيه معى .

***

أخيرا فوق السرير والحجرة مظلمة . دخل ضوء الصالة من الباب وانعكس على السقف . أبى وخالى واخى الأكبر يتحادثون . صوت خالى :

- الروح تبقى فى الشقة ثلاثة أيام . تظل مكانها حتى يأتى القسيس ويصرفها فى سلام لتصعد الى السماء .

صوت العمال يهدمون السرادق فى الشارع . اذن فهى مازالت هنا ، فى مكان ما .. صوت أبى :

- كان المشيعون كثيرين . جاملت الناس فجاملونى ..

هل هى فى حجرتها المغلقة حاليا ؟ أم معهم فى الصالة ؟!. ضغطت جفونى بشدة . كانت تحبنى وأنا احبها كثيرا دون شك .

سمعت الولد أحمد ابن جارتنا يهتف من أسفل بيته :

- ولع النور .. ولع النووور ..

صوت اخى :

- كان أول الجنازة عند شركة بيع المصنوعات وآخرها عند الصهريج !!

كنت مثل الولد احمد آخاف صعود السلم المظلم . كانت امى تقف لى من فوق وتظل تحادثنى :

- اطلع . أنا واقفة . لا تخف . اطلع ..

وأركض السلم فى ثوان .

أكمل صوت أخى :

- رغم أن النعى سينشر فى الأهرام غدا !!

ربما تكون فى حجرتى الآن ، فوق السرير أو فى أحد الأركان . من المؤكد أنها بجوار مشمش .

سمعت صوت بائع الزبادى فى الشارع ورأيت السلة تهبط من الشقة العليا ثم ترتفع بعد قليل وبها الزبادى .. وصوت باب البقال أسفلنا يغلق .. وفى منتصف الليل سوف أسمع صوت « السيفون » فى الشقة المجاورة .. وفى الفجر صوت نحنحة عسكرى الداورية فترد عليه بعض الكلاب بنباح حاد ..

صوت ابى (لأخى) :

- هل صغت النعى جيدا ؟؟

- نعم . كتبته بفعل الماضى ، وقلت أن الجناة شيعت أمس من « كنيسة الأمير تادرس » والعزاء تلغرافيا « حنا بشارع بن خصيب » .

ماذا ستفعل سناء عندما ترانى غدا ؟؟ . حملقت فى السقف (فرأيتهم يضعون صندوقى فى العربة المذهبة ، وبكى كل الشارع ، وأصرت سناء على أن تعبر خلف نعشى الى الشرق حيث وزعت الصدقة على روحى) . لكننى لم أبك بعد !

« كل النساء فى صندوق واحد .. وكل الرجال فى صندوق آخر » .. صوت خالى :

- هل كتبت بالنعى اسم صادق ابن بنت خالتك ؟؟

- نعم ..

صوت أبى :

- تعب الشارونية معنا هذا الصباح .. هل ذكرتهم بالنعى ؟؟

- نعم ..

شعرت بالجوع . لم أتعشى جيدا . لم يلح أحده على بالأكل . وجه أمى ، السقف ، ابتسامتها .. وجهها :

- ماذا تريد ؟

- اى شىء .

- جبنة ؟؟

- لا ..

- عسل ؟؟

- لا ..

- ماذا تريد اذن ؟؟

- اريد أن أتعشى .

- هل أسلق لك بيضتين ؟؟

- لا أحب البيض وأنت تعرفين ذلك .

- يا مكسور الرقبة تعبت قلبى .. ماذا تريد ؟؟

يسال خالى :

- على الله ألا تكون نسيت أيوب بالنعى ؟؟

- كتبته .. هل أقرأ لكم صيغة النعى ؟؟

- أحسن .

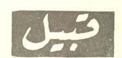
صمت . وجه سناء . أشباح على السقف . لن يسألنى أحدا : ماذا تاكل ؟؟ جبنة أم عسل أم بيض ؟؟ استدرت فوق السرير . اطلع ، أنا واقفة ، لا تخف ، اطلع ... قرأ صوت اخى :

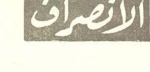
- وفاة سيدة بارة .. انتقلت الى الأمجاد السماوية السيدة . . . .

ولكن هذا اسمها !! أمى !! .. انتقلت .. الى .. الأمجاد السماوية ..السيدة .. السيدة أمى !! ..

انكفات على وجهى . المخدة . اطلع لا تخف . ارتعشت يداى . أنا واقفة لك . اهتز جسدى . بكيت .

د. نعيم عطية





ضحكت رجاء ، وقالت بصوتهـــا ذى الرنين القوى والنغم الموزون :

ـ كان يسمح للناس فى قرية جدتى ان يتلاقوا ويجتمعوا أينما حلا لهم الامر ، لكن منذ اللحظـة التى تتوثق فيها أواصر الحب بين الناس وجب أن يتدخل العمدة أو شيخ الخفر للتفريق بينهم حتى لا تقع الكارثة • وكثيرا ما قدم المحبون الى المحاكم بتهمه الاجتماع غير المشروع • وكان النـــاس يعرفون ذلك ويتحاشون مخـــالفة القواعد حتى صار الامر عرفا ، والعرف ملزم كالقانون •

تغير صوت رجاء ، فأصبح متكاثفا مثل الدخان ومضت فى حديثها :

تقـــول أمى ان البنت الآن تدور « على حل شعرها » لكن ايامها كان الاطفال فى طفـــولتهم لا يعرفون معنى الطفولة •

وسرحت ببصرها تستذكر جدتهـــا •• كانت تجلس على الاريكة ذات الوســـائد البيضاء فى غرفتها خافتة الضوء ، المعبقـــة برائحه البخور والمستكة • كان يحلو لها الثرثرة وهى ترشف أقداح القهوة بالحبهان • كانت تطحن بنفســـها البن ، وتضع الكنكة على موقد السبرتو الذى كان يلازم المنضدة الصغيرة بجوار سريرها•• ذكريات قديمة •• يا للجدة المسكينة • كلما تقدم بهـــا العمر وضعف بصرها تسرح بخيالهـــا مع الايام القديمة • ولكنها أيضا كانت تضيف من عندياتها فى بعض الأحايين تعليقات وزخارف ومبالغـــات تقصد بها جذب انتباه السامعين اليها وشدهم الى احاديثها • وهذا شأن الأجيال التى قاربت حافة الاندثار ، تتشبث بالاجيال اللاحقة ، وتلوح لهم أحيانا بالمغريات ، واحيانا بما يخيف حتى تجذب انظارهم وتسمرها عليها •

قدمت القهوة التركى الى ضيوفها ، وقالت :

ـ حكايات قديمة ، يا أولاد • كان الســـادة الأشراف يضربون الأجداد • وكان فى وســـع أصغر الأغوات أن يحطم الرؤوس • وكان الأجداد يضربون الآباء ، والآباء يضربون الأحفاد • واذا بكى المضروب وملأ الدنيا عويلا قيل هذا أفضل له ، حتى يعرف أن الدنيا ليست كلها له • وكلما عرف ذلك مبكرا كلما كان ذلك خيرا له •

هزت رجاء رأسها ، وتمتمت وهى ترى جدتها من بعيد ترشف قهوتها ببطء :

ـ هذه كانت القاعدة التى قام عليهـــا الميراث الاجتماعى •

وكانت الجدة « وديعـــة الله » تتلذذ من سرد ذكرياتها القديمة :

ـ كان أول ما يفكر فيه الأولاد عندما يصحون من النوم كل صـــباح هل يضربهم الآباء اليوم ؟ فاذا ماضربوا يوما ضربا قليلا قبلوا أيديهم ظهرا وقلبا ، ورفعوا عيونهم الى السماء قائلين : حمدا، ثم حمـــدا • قليل زائل ، خير من كثير دائم ! تصوروا ، كانوا يضربونهم حتى لتعلم الأناشيد الدينية ؟!

سقط قلم زيد على الأرض فأحدث جلبة قطعت حبل التفكير عند رجاء ، وأعادها الى واقعهـــا • ما أسهل أن نعود الى الواقع • هو كل ما هو كائن وكل ما كان • وما سيكون •

عادت رجاء تقول بعد قليل :

ـ كانت القاعدة أن من الخير للانسان أن يكون جلادا من أن يكون ضحية يعلق فى عنقـــه حبل المشنقة ، أو تســـند رقبته على النطع المخضب بالدماء ، ويطاح بها •

سألها زيد وهو يراجع صفحة مكتوبة على الآلة الكاتبة :

ـ الم يفكر أحد فى مخرج ؟

التفتت اليه رجاء دهشة :

ـ يا لك من ضفدعة بلهاء ! بالطبع كان لابد من البحث عن مخرج ·

انضم اليها مرزوق قائلا :

ـ كما هو الحال على الدوام · الجميع يبحثون عن أبواب للخروج ، ولو كانت أبوابها خاطئة ، اليس كذلك ؟

أخرج من جيب سرواله الخلفى مطواة ، وأخذ يبرى بها قلمه ·

لمحت الزميلة نجية ـ وكانت حاملا ـ عامل البوفيه يمر فى الردهة · نادت بصـوت عال ، وطلبت منه :

ـ سـندويتش عجة ، يا عويس · وكتر السلطة ، وحياة عينيك ·

لم تكن تستطيع الافطار فى البيت فهى تسكن بعيدا ، وزحام المواصلات يحتم عليهـا النزول مبكرا ، فكان الجوع يدغدغ امعاءها كلما زحفت ساعات النهار ·

تثاءب الزميل سعداوى · ظهر اللسان الأحمر انخفض الفك الأسفل وانخفض حتى بدا الحلق والاضراس السوداء كالطين · قال :

ـ عندى فكرة · نعمل جمعية · · كل واحد يدفع · · ·

لكن رجاء كانت تواقة الى ان تمضى فى ثرثرتها انها رياضة يومية ممتعة · وتلهف الباقون الى سماع القصة ، فان الحديث عن الماضى يدخل على النفوس سكينة من نوع خاص ·

تعلقت العيون بشفتى رجاء :

ـ كان أمام الجيل الجديد أن يسـلك طريق آبائه فينقلب الى طغمة من الاجلاف السكارى · · أو أن يكافح من أجل العلم والتقدم ·

التقدم ؟ التقدم !

صدمت هذه الكلمة اذن زيد بشدة·رفع رأسه عن الأوراق التى كان يراجعهـا ، وزاغ بصره بعيدا ·

ندت من مرزوق صرخة قصـيرة ، فقد زلق النصل وجرح اصبعه ·

اردفت رجاء ضاحكة :

ـ لـكن لم يكن احد يشعر بجهله وقيمته الضئيلة أمام الله ، وأمام الفكر ، وأمام الجمال ، وأمام الطبيعة ،أما أمام الناس فلم يكن احد يحافظ على كرامته الذاتية ·

الكرامة الذاتية !

خفق قلب زيد عند سماعه ذلك · أحس أنه مقبل على كشف جديد · الايمان بالتقدم · هذا رصيد ضخم ·

ترك كل اوراقه· أغلق الدرج الاوسط بالمفتاح واسند ذراعيه الى المكتب وقد تأهب للاصـغاء باهتمام لحديث رجاء ·

دخل الفراش ذو الأزرار النحاسية · لم يشعر به أحد ، فهو متلصص مثل الثعبان · وفريسته عادة أكبر منـه · وقف الى جوار زيد وانحنى يهمس فى اذنه ان المدير يريده · تلكأ حتى يلتقط اكثر ما يمكن ان يلتقطه من كلام رجاء التى لم تتنبه الى الفراش رشيق الحركة ضئيل الجسم · أصبح حديثها مثيرا ، لكن الفراش عاد يستعجله وقد صوب اليه نظرات باردة من عينين رماديتين لاتطرفان · قال له بصوت مبحوح :

ـ المدير عنـده ضـيوف · وهو على أهبة الانصراف ·

الحديث يمضى لكن المدير بشع كالشيطان · مهيب شرس الطباع · · الجميع يعجبون به بقـدر ما يخشونه · ومنذ ان شغل منصبه ، وهو يثير فى النفوس رعدة خفية · وقد عرف عنـه فى دوائر المديرين انه مراوغ من الطـراز الأول ، متأهب للانقضـاض على الدوام · كان هذا هو الدافع الوحيـد لزيد على عدم التخلف · مضى خلف الفراش ، وابتلعتهما الردهة المعتمة ·

عندما عاد كان السمر قد انفض · انصرفت رجاء وبقية الزملاء · هذا شـأن المدير معه ، عندما يكاد يصل الى ان يضع يده على بداية جادة وغدا ؟ كل يوم كلام جديد · ومن يدرى ماذا يدخره الغد من احاديث سخيفة كالمعتاد ؟

اليوم كان شيئا آخر · ولكن فجـأة اهتز عصب فى صدر زيد · هل حدث اليوم حقـا ان رجاء قالت هذا الكلام ؟! وهل يحدث ان يقول أحد هذا الكلام على الاطلاق ؟ وفى غرفة المـكتب هذه · · بجدرانها الكئيبة التى تساقط طلاؤها ؟ هل اجتمع اليوم هؤلاء · · وذكرت : الكرامة · والاجداد · · والتقدم · · والأحفاد الذين يضربون الآباء ؟!

نزل زيد درجات المبنى ذى الطوابق السـتة والثلاثين · سيسرع الى غرفته ويغلق النوافذ · · الجميع يفعلون ذلك · بالليل توصـد البيوت ابوابها ، وتسدل الستائر ، وتطلق الـكلاب فى الشوارع تنبح وتعض ، وتطـارد اللصـوص والقطط ·

يحيى الطاهر عبد الله



إيقاعات بطيئة ومنتظمة أيضا



كور الطفل جسمه القليل ونفذ من فتحة بحائط الفسحة الوسطى ، وصل للفضاء المسور المتصل بالدار من جانبه الشرقى ٠

(من وقت : هبت ريح الشمال المجنونة ، حملت عيدان السمسم والقطن من فوق أسطح البيوت ، ولمت الأوراق الجافة من فروع أشجار التوت والأثل واللبخ ، والآن – تحت الحوائط – رقدت الاوراق والعيدان الجافة ٠٠ وحمار ترابى اللون ومعزتان سوداوان ، وهناك فى الطرف البعيد كانت صومعة صغيرة هى بيت الدجاج) ٠

● ● ●



كان الطفل مطمئنا فليس ثمة من يرقبه ، قعد على أربع ، ادخل يده الصغيرة من الكوه الضيقه٠

(داخل الصومعة كانت اليد الصغيرة العمياء تتخبط فى العتمة ، وكان جسم ضئيل يراوغ اليد وكانت الصيحات متتالية مخنوقة ، ثم تتالى ضرب يائس من جناحين فى جسم حى)

فجأة انطلقت من الكوة دجاجة بيضاء ، انفلتت من يد الطفل بقفزة ، عبرت مسرعة أرض الفضاء المسور ، وجنحت للجانب الشرقي ، نطت لفوق بثلاث ضربات من جناحيها الابيضين لجانبي جسمها القليل ، وقفزت من فتحة الحائط للفسحة الوسطى الواسعة ٠

(هناك حيث ترقد جرار الماء المملوءة على السطح الترابي ، ويقف زير على حامل خشبي له ثلاث ارجل : كان سطح الزير الخارجي أخضر ٠٠ بلون العشب النامي على حوافي الترع)

●●●

كانت الدجاجة البيضاء قد فردت جناحيها الأبيضين ، كانت تنقل قدميها بسرعة وارتباك من الأرض للفضاء ٠٠ من الارض للفضاء ٠٠ وتكشح خلفها التراب ، وفجأة اختفت ٠

(نموذج لطائرة بيضاء تجرى على أرض المطار الصغير ، وخلفها شريط أبيض من الدخان ، فجأة ــ طارت الطائرة لارض مجهولة) ٠

●●●

فى الساحة الوسيعة كانت اقراص العجين على الواح الخشب تنتظر الشمس المحتجبة خلف ضباب اليوم الشتوى ، وكانت الام تنظر لابنتيها ولاقراص العجين ٠

(منذ لحظة كان التراب نائما على سطح الفسحة الوسطى بفعل الماء الذى رشته صغرى البنات ، والآن : ترقد خمس حفنات من التراب على اقراص العجين : حفنها كف طفل من كمية التراب الراقدة على سطح الفسحة الوسطى)

●●●

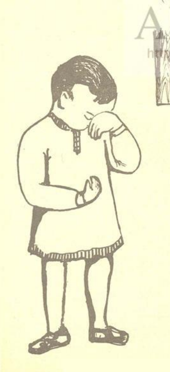
أمسكت الام بالولد الصغير ، والت الضرب ببطن يدها على عجيزته ، كانت غاضبة ٠

(ما زالت القطة ــ التي قوست ظهرها ونطت فوق صندوق خشبي بلا غطاء حين جرت الدجاجة البيضاء ــ مقوسة الظهر ٠٠ نافرة ٠٠ متحفزة لعدو قادم ٠٠عيناها تبرقان ولونها شديد السواد شديد اللمعان ، مازالت القطة تقف على حافة الصندوق)

كان الطفل مستمرا فى البكاء ، كور وجهه ونفخ أنفه فتدلى خيط من المخاط ٠ قالت الام : وسخ ، رد الطفل مكشرا وهو يبكى لازال : سأذبحها ، قالت الأم بلهجة يقينية لم تخف الطفل : سأذبحك أنت ، قبض الولد على كم قميصه بيده وله بين راحته الصغيرة ومسح المخاط عن انفه ٠

(على الحبل المعقود والمدقوق بمسمارين على الحائط الشرقى والحائط الغربى تدلى قميص خلعه الطفل فى الصباح ، على الكمين وضحت آثار المخاط الجاف بلون الطين)

نظرت الام لعيونه السوداء اللامعة (البئر سوداء وجوفاء وعميقة ومملوءة بالاسرار والرعب) والولد يتحرك تاركا الساحة وقد عاد للبكاء من جديد ــ قال : يارب استريح منك ، قالت الام : لاتذهب لهناك (نطت القطة من فوق الصندوق على على أرض الفسحة الوسطى ، فارقها الوهم وخجلت من احساسها بالخطر ، ومن فتحة فى الصندوق الخشبى ادخلت راسها : كان ينتظرها القطان الاسودان الصغيران وحفيدتها القطة الرمادية ، نامت بجسمها الطرى وتقلبت على جنبها الايمن ٠٠ هزت اثداءها وقدمتها لصغارها كى يمتصوها)





أمام الدار كان يرقد كلب اسود ، التقط الطفل حجرا كبيرا وهو مازال يبكي وضرب الكلب ، هب الكلب ونبح ، كف الطفل عن البكاء ، نظر للفضاء انفسيح أمام الدار (فروع شجرة النبق القريبة بدت كضبابة معلقة بالجزع : هكذا بدت مع ضوء النهار القليل ، والدجاجة البيضـــاء تحت الجذع بدت صغيرة جدا : تروح وتجيء فى حيرة وهى تبحث لازالت عن مكان تجد فيه الامان وتبيض ، ويحصل هو على البيضة ، يسلقها ويأكلها بمفرده وقد يذهب للطاحون ويقايض على البيضة بثلاث قطع من القصب)

● ● ●

قامت صغرى البنات برش الساحة بالماء ليرقد التراب من جديد ، كانت تلبس ثوبا من الكستور به زهور كبيرة حمراء وصفراء ، واشعلت البنت الكبرى لمبة الجاز وعلقتها فى كوة بالجدار الشرقى .

● ● ●

اشتدت كثافة الظلام حيث توارت النجوم خلف الضباب الاسود شديد التماسك ، وعم ســكون شرس) احتفظت الضفادع بحقها فى التمرد فظلت تنق نقيقا متصـــلا ، وكذا الكلاب كانت تنبح نباحا متقطعـــا ، أما القطط الاناث فظلت تنادى ذكورها بحق التناسل) .

البيوت والدروب والنخيل والشجر تماسك فى شكل كتلة سوداء متفحمة .

بالغرفة البحرية ظل ذراع الام على صـــدر الصغير وكفها على موضع قلبه تماما ، وبجوارهما رقدت البنتان ، والصـــدور ترتفع وتنخفض فى حركة منتظمة غير متقابلة ، ضوء الفانوس يغمز مع تيار الهواء الرطب الذى ينفذ من كوة وحيدة مسدودة بحائط الغرفة ، على السرير المقابل كح الممن رب الدار وبصق وتناول من تحته قربة من جلد الارانب مملوءة بالماء الدافىء وشرب جرعتين ثم لم على جسمه حرام صوفى من وبر الخراف ونام وظل يشخر .

كان الموقد قد خبت ناره . وكان الدخان كثيرا هناك على السقف المدعم بجذوع النخيل ، والهواء الذى ينفذ من كوة الحائط اشـــتدت رطوبته ، والكوة كانت مسدودة بغلاف نتيجة حائط ، على النتيجة كتابة وصور لاشخاص فى زى عسكرى ، وتهنئة مقدمة من مهدى النتيجة صاحب مصانع الحلوى للامة المصرية بهبة الجيش المباركة .

(كان الجو يميل الى برودة الصباح باطراد ، فوق مئذنة الجامع الكبير ، ظل شـــخص يرقب الشبورة التى صنعت نصف قوس وغطت البيوت والتقت مع استواء الأفق المغطى بالغيوم ، كان ينفخ جوفه ويفتح فمه ليخرج البخار الأبيض فى حلقات وقد تهيأ لآذان الفجر)

يحيى عبدالله

سيرينيات

تفكير واحد ملح يتساوى ـ رغم تنوعه ـ فى خلق درجة من الشعور بالتعاسه ·

جاوز سميح عامه الثالث والثلاثين ولم يفعل شيئا ذا قيمة حتى الآن · منذ ان كان فى العاشرة وهو يتوقع أن ينجز عملا هاما ، أن يصبح شابا فذا ، رجلا يشهد له النـــاس بتفوقه ونبوغه · انقضى الزمن ولكنه لم يفعل شيئا ، ولم يكتسب فى مجموع هـذه السـنين ما يسـتحق ان يذكر اللهم الا ادمان السجاير والخمر وقراءة صفحات من كتب متنوعة وبعض التجارب الخائبة فى علاقته بفتاتين أو ثلاثة · وهى كلها تجارب ليس فيها ما يثير ولم تصـل الى درجة كافية من العمـــق أو الاندماج · هكـذا يمـكن أن نلخص حيـــاة (سـميح عبد ··) التى لا يمكن أن توصـف ـ بأى حال ـ بأنها حياة حافلة وشائقة ·

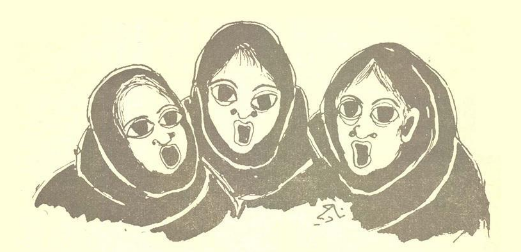
دفعه الاحساس بالفشـــل الى التفكير بأنه قد مات موتا مبكرا ، وانه بعد محاولات ، أغلبها جاد، ليس ثمة أمل فى أن يعيش تلك الحياة الخلاقة التى كان يرنو اليها منذ كان صبيا ·

جاء فى وصف أحد أساتذته ـ عندما كان طالبا بالمعهد ـ أنه موهوب لا شك ، لكن تنقصه الروح الوثابة · كأنه يشـعر اذا ما قفز قفزة واحدة ، فاما أن يرتفع الى ما بعد الفضاء أو يسـقط فى أسفل السافلين ·

لم يعد ينتبه الى مثل هذه التكهنات · المسألة الحياتية بالنسبة له غدت منتهية ·

خطأ جسيم أن نتصور شيئا من الضياع يتخلله أو أن التمزق يعتوره ، بل أن اهتزازة واحدةمن





احتزازات الضعف والتردد من الصعب أن يلمحها أحد • فهو أكثر مايكون تماسكا • لقد لحقته الهزيمة من كل جانب ، لكنه واجهها كأفضل ما يواجهها الرجل القوى المفضال • ورغم هذه الصلابة ، فانه لا يستطيع أن يمنع الشعور بالتعاسه ، يواتيه فى لحظات القوة لا الضعف • ومع ذلك ، فان هذا اذا كان يحدث تكرارا ، فلا يمكن أن يعد صفة نفسية طاغية • فكثيرا ما يبدو مرحا نشوانا • لكن مرحه ليس خالصا • انه فى أحسن حالاته لا يخلو من شائبة جرثومية منغصة تفرز وتتكاثر دون عناء •

اليوم الذى قدم فيه سميح اعلانه لاحدى الجرائد كان يوما جميلا من أيام شهر ابريل • دفع رسم الاعلان وخرج الى الشارع وهو يقبض فى يده على ايصال الدفع • نظر اليه فى اهمال ثم ألقى به بعد أن كاد يمزقه • مشى متثاقلا وهو يردد فى نفسه كلمات الاعلان : « مطلوب ثلاث فتيات للعمل مع موسيقار ، لتكوين فرقة من النائحات • الاتصال بتليفون رقم ••• » •

فرقة من النائحات للبكاء والعويل والنحيب • ولكن بطريقة لم يألفها الناس من قبل • مع شىء من تطوير الكلمات وتطويع الموسيقى ، النواح يصبح فنا عاليا •• ويستطيع هو أن يفيد من دراسته الموسيقية •

جلس فى مكانه على البار وأمامه كأس من براندى (الأومجا) • سأل أحد رفاقه من رواد بار (ايروس) •

ـ ألا تشعر أحيانا بحاجة لأن يبكى عليك أحد ؟ •

ـ لا بد أن هناك شخصا سيبكى على يوم وفاتى • ربما •

ـ أعنى دون وفاة • فلأقل يبكى من أجلك •

ـ دون وفاة • لماذا ؟ يكفى أن يبكى كل واحد من أجل نفسه • هذا اذا كان لا بد من البكاء • أنا أكره البكاء والحزن والموت وأتحاشى كل هذه المسائل • ولا أشارك فيها على الاطلاق •

ـ الموت مناسبة عظيمة وتاريخية •• وينبغى الاحتفال بهذه المناسبة كما كانوا يفعلون قديما • فرقة ندابات •• لا أقصد أولئك المحترفات ولكن آنسات ، فتيات يقمن بهذا العمل العظيم • الأمر ليس سهلا ، فهو يحتاج الى تدريبهن تدريبا شاقا • الصوت والأداء والموسيقى وطريقة استعمال الأيدى وتسريحة الشعر واختيار ألوان الفساتين •

الاسم (مديحة عبد ••) السن ٢٢ ، الوجه معبر جدا ، الحركات موجزة ، الصوت دافىء ومرتعش • أبدى سميح اعجابه الشديد بها •

قالت له : « انى لا أجيد عمل شىء سوى الحزن • »

« وهذا ما احتاج اليه تماما • »

تقدمت فتاتان أخريان • فريدة و أميرة ، فادتا الاختبار بنجاح ملحوظ • وهكذا اكتملت فرقة النائحات • عقد أول اجتماع لها فى شقته بالطابق الثامن ، وجلس الاربعة فى صومعة حيث يقبع فى زاوية منها بيانو أسود كبير كجثة هائلة لحوت هامد صريع • كان الليل قد بدأ يسيطر • نظر

سميح من النافذة وقال : « ان مدينتنا حزينة • رغم هذه الأضواء وتلك الحركة • حركة منهكة ونشاطه معظمه لا معنى له • لقد انفصل الضوء والظل عن المكان وفقد الانسان معنى وجوده فى هذه المدينة مدينتنا • لكم تشتاق لان نبكى عليها • بعض البكاء قد يخفف عنها هذه الآلام ، ولكن ، أنا أولا •• سوف أنعم بهذا العويل • لقد مت دون رثاء ولو بكلمة • وبغير أن تسقط دمعة حزينة واحدة • » أصابع البيانو وطئت تحت أنامله • وانبعث لحن مشوش ، مشوه ، متقطع كحشرجة الموت ، لكنه لا يثير اضطرابا ؛ بل يسرى فى هدوء ويتناثر ليتجمع شيئا فشيئا• أوقف العزف ونظر اليهن ثم قال : « هذه فقط هى البداية » •

قضوا ستة أشهر فى عمل متصل يزيد جهده عن عشر ساعات يوميا• شهدوا غليان أيام الصيف وهم يحاولون ، فى جنون ، خلق تالف بين أصوات البكاء والصراخ والشهيق وأنات الحشرجات زفرات تصاعد الأنفاس •

امتزج الموت بالنواح ، وتسربت كلمات الحزن وأنغام الحسرة فى لوعة وقور يحكمها ايقاع قوى مركز •

تحولت الفتيات الثلاث تدريجيا ، وبعد بذل كل تلك الطاقة ، الى نوع من الآلات الموسيقية الحية •

فقد تلاشى عنهن الشعور بالفردية ، وانمحى كل ما يمكن أن ينتمى أو يتصل بحياتهن الخاصة• فى رأى سميح أنه هكذا ينبغى أن يكون الفنان • عليه أن يواجه ذلك العالم الغريب الرهيب ، ولينبذ كل ما عداه •

مد اصابعه الى كأس (الاومجا) وقال لصاحبه فى بار (ايروس) : « المسئولون فى الوزارة يرفضون أن أقوم بتقديم أى عرض • انهم يعارضون الفكرة • اذا أردت التأثير فليكن ذلك بطريقة شرعية ، أما فرقة من النائحات ، فعمل خبيث ولا يمكن أن تدعوه فنا بأى حال • »

رغم أو بسبب الممانعة الشهيرة لعرض أى برنامج بكائى لفرقة النائحات ، فقد بدأ يسرى خبر وجودها بين الأوساط الفنية • وكان معظم الذين أخذوا يناقشون هذا العمل يعرفون سميح معرفة شخصية ويقدرون جهوده التى باءت بالفشل فيما مضى • أما الآن ، فانهم ينظرون اليه نظرة استخفاف ولا يفهمون مثل هذا الشطط ، هذا العبث الأهوج •

كان يكفى أن يدفع اليهن بالنوتة الموسيقية حتى تشرع كل منهن فى القاء ترتيلها الحزين • يكفى أن يشير بأصابعه فى احساس بالغ حتى ينتقل ذلك الاحساس من الأعصاب الى أوتار العنق ، فتنطلق أصواتهن تئن وتتأوه وتتوجع • الحشرجة تردد فى نهاية كل جملة ، ويسمع بين الفقرات صوت اللطم على الخدود ، ومع دقات العزف أو حين انقطاعه يعلو نحيب شجى وبكاء منغم •

قالت المدام صاحبة صاحبة بار (ايروس) لسميح بعد أن استمعت الى تسجيل لاحدى مقطوعاته البكائية : « ما رأيك أن نقيم حفلا خاصا ونستمع الى شىء من هذا البكاء ؟ »

المسألة لا تحتاج الى تردد • بدأ سميح يشعر وقد مضى كل هذا الوقت أنه ينوء بحمل ثقيل • هذا الكم العظيم من البكاء والدموع • انه كان بحاجة لمن يبكى من أجله • أما الآن فانه يجر فى أذياله اثقالا من التشنجات والحشرجات • ثلاث فتيات •• يكفى أن يشير اليهن باصبعه حتى يفيض الحزن على وجوههن وتملأ الدموع مآقيهن الواسعه • يكفى أن يحنى رأسه قليلا الى الوراء أو الى الخلف أو يميل بها جانبا أو يغمض عينيه أو حتى عينا واحدة حتى تنكمش كل علامات البهجة وتذوى روح الحياة • يسقط الأمل ويبدأ النحيب ويمتلىء الهواء والفراغ بشحنات من الأسى • ترتفع أياديهن الرقيقة • احداهن تضع (مونيكيرا) ، فيبدو لون الطلاء الاحمر واضحا فى أظافرها ، ترتطم الاظافر فجأة بالوجه الشاحب الناعم ، ويبدأ اللطم • تغمض عينيها فتنطبق أهدابها فى ألم وحنين على الجفنين ، تلمح هالة من لون قاتم بأسفل العينين ، ويتحول الوجه فى تلك اللحظات العنيفة من المعاناة الى قناع مأساوى يفيض حياة وحركة • الشعور بالموت يتألق فوق جبين كل منهن فتزداد به بهاء ويضاعف لها ذلك القدر الواهن النائى من الاثارة •

الجلسة فى منزل مدام (نون) صاحبة صاحبة بار (ايروس) تعطى شعورا بالراحة والثقة • قطع أثاث الشقة الفسيحة تدل عن حسن الذوق ورقى النشأة • دواليب سوداء شاهقة • أمتار طويلة من سجاد بهتت ألوانه • غطيت الحيطان بورق آخذ فى التشقق • ثلاجة (وستنجهاوس)، مع كونها هائلة ، تبدو فى زاوية من الصالة المديدة كدمية بيضاء وسط كل هذه البدائع الخشبية • الأشياء المعدنية غير ملحوظة • النوافذ كلها تكاد



تختفى وراء الستائر السميكة الداكنة • الأضواء قد توارت مصادرها ، مسلطة على مساحات صغيرة • ورغم ذلك الانحسار فانها تبدو ضعيفة ومتآكلة • رسم تصويرى للمسيح معلق داخل اطار اسود • وجهه يبدو أكثر شحوبا مما هو مألوف فى سائر صوره « رسمها أحد أصدقاء زمان • شاب يونانى يدعى ميشيل الله يعلم أين هو الآن • »

« فلننتقل الى الصالون » كانوا قد فرغوا من تناول بعض المشروبات • سميح كعادته أخذ يداعب كأس « الأومجا » • الفتيات الثلاث ،اكتفت كل منهن بنصف زجاجة كوكاكولا • بالاضافة الى الداعية مدام (نون) وصاحبتها صاحبة بار (ايروس) ، فقد شارك فى تلك الجلسة نفر من الأصدقاء • كما لفت انتباهه وجود آنسة فى الثالثة عشرة،أو الرابعة عشرة أو الخامسة عشرة، تجلس منزوية وتطالع كتابا فرنسيا ، ومن حين لآخر ترفع عينيها لتنظر نظرة جادة لا معنى لها ، أو تبتسم ابتسامة رقيقة ، وأمامها على المائدة قطعة من الشيكولاته ناقصة • أما بقية الرفاق ، فثلاث نساء فى سن متقارب وان اختلفت درجة حيوية ونضارة كل منهن ، يتكلمن الفرنسية بأصوات حادة • الرجال وعددهم أربعة ولا يقل عمر أصغرهم عن الأربعين كان كلامهم متقطعا ومتوترا بعض الشيء • وكان من السهل أن تلحظ اضطراب عيونهم من تحت نظاراتهم • على أى حال فقد أخذوا يعالجون ذلك التوتر الوقتى باحتساء الخمر بجرعات كبيرة وسرعان ما استرخت اعصابهم الى حد • قالت مدام (نون) لسميح وقد لاحظت أنه كان يديم النظر الى الفتاة الصغيرة :

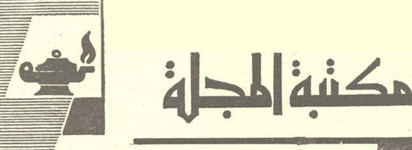
« مارى أمها سافرت وهى قاعدة معى تؤنسنى وهم يسكنون فى الشقة المقابلة • »

الموت – بصرف النظر عن أفكارنا بخصوص البعث أو حياة ما بعد الموت – نهاية حاسمة قاطعة انه المناسبة الوحيدة التى تستدعى منا الحزن الجاد كل شيء يمكن اصلاحه أو يمكن تجاهله أو يمكن تجنبه ماعدا الموت • فلنتصور مثلا فتاة لم تكمل العشرين تموت فجأة • كانت مدام (نون) فى جلستها تكتم شيئا غامضا مثيرا • أو ربما كانت تمارس لعبة جهنمية أو تقوم بأداء طقوس عبادة سرية سرعان ما ينقلب وجهها الوقور آخر الليل الى مزاولة نشاط عابث داعر •

وسط العزف الحزين الهادىء وكلمات الرثاء المتقطعة واللحن الذى بدا لطول تكراره مملا راحت المدام صاحبة بار (ايروس) تشدو بأغنية يونانيه أشارت اليها صاحبتها أن تكف • لكن سميح كان قد تنبه وجوقته لما حدث • رفع يديه من فوق أصابع البيانو وأرخى ساعديه فتدلتا الى جانبيه•أخذت كل من النائحات الصغيرات تسترد وعيها • لم يحرك رأسه • رفعت كل منهن وجهها • أغمض عينيه •• نظر الى مارى الصغيرة فوجدها قد فتحت حدقتى عينيها الى أقصى درجة ولما ظل يحدق فيها مدت كفها الى قطعة الشيكولاته الباقية ووضعتها بين أسنانها فى تؤدة •

رفع يديه بسرعة حاسمة وأخذ يدق على البيانو ضربات ساحقة • منذ أن انقطع العزف ، كان الغضب قد بدأ يرتسم على وجوه النائحات •

سرت فى عروقهن تشنجات طفرت وكأنها ترتقب هذه اللحظة • لا داعى الآن لادعاء الهدوء والسكينة • بدأ النحيب ، واستمر على النحو الذى اراد له سميح أن يكون •

سياحة في القصة القصيرة العربية

عن كتاب « أدبنا اليوم »

Arabic Writing To-day
(Short Story)

المركز الأمريكي للأبحاث في مصر

القاهرة ـ دار المعارف ـ ١٩٦٨

بقلم : ابراهيم فتحي

كيف تبدو القصة العربية القصيرة حينما تتكلم اللغة الانجليزية معبرة عن حياتنا ووجداننا ؟

والقصة العربية القصيرة في هذا السياق هي ذلك الجنس الأدبي في شموله ، وليست نماذج متفرقة من أعمال هذا الكاتب أو ذاك .

والكتاب الذي بين أيدينا يختار القصة القصيرة من بين فروع الأدب ، باعتبارها الشكل الفني الذي يكتشف فيه الجمهور العربي صورته الحقيقية على درجة كبيرة من الوضوح ؛ والذي يقدم للقارىء الغربي في نفس الوقت وثائق فنية بمثابة « مرآة لمجتمع تعكس حياته كما تسهم في تشكيلها » .

ولكن .. لماذا تحتل القصة القصيرة بالذات هذا الموقع الفريد ؟

ربما افترض الكتاب أنها بين سائر الأشكال الفنية التي نبتت وازدهرت في الغرب أوثقها التصاقا بالتقاليد العربية ، وربما وجد لها أسلافا في الحكايات القديمة وقصص العشاق والمقامات .. بل وقصة سيدنا يوسف كما وردت في سورة كاملة من القرآن ، وقد يجد فيها تكثيفا وتركيزا يربطها في وقتنا الحاضر بالصحافة وبالمشكلات المتجددة الحية .

ويبدو لي أن هذه المكانة الخاصة لا تنبع من طبيعة القصة القصيرة في ذاتها في كل الأزمنة بقدر ماتنبع من

زاوية الرؤية التى يتبناها بعض كتابها ، وصدق تعبيرها عن متطلبات المرحلة الاجتماعية الخاصة وانعكاساتها الفكرية والروحية . فالرواية كجنس أدبى أقدر من القصة القصيرة بلا جدال على تقديم اللوحات الحائطية لما يزخر به المجتمع من شخوص وأحداث ، وقد قدمت الرواية العربية بالفعل وثائق فنية تطرح مشكلات الجذور الاجتماعية والفكرية للملامح الشخصية والنفسية بكل تعقيداتها ، بينما قدمت القصة العربية القصيرة صورا جانبية تتعمق فى ومضات كاشفة بعض التناقضات الرئيسية فى الحياة الاجتماعية .

وليس من المستبعد أن يكون كد الذهن فى البحث عن سلف صالح للقصة القصيرة ، صحيح النسب فى التراث العربى القديم استطرادا قليل الفناء . فلم يخل تاريخ شعب من الشعوب من حكايات وأساطير وسرد قصصى بالمعنى العام . وقد يذوب هذا السرد فى الشعر أو الدراما أو الرواية باعتباره مادة اولية قابلة لتركيبات متعددة من الصياغة ، ولا تنفرد به القصة القصيرة ، فهى فى شكلها الفنى كجنس ادبى متميز ليست استمرارا مباشرا لذلك التراث ، وليست أكثر الفنون التى نبتت وازدهرت فى الغرب التصاقا بالتقاليد العربية . وما أبعد المسافة بين التطورات الأخيرة فى القصة القصيرة المصرية مثلا وبين حكايات التراث !

وهنا يبرز التساؤل عن المقصود بهذا الجنس الادبى المتميز للقصة القصيرة . ويحدده الدكتور محمود المنزلاوى فى تقديمه للكتاب بانه ذلك اللون من السرد النثرى الموجز الذى ينتظم فى نمط بنائى له مركز محدد ، ولا يقف عند تتابع يترسم خطا مستقيما منفردا . وهو جنس تتضح فيه وحدة الموضوع والحدث ، ويعتمد من ناحية اساسية على الكشف عن المازق الذاتى النفسى للشخصية .

وقد يصدق هذا التعريف على بعض القصص القصيرة ، ولكن استيعابه للجنس كله يقبل المناقشة . فكيف تتسع تحديداته الخاصة بالبناء الشكلى للهيكل الموباسانى ، والتشيخوفى ، ولتدفق تيار الشعور فى اطار بلا مركز ، وللشرائح الشيئية وما يمكن أن تستدعيه التجارب الجديدة من ابنية ؟ . وكذلك الحال مع تحديد الموقف الذى تدور حوله القصة القصيرة بالمازق النفسى ، فهو يضيق بكثير من قصص « همنجواى » على سبيل المثال التى تغيب عنها الحياة النفسية للشخصيات ، وترتكز على الايهام بموضوعية وصفية صارمة للأشياء والأفعال ، كما يضيق بتلك القصص القصيرة التى تهدف الى خلق « الجو » ، وتسهب فى ذكر التفصيلات الخارجية ذات الطابع التسجيلى . وهذا التحديد يجعل من الاتجاهات الذاتية – التى تضع « الأنا » ، باعتبارها ذرة منعزلة فى مكان الصدارة – قانونا عاما للقصة القصيرة . ان الرابطة الجدلية الحافلة بالتناقضات بين السمت المتعددة للشخصية وبين علاقاتها بالواقع ومستوياته الكثيرة هى المنبع الذى لا ينضب للفن القصصى ؛ وقد تتميز القصة القصيرة على وجه العموم بانها تعيد خلق تلك الرابطة من زاوية خاصة ، مختزلة اختزالا وظيفيا ، قادرا على التقاط جوهرها . ومن التعسف ان نقيم سورا صينيا بين التجربة الاجتماعية والحياة النفسية المتفرعة عنها ، ثم نعتبر تلك الحياة النفسية المنعزلة خاصة نوعية تتحدد بها القصة القصيرة . ويلحق هذا التعريف بكل التعريفات القاطعة المغلقة ذات الجانب الواحد فى مجال لا يعبأ كثيرا بالمواصفات النهائية الجاهزة .

وعلى اية حال ، فان كثيرا من القصص الواردة بالكتاب لا تذعن لهذا التعريف ، وتمضى فى عكس اتجاهه ، ولناخذ مثلا قصتى حنظل والعسكرى لنجيب محفوظ والعقرب لعبد الرحمن الشرقاوى ، فهما مما تجعلان من الملامح النفسية أداة لاكتشاف التناقضات الاجتماعية ، ولا تضعان التجربة النفسية فى بؤرة العمل الفنى .

ويهتم التقديم اهتماما كبيرا ، بابراز العلاقة التاريخية بين القصة القصيرة المصرية وبين المشكلات الاجتماعية ، ويعتبر تلك العلاقة انحرافا « محليا » عن النمط الغربى ، وقد يرجع بهذا الانحراف الى جذوره التاريخية منذ استنبات هذا الشكل الجديد فى التربة المحلية . فقد غلبت عليه النزعة التعليمية ، واتجاهات الوعظ الأخلاقى ، ثم تطورت تلك النزعة الى «الواقعية الاجتماعية» وما تلاها من نزعات .

ويرجع ذلك التعميم السريع الى أن التقديم يعتبر علامات الطريق فى القصة القصيرة الغربية وقفا على آلان بو ثم موباسان وتشيخوف منتهيا بجيمس جويس . انه لم يقف عند تولستوى وجوركى أو فترة النضج عند همنجواى وشتاينبك وارسكين كالدويل واناتزيو سيلونى .. الخ . بكل مايمثلونه من اهتمام لمشكلات الوضع الانسانى ، والصراع الاجتماعى والفكرى . وبدلا من ذلك جعل من افتقار أعمال النشأة الأولى فى مصر الى النضج الفنى مبدأ موجها ، وطابعا قوميا ربما كانت له نواحيه الايجابية .

وما هى هذه المشكلات الاجتماعية التى تناولتها القصة العربية القصيرة ؟

يذكر « التقديم » بينها الفقر ويجمع بين يوسف ادريس وعبد الرحمن الشرقاوى والدكتور طه حسين وكتابه « المعذبون فى الأرض » فى فقرة واحدة !! . وليس « الفقر » فى مجال القصة القصيرة الا عنوانا خارجيا واحدا . أما الرؤية الفكرية وأساليب المعالجة الفنية الملائمة فهى العوامل الحاسمة التى تستوجب التفرقة الحادة ، فعميد الأدب العربى كان يطرح المسالة فى قصصه من زاوية مبادىء العدالة المجردة دون مساس بأسس النظام الاجتماعى ، وكان يرفض المظاهر الصارخة للحرمان ، أما يوسف ادريس والشرقاوى فكانا يبرزان الصراع الاجتماعى ويطرحان للمناقشة أعمدة النظام الطبقى ، لذلك جاء سرد الدكتور طه حسين غنائيا يقترب من الشعر وجاءت شخصياته أمثلة

توضيحية ، بينما اعتمد يوسف ادريس والشرقاوى على سرد وصفى تحليل ، وعلى شخصيات ومواقف ذات اقناع واقعى . وليست المعركة الشهيرة بين عميد الأدب العربى والمدرسة الواقعية ضائعة الأصداء بحيث يجمعهما التقديم معا من ناحية أخطر القضايا تحت عباءة واحدة .

وبعد الفقر تأتى مشكلة فائض السكان ، كما يجدها التقديم منعكسة فى « أرخص ليالى » ليوسف ادريس ، و « الزحام » ليوسف الشارونى ، والقصتان تعكسان فى المحل الأول ضياع الانسان الصغير ، وتدهور القيمة المعنوية لحياته ، وهزيمته أمام أوضاع تفرض عليه الهبوط الى الحياة فى المستوى البيولوجى الحيوانى أو تسلبه عقله بعد أن سلبته امكان أن يجد لنفسه موضعا بين الآدميين . وهناك الأعداد الكثيفة الخانقة من الآحاد الضائعة فى وحدتها ، وليس من الممكن أن نعتبر القصتين دعوة الى تحديد النسل .

ويذكر التقديم بعد ذلك قصتى « أصابع الشعر » لحافظ رجب والزحام ليوسف الشارونى باعتبارهما تطرحان مشكلة العائلة المصرية والموقف من الأب ، والقصتان بلا جدال لا تصوران القضايا المنزلية ، ويحلقان أبعد من ذلك بكثير . والأب فيهما كما فى بعض قصص حافظ رجب الأخرى ، مثل الأب حانوت يعنى السلطة التقليدية ، بحنانها المعلن وسطوتها الصخرية .

ولم يرد فى التقديم ، كما لم يرد بين القصص المختارة أى انعكاس لقضية القضايا فى الحياة العربية ، قضية القهر الاستعمارى ومواجهة الحركة الوطنية له على طول التاريخ الحديث ، وكان تلك القضية هامشية بالنسبة الى المجتمع أو الى الفن القصصى ، حقا ان الكثير من الأعمال الرديئة قد كتبت فى هذا السياق ، حافلة بالشعارات الصارخة وأطلقت الكثير من الألعاب النارية ، ولم تحاول أن تعقد صلحا بين عالم المعركة والعالم الفنى ، ولكنها ليست كل ما هناك . لقد كتب يوسف ادريس بعض القصص الممتازة التى تصور تغلغل الحركة الوطنية الى أعمق أعماق وجداننا مثل هى لعبة؟ والمجنون .. الخ ، كما نجد أجمل ماكتب محمد صدقى مثل قصته « أبو جبل » ، وكذلك الحال مع نعمان عاشور ومحمود السعدنى فى مجموعته السماء السوداء ، وبالاضافة الى ذلك فاننا لا نكاد نلمح أثرا لانعكاسات المعارك السياسية التى خاضها المجتمع المصرى فى قصص الكتاب ، رغم أن هذه المعارك السياسية قد أسهمت الى درجة كبيرة فى تشكيل وجداننا وفى تحديد ملامح القصة القصيرة المصرية .

وقد حرص الكتاب على أن يحتفظ القارىء الغربى بصورته الأثيرة عن الشرق ، فطمأنه التقديم على أن السمة السائدة فى القصة القصيرة حتى وقت قريب ، هى النغمة الرومانسية . وبعد أن ذكر بعض المزالق التى يمكن أن يؤدى اليها الاسراف السطحى فى تلك النزعة عمد الى ابراز دورها الايجابى باعتبارها عنصرا بنائيا لا يمكن أن ينفصل عن القصة القصيرة باعتبارها جنسا أدبيا . ويتضح هذا الدور فى التعاطف ذى الطابع البايرونى الذى يكتشفه التقديم فى قصة توفيق الحكيم « الشهيد » . وهذه القصة « الفلسفية » فيما يبدو تناقش وجود الشر ممثلا فى ابليس باعتباره ضرورة لوجود الخير ، فروحه المظلمة يجب أن تظل باقية ليسطع نور الله كنقيض لها ، وهى تتسق مع فلسفة توفيق الحكيم التعادلية القائمة على التوازن بين المتناقضات . والشيطان فيها راكع ذليل يمارس دورا ضروريا مرسوما .. ولا أثر على الاطلاق لذلك التمرد البايرونى الصاخب فى مواجهة القدر والسماء ، واعتقد أن هذا الحوار الفكرى الذى يتخذ قالبا قصصيا لابراز عناصره واضفاء الحيوية على جفاف قضاياه لا يندرج تحت القصة القصيرة كجنس أدبى كما لا يصلح مثالا للأثر الايجابى للنزعة الرومانسية رغم أن الشيطان لم يكف فيها لحظة عن البكاء .

وهل يمكننا اقتفاء أثر النزعة الرومانسية فى الجامع فى الدرب لنجيب محفوظ ، لمجرد التعاطف مع البغايا الفقيرات ؟ ان القصة تضع حياة هؤلاء البغايا وخضوعهن لاستبداد القواد فى مقابل البغاء الفكرى عند الواعظ المنافق وخضوعه الملىء بالتبريرات لاستبداد الملك ، وتضفى على البغايا دلالة رمزية .

وليست حسنية بطلة « حادثة شرف » ليوسف ادريس كفيلة بترديد نغمة الرومانسية ، فهى ذات طابع واقعى واضح يبتعد عن الحلم والنزعة العاطفية ويلتصق بالرغبة والاشتهاء داخل التقاليد أو فى التظاهر بمراعاتها .

وليس ثمة مبرر لالصاق أى طابع رومانسى بقصة غالب هلسا « البشعة » ذات الايماءات الفرويدية الواضحة التى تضع فورة الجنس مرادفة لوثبة الحياة ، وتضع التقاليد المتحجرة جلادة يقف أمام تفتح الدوافع الحية وانطلاقها ، ولست أدرى لماذا يصف التقديم نظام البشعة (وضع حديدة محماة على لسان المتهم فان كان بريئا لم يصب من نارها بسوء) بأنه نظام بدوى أرستقراطى ؟

ويمكننا القول أن الرومانسية التى يعنيها التقديم

لا تتضمن تصوير ما يعد به الواقع من امكانيات لم تتحقق بعد ، ولا الحلم بما سيزدهر من براعم ماتزال مغلقة العينين، كما تذهب الواقعية الاشتراكية التى تحتضن عنصرا رومانسيا واضحا .

وقد أعفى التقديم الانتاج القصصى الجديد من مشقة حمل هذه الرومانسية ، وهو بعد ذلك ينبىء كتاب الاتجاهات الجديدة بأشياء لا يعرفونها عن أنفسهم . فهم قد تعلموا التكنيك المحكم الجديد من نادى القصة (!!) ومن مصدر آخر شديد السرية هو نوادى القصة التى تكونت فى كليات الآداب . ويضيف الكتاب مصدرا ثالثا هو النصائح والانتقادات الشهرية التى كان يقدمها الأستاذ ثروت أباظة فى مجلة القصة قبل أن تتوقف عن الصدور على الرغم من أن الأستاذ ثروت أباظة يتبع فى كتاباته الشكل التقليدى للقصة القصيرة .

ويذهب التقديم الى أن الانتاج القصصى الجديد يتميز بدرجة كبيرة من الذاتية ، وامتزاج عناصر الوهم والخيال بعناصر الواقع ، وارتياد تلك البقاع فى النفس البشرية التى لا تخضع لما هو عقلى أو منطقى وبدرجة متعاظمة من التحرر من تتابع الأحداث الخارجية فى خط زمنى واحد وكذلك باستخدام الرمز والميثولوجيا الخاصة واقتفاء أثر الجدة والطرافة فى وسائل الصياغة اللغوية .

ومن الواضح أن التقديم يعتبر الكتاب الجدد مدرسة واحدة ويضعهم جميعا فى سلة مشتركة رغم اختلاف التيارات التى ينتمون اليها . فما الذى يجمع بين مجيد طوبيا وحافظ رجب وفاروق خورشيد ؟ . ان الذاتية المغرقة التى قد تبدو على السطح عند حافظ رجب ليست الا انعكاسا للعلاقات الاجتماعية حينما ننفذ الى غرابتها الجوهرية . وما يبدو لا معقولا فى رؤياه شبه الكابوسية يعبر عن افتقار علاقات استنفدت وظيفتها الى المنطق ، ونجد عنده عالم الأشياء والسلع يسيطر على الآدميين بينما تتحول العلاقات الانسانية الى علاقات بين أشياء .. عالم الاستغلال واستنزاف الدماء وخنق الشخصية الانسانية بعد انتزاع أقنعة الألفة والتبرير. و « الذاتية » عنده لا تعبر عن المآزق النفسية الشخصية ، فهو لا يقوم بسياحة استبطانية فى النفس البشرية لرتاد أصقاعها ، بل يقدم الوقع النفسى للعلاقات الموضوعية .

ويختلف الحال مع مجيد طوبيا ، ان ثمة حدودا فاصلة عنده بين مستوى الواقع ومستوى الحلم أو الكابوس أو التخيل الوهمى . وواقعيته النقدية تجيد اكتشاف المفارقات فى المواقف والأفعال ، وتترقرق فيها سخرية هادئة تقترب من أن تكون تعليقات لاذعة مرحة ويندر أن تصطبغ بالهجاء الصاخب كما رأينا عند حافظ رجب . لذلك نجده أقرب الكتاب الى تطويع أساليب السيناريو السينمائى لمقتضيات القصة القصيرة . وقد داعبه مترجمو الكتاب فذكروا فى مقدمة « فوستوك يصل الى القمر » أن قصته « المكامير » فازت بجائزة السيناريو ، بعد أن ترجمت كلمة المكامير (وهى الحفر التى يختزن فيها الفول) The Dung Heaps أى أكوام السماد !!

وينقلنا التقديم الى القصص الواردة فى الكتاب . ونلاحظ للوهلة الأولى أن الكتاب يعبر من ناحية أساسية عن القصة المصرية ، فالقصة فى البلاد العربية لم تمس الا مسا رقيقا . وقد استطاع الذين أشرفوا على ترجمته أن يختاروا من تاريخ القصة القصيرة ألمع كتابها .

ولكن قد يثور تساؤل حول مغزى اختيار قصة «الشهيد» لتوفيق الحكيم أو قصة «جريمة نكراء» للدكتور محمد كامل حسين الذى لم يكتب فى حياته الحافلة غيرها . وحينما يدور الأمر حول رائد كبير للقصة القصيرة مثل « محمود تيمور » لا نجده ممثلا رغم تعدد الاتجاهات التى تبناها الا بقصة « العدو » ، وهى تنتهج أسلوب التحليل النفسى فى عجلة شديدة ، ولا تكاد تعبر عن اتجاه معين بالاضافة الى أنها من ناحية المستوى الفنى ليست نموذجا واضح الدلالة فى الاشارة الى مقدرة الكاتب الكبير .

وهل يمكن للقصة الطريفة المختارة من أعمال الدكتور رشاد رشدى ، وتدور حول مدمن من مدمنى الشك فى النساء ، والمآزق التى تعرض لها ، دون محاولة للتعمق فى نفسية المتشكك أن تعد مثالا للقصة المصرية حينما تعكس مشكلات الحياة الزوجية ؟ وقد يتوهم القارىء الغربى الذى قد لا يعرف يحيى حقى الا من قصتيه الواردتين فى هذا الكتاب ، وهما الفراش الشاغر و السرير النحاسى ان يحيى حقى متخصص فى مشكلات الفراش .

ولكن الثغرة الواضحة فى هذا الكتاب ، هى الأمثلة الخاصة بالانتاج القصصى الجديد فهى عينات عشوائية لا تعبر تعبيرا حقيقيا عن هذا العالم الزاخر من الانتاج الجيد الذى يشق طريقه فى قوة ، ويلتقط أعمق ملامح وجداننا .

لوحة الغلاف :

تصوير : عبد الفتاح عيد



منمنمة بمخطوط
من كتاب الاغانى (الجزء الثانى
دار الكتب المصرية

للمنمنمات فى الفن العربى الاسلامى مكانة يدل على تاريخها البعيد هذا المخطوط من كتاب الاغانى لأبى الفرج الأصفهانى ، الذى يرجع الى القرن السابع الهجرى أى القرن الثالث عشر الميلادى .

ولئن توزعت نسخ هذا المخطوط بين كوبنهاجن واسطنبول الا أن دار الكتب المصرية ظفرت ببعض أجزائه ومن بينها الجزء الثانى الذى تتصدر هذه المنمنمة فصلامن فصوله يتناول « ذكر عدى بن زيد ونسبه وقصة مقتله » .

وعدى شاعر من شعراء الجاهلية تزوج هند بنت النعمان ثم اغتاله النعمان فحزنت هند وترهبت وحبست نفسها فى دير بظاهر الحيرة حتى ماتت .

وقد استوقف المصور هذا الجانب من القصة فاراد أن يصور هند بنت النعمان - ولها فى الأدب العربى مكانة من الحب والتقدير - واختار مشهدا من مشاهد الدير يمثل مرحا بريئا اشاعه غناء وموسيقى ترددها سرب من الفتيات أحطن بهند فى ديرها فى يوم عيد .

وكثيرا ما نوه أبو الفرج صاحب الأغانى بفتيات الأديرة فى كتابه ومن ذلك قوله :

خرجت يوم عيدها فى ثياب الرواهب
فتنت باختيالها كل جاء وذاهب
لشقائى رأيتها يوم دير الثعالب
تتهادى بنسوة كاعب فى كواعب

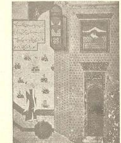
عبر الفنان عن مسرة الدير بهذا المشهد من الغناء والرقص كما جمع فى لوحته كسر البستان والمـ... تطوف بالدير وصورة ... الحشد يلفها السكينة والاحتشام عزلها المصور ورفيقتها عن صخب المرح بلمحة تشكيلية بارعة تمثلت فى غصنين من الزهر أحاطا بها وهى مائلة الرأس فى انكسار واستسلام .

ان نسيم الحياة الذى أجراه الفنان فى اللوحة وروعة الألوان وبراعة التكوين تشير الى مكانة هذا الفن العربى الاسلامى الذى لمحنا نظائر له تفيض حياة وتعبيرا فى بعض المخطوطات العربية الاسلامية .

لسنا نستطيع بيقين أن ننسب هذه اللوحة من مخطوط الأغانى الذى كتبه محمد بن أبى طالب البدرى الى فنان بذاته من الفنانين المسلمين .

ولكن أبحاث العلامة ايتنهاوزين حول منمنمات أخرى فى أجزاء من هذا المخطوط ، وكذلك أبحاث الأستاذ الكبير بشر فارس الذى تعمق دراسة هذه المنمنمة نسبتها الى الفنان بدر الدين بن عبد الله .

الغلاف الخلفى :



مشهد من قصة حب
مختارات بيسنقر

بين مدارس الفن الفارسى تتميز المدرسة التيمورية بسمات جعلتها أزهى حقبة فى فن التصوير الفارسى .

ولقد مهد لهذه المدرسة عصور سابقة أضافت الى الفن الايرانى مؤثرات اجنبية ظلت تتفاعل مع عبقرية البيئة حتى خرج منها فى عصور تيمور وخلفائه طراز ايرانى يستمد أصالته من التراث وتجدده من فنون الشرق الأقصى .

غير ان أزهى حقبة فى العصر التيمورى كانت عصر خلفائه وعلى الأخص أحفاده أبناء الشاه رخ وهم بيسنقر، وابراهيم سلطان، واسكندر بن عمر شيخ .

وقد كان بيسنقر حاكم هراة شغوفا بالفن على معرفة كبيرة بفنون الخط كما أنه أسس مجمعا للفنون انبثقت منه روائع مدرسة هراة الفنية .

وكان من أكبر فنانى هذه المدرسة ومزوقيها شمس الدين الذى تكفل بتزويق كتاب المختارات لبيسنقر وكتاب جولشتان لسعدى .

ومن روائع مدرسة هراة لوحة فى متحف الفنون الزخرفية فى باريس تمثل وصول الأميرة هماى الى بلاط أمبراطور الصين وهى لوحة مستوحاة من قصة حب هماى وهمايون اميرة الصين وثمة لوحة اخرى فى متحف المتروبوليتان تمثل فرهاد يحمل عشيقته شيرين .

وترتكز لوحات كثيرة من انتاج مدرسة فرهاد على قصص الحب الشائعة ومنها لوحة الغلاف الخلفى التى تمثل مشهد حب يزين كتاب مختارات بيسنقر ويرجع تاريخ هذه اللوحة المنمنمة الى القرن الخامس عشر وهى ضمن لوحات من مجموعة برنسون فى فلورنسا .

ومن فضائل هذه اللوحة صراحة تكوينها ووضاءة ألوانها التى تلاقت فى تناسق اخاذ واخيرا ملكة الحضور التشكيلى عند الفنان الذى جسم الاحساس بلحظة لقاء الحبيبين مستعينا فى ذلك بكل عناصر التشكيل المتاحة لتكثيف الاحساس باللحظة .

بدر الدين أبو غازى

رقم الايداع بدار الكتب : ١٦٣/١٩٦٩